إثيل لينا وايت

خطوة في الظلام



ترجمة دينا عادل غراب


MOHAMED KHATAB

خطوة في الظلام

تأليف
إثيل لينا وايت

ترجمة
دينا عادل غراب

مراجعة
هبة عبد العزيز غانم



خطوة في الظلام

إثيل لينا وايت

Step in the Dark

Ethel Lina White

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٣٣٩ ٠

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٣٨.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

المحتويات


MOHAMED KHATAB

الفصل الأول

خواطر

نظرت جورجيا يو إلى مضيِّفتها على الجهة الأخرى من المائدة بإعجاب حيي.

وتساءلت في نفسها: «تُرى هل سآلف يومًا ذلك الوجه على الطعام؟»

كانت في غاية التوتر؛ إذ أدركت أن حفلة العَشاء الصغيرة كانت مناسبة رسمية تُقدَّم فيها إلى الجميع. كانت هذه لحظتها الحاسمة، فرصتها لتقبض على مستقبلٍ أعماها بريقه.

إنها الآن تكاد تشعر بأنفاسها متقطِّعة من تلاحُق الأحداث، كما لو كانت أليس في بلاد العجائب، تدور في الهواء بلا توقف. من عشرة أيام فقط كانت قد غادرت إنجلترا، لأول مرة في حياتها. ومنذ هذه اللحظة، تتابعت الأحداث، وبسرعة شديدة.

فقد جاءت إلى بروكسل والتقت بالكونت.

وفي ليلتها الأولى كان الحدَث الجلل. اختارت أن تبقى في فندق عتيق، يتردَّد عليه أولئك الذين يفضِّلون الأجواء التراثية على مزايا أنظمة السِّباكة الحديثة. كان الفندق قصرًا فيما مضى لأسرة ثرية، وقد احتفظ بفخامته الأصلية من جدران المرمر المصفر والمرايا الضخمة ذات الإطارات المذهبة؛ خلفيةً لأثاثٍ متينٍ على طراز القرن التاسع عشر.

كان يقع في البلدة، وسط شبكة من الشوارع المظلمة الضيقة، فكان بإمكان جورجيا أن تتطلع من خلال الأبواب الدوَّارة في البهو، وتشاهد الناس وهم يمرُّون بالخارج. كانت الأمطار تتساقط في الخارج لكنها كانت خفيفة للغاية، لدرجة أن أحدًا لم يشعر بها أو يراها إلا كشذراتٍ في الظلام. كانت تتلألأ على موكبٍ من المظلات، وعلى تمثال في نافورةٍ قائمةٍ في منتصف الطريق.

أما في الداخل فقد تألَّقت ثريا بمصابيحها الكهربائية، مع توافد الزوار بلا انقطاع، محدثين صخبًا من الأصوات المتحدثة بلغة غير مألوفة. وبينما هي جالسة تراقب، أثارت

جِدة المكان لديها حماستها ولهفتها. لقد كانت تنظر إلى الخارج ستَّ سنوات كاملة، مراقبةً الشفق، لترى دائمًا المشهدَ نفسه: أرضًا قاحلة رمادية خالية، مع خط أبيضَ بعيدٍ من الزَّبد المتدفِّق، علامةً على البحر.

فتحت عُلبة سجائرها، فكانت الإشارة ليقفز الكونت حرفيًّا إلى حياتها، مستبِقًا النادل بعود ثقاب.

ليسألها بعد هنيهة: «أيمكن أن يكون هذا صحيحًا؟ أخبرني موظف الاستقبال أنكِ السيدة يو، الكاتبة الشهيرة صاحبة الروايات البوليسية العديدة؟»

وسريعًا، سريعًا ... حين أقرَّت بهُويَّتها، جرفها الكونت في تيار أنشطته المَرِحة. وفي صحبته المثيرة، رأت بروكسل دوَّامةً مشوَّشة من المباني العتيقة والشوارع المعبَّدة بالحصى، والتماثيل، ولوحات طبيعة صامتة لجثث حيوانات، ومتاجر ملابس في ممراتٍ مقنطرة مظلمة.

وقد برز من سيلِ الانطباعات التي كوَّنتها بضعةُ انطباعات لا تُمحى. البهاء العذب المحيط بالمنازل المطلية بالذهب في ميدان جراند بليس، حين رأتها في الحمرة الشاحبة لغروب الشمس. وبرجا سانت جودولا التوءمان وهما يسبَحان في الضباب الفضي. وهول عظمة دار القضاء، فكأنه يتحدى زلزلةَ يوم الحساب. وتمثال سانت مايكل الشامخ إذ يلمع في شمس الصباح. والرعب الذي تثيره لوحةٌ باسم «سن البراءة» في متحف ويرتز، لطفلَين يحرقان أجنحة فراشة.

وسريعًا، سريعًا ... هُرع بها الكونت من مكانٍ لمكان، بطاقةٍ كالإعصار. وظل متقلبًا من حالٍ إلى حال، ورسميًّا في تعامله، وجريئًا؛ يخاطر بالأعراف ويدوس التقاليدَ حتى اللحظة التي باح فيها رسميًّا برغبته في أن تلتقيَ بأسرته.

تسارع إيقاع الأحداث فصارت تدور لاهثة في دوامة بعد وصول أقاربه إلى الفندق. السيدة فاندربانت — عمة الكونت — كانت أرملةً لأمريكي ثري ومرموق. وقد صاحبها عالِم مبهر الطلعة، وهو البروفيسور مالفوي، وشاب يُدعى «كلير»، كلاهما معارف من الفرع الأمريكي. وقد نزلوا في أعلى جناح جاءت منه الدعوة المصيرية.

ثم فجأة، بشكلٍ صادم، توقَّف كل شيءٍ عن الحركة، ووجدت جورجيا نفسها جالسةً في سكون إلى مائدة العشاء.

فقد كانت تخضع للتقييم.

قُدم العشاء في حجرة الجلوس الخاصة، التي كانت حجرةً باردة بأرضية ممتدة من الخشب المطلي بالشمع. وقد عُلقت ستائرُ خفيفة بيضاء منشَّاة على النوافذ الطويلة الثلاث،

التي ظهرت عَبْرها مساحاتٌ صغيرةٌ من سماء الليل بزرقتها الفاتحة. وانعكس وهج ضوء الشموع الذهبي على مرآةٍ كبيرةٍ على طراز القرن التاسع عشر معلَّقة على الحائط.

استطاعَت جورجيا أن ترى نفسها فيها، ضئيلة وجميلة جدًّا، برداء سهرةٍ أسودَ عاري الظهر. لطالما بدت أصغرَ من سنِّها، لكنها الليلة، وعلى الرغم من جهودها لتبدوَ امرأة راقيةً محنكة، بدت غير ناضجةٍ مقارنةً بسجل مؤلَّفاتها.

حرَّكت رأسها فاختفت صورتها من المرآة.

حدَّثت نفسها قائلة: «لقد صرت بداخلها. لقد ابتلعت تلك المرآة وجوهًا عديدة جدًّا، ومشاهدَ كثيرة جدًّا.»

يعود بغضها لرؤيةِ نفسها في المرآة إلى طفولتها، حين اعتادت مربيتها أن تحملها وهي طفلة أمام مرآة كبيرة عتيقة الطِّراز. وذات ليلة حلَمت أنها بدلًا من أن ترى حجرتها المعتادة، رأت مكانًا مظلمًا معبأً بالدخان، حيث كان يوجد أشخاص غريبون بوجوه يبدو عليها الفساد يحتسون الشرابَ ويلعبون الورق.

أبوها كان دائمًا ما يلجأ إلى التفسير بالعلاقة بين السبب والنتيجة، فأشار إلى أن ذلك الحُلم كان النتيجة المنطقية للاطلاع على المجلد الممنوع لنقوش هوجارث.

ورغم أنها تقبَّلت العِبرة في الأمر، فقد ظلت دائمًا معتقدة أن المرآة قد عرضت صفحةً شريرة من الماضي.

أما الآن، فقد كانت في حالة في غاية الحساسية وهي مُقدِّمة لارتفاع درجة الحرارة الذي تعانيه دائمًا، عقوبةً لها على الشعور بالحماسة. وللتغلب على أثره، كانت قد تناولت جرعةً من الشراب، مما جعلها في حالةٍ ليست بالطبيعية تمامًا.

انتابَتها حالةٌ من الانفصال الوجيز كشخصٍ متفرج، فراحت تجول بنظرها في الآخرين الجالسين حول المائدة. مضيِّفتها، السيدة فاندربانت، كانت عجوزًا بوجه واضح القسمات متغطرس، ذي ملامح حادة، وفم رقيق الشفتَين، يشي بالتعصُّب والتكبُّر. وعلى النقيض من شخصيتها الباردة، بدا الوجه الكبير المتورد الحليق للبروفيسور لطيفًا، وكان صوته رخيمًا عذبًا، وإن كان نادرًا ما يتحدَّث. وكان شَعره غزيرًا بخصلات مجعَّدة بلون الثلج، ظلَّلت عينَيه السوداوَين، اللتَين لمعتا خلف نظارةٍ ذات إطارٍ ذهبي.

أما الشاب، كلير، فقد كان أصغرَ من أن تأبَه له. فهي لم تنتبه إلا لأنه كان شابًّا حادَّ الوجه، يرتدي سترةً مسائية. وكان يتحدَّث بلهجةٍ أمريكية، وإن كانت يداه وقدماه الصغيرتان، بجانب شعره الناعم الأسود ذي اللمعة الزرقاء، توحي بشخصٍ لاتيني.

وكان هناك ضيفٌ آخر، وهو وكيل أعمالها الأدبية، هارفي تورش. وكان رجلًا أنيس المعشر، لكنه تضاءل تمامًا مقارنةً بالشخص الجالس بجواره. فقد طغت شخصيةُ الكونت المتألقة على بقية الرفقة. كان وسيمًا وسامةً غير معهودة، بعينَين زرقاوَين لامعتَين وأسنان بيضاء ناصعة، حتى إنه كان كلَّما تحرَّك أو تحدَّث أحاط به وميض وألق دائمان.

عدَّلت جورجيا من جِلستها حتى ترى انعكاسهم في المرآة، رفقة صغيرة لكنها نابضة بالحياة. كان أكثر ما انتبهت له هو صورة الكونت الوامضة في عتَمَة المرآة القديمة، مثل خطوط من طلاء مضيء تألَّقت في الظلام.

وهنا غُشِّي بصرها وبدأ رأسها يدور.

وقالت في نفسها: «هذه اللحظة ستبقى حتمًا. فذات يوم — ربما بعد آلاف الأعوام من الآن — سينظر أحدهم في تلك المرآة، ويرانا جميعًا جالسين حول المائدة، كما نحن الآن تمامًا … وعندئذٍ، سيكون قد حصل لنا كلُّ ما هو مقدَّر أن يحصُل. ولن يكون بيدنا ساعتَها شيءٌ لنعاون على حدوثه أو نمنعه.»

كان هذا الإحساس بالمصير الوشيك والمجهول هو ما أثقل رُوحها. وقد أفاقت على الواقع مع صوت مضيِّفتها، الذي ظل قاسيًا ومزعجًا رغم محاولتها أن تكون دمثة السلوك.

«هل تنوين زيارةَ أي منطقة أخرى في بلجيكا؟»

فأجابت جورجيا: «لا. أنوي البقاء في بروكسل طوال المدة. لقد تجوَّلت بالسيارة في أنحاء أردين، في بداية زيارتي.»

«لقد رأيتِ مناظرَ خلابة إذن.»

«نعم، لكنها قديمة جدًّا وقاسية جدًّا. كان هناك العديد والعديد من الأطلال وسجون ذات زنازين مروِّعة تحت الأرض. لقد أصابتني بالغم.»

ضحِك الكونت وقال: «هذا قولٌ طريف بحق. إنكِ تشعرين بالأسف على ناس راقدة بسلام منذ مئات السنين. لكن لا تأخذكِ الرحمة بشخصياتكِ المسكينة.»

«هذه نقرة وتلك نقرة. إنني أملِك التحكم في أحداث رواياتي. وشخصياتها أحرار بالفعل.»

«لكن بعض السجون مريحة تمامًا. أو هذا ما أكَّده لي أصدقاءُ في القطاع المالي، أو بالأحرى أصدقاء رفيعو المناصب في القطاع المالي … كما أنكِ أخبرتِني أنكِ ظلِلتِ حبيسةً في مكان واحد صغير طَوال حياتكِ. لقد كنتِ تعيشين في حجرة واحدة. فما الفرق؟»

مع أنها كانت تعلم أنه يستفزُّها، فقد أجابت جورجيا عن سؤال الكونت بجِديَّة.

«إليك الفرق. بمقدوري أن أغادر سِجني متى أردتُ ... لكن لا بد أن يكون من المروِّع أن تعلم أنك مرغم على لزوم مكان واحد إلى الأبد. أن ترى دائمًا المنظر نفسه، مثل نابليون في سانت هيلينا.»

وبينما تتحدَّث شعرت أن الغرفة قد اختفت بعضَ الوقت، وبدا كأنها تحدِّق في آخرِ شعاع أحمر للشمس الغاربة، منعكسًا على خطوطٍ طويلةٍ من الأمواج الرمادية المتدفقة ناحية الأفق.

تتدفق وتتدفق ... كانت تتحرك بلا توقُّف، لكن كان يجب أن تبقى وتشاهد الماء وهو يُهدر في ذلك المنظر الكئيب. مشهد ينطوي على أسًى موحش. ليس ثمة بصيصٌ من أمل. وإنما هلاك بلا رحمة ... سجن.

كما لو كان شَعرَ بضيق عميلته، بادر تورش بنجدتها بملحوظةٍ عن أحد موضوعات الساعة. فلما تحرَّرت من الانهماك أكثرَ في المحادثة، أدركت جورجيا أن الشاب، كلير، كان يحدِّق فيها بعينَين ثابتتَين فضوليتَين. وقد أخبرها تعبيرهما العدائي أنه يبغضها بشدةٍ لسببٍ ما غير معلوم.

وبمجرد أن خطرت ببالها الفكرة، أدركَت أن الكراهية لم تكن متبادَلةً فحسب، وإنما زاد من حدَّتها نفورٌ فطري، من ناحيتها.

وهو بتفرُّسه فيها بلا رحمةٍ حوَّل العشاء إلى تجربةٍ اجتماعيةٍ مؤلمة. كان العشاء رسميًّا ومطولًا؛ إذ تكوَّن من عدَّة أطباق وأنواع من النبيذ، مع حضور نادلَين باستمرار. وكانت المائدة مزيَّنةً بالأوركيد ومغطاةً بشرشف من الدانتيلا المصنوعة يدويًّا.

أخذت جورجيا تنظر إلى المائدة بتوتُّر، بينما عادت بها الذاكرة إلى طفولتها، حين اصطُحبت لغداء في الأسقفية. أمكنها أن ترى مرةً أخرى بعينَي ذاكرتها مفرش البروكار الدمشقي، المنقوش بالنفل، وقد تلطَّخ بعصير الخوخ الذي أراقَته بفعلتها المخزية.

وبينما هي ما زالت تحت تأثير الماضي، ارتجفت يدها ارتجافًا شديدًا حين رفعت كأسها، حتى إنها انتابها خوفٌ طفولي من أن تسكب شرابها. وفي هذه الصحبة، من الممكن لأي زلة أو هفوة بعيدًا عن السلوك المثالي أن تقضيَ على آمالها. هكذا شعرت أن جسامة الموضوع الذي هي بصدده أكبرُ من طاقتها؛ إذ أرهقها واقع أن أقارب الكونت أشخاص ذوو نَسب وجاه وثروة.

حدَّثت نفسها بيأسٍ قائلة: «إنني أطلب العلا. وأنا لا شيء. مجرد نكرة.»

كانت ممتنة على الدعم المعنوي لوكيلها، هارفي تورش. رغم أنه كان مستاءً من دعوة الكونت، فقد قبِلها امتثالًا لغريزة حماية مصالح الآخرين. وفي هذه المرة كان قلِقًا من أن تكون عميلته الأكثر جلبًا للربح قد أَلِفَت صحبة المغامرين.

بشخصية المراقب الناقد راح هو يدرُس صحبته، مستثنيًا كلير، الذي اعتبره جديرًا بالإهمال. بدت السيدة فاندربانت مثالًا نموذجيًّا على التزاوج بين الأقارب من ذوات المكانة الاجتماعية الرفيعة على مدى قرون، في حين كان للبروفيسور سيماء المهاجرين الإنجليز الأوائل إلى أمريكا. والكونت أيضًا بدا مثالًا نموذجيًّا للنشاط الفائق واللياقة البدنية. ورغم أنه كان في منتصف العمر، فقد كان من الممكن أن تتخيله في سنواته السابقة، شابًّا أشقرَ، يركض حول ملعب حاملًا شعلة متقدة.

ارتأى الوكيل أنهم يَبدون حقيقيين، ربما أكثر من اللازم، هذا إلى جانبِ ما لديهم من مزايا بيئة مسرحية موفقة وضوء شموع. من ثَم، فقد أجرى عليهم أسلوبه المعتاد لكشف الزيف، وذلك بأن يخلع عليهم — في مخيِّلته — ملابسَ مختلفة.

وقد شفعت النتائج لهذا التمرين العقلي. فبعد تجريده من بذلته المسائية وحلاقة شعره، من الممكن أن يتحوَّل البروفيسور إلى ملاكمٍ من الوزن الثقيل في حَلْبة الملاكمة. والصبي، كلير، يتحول إلى همجي فرنسي شاب، يرتدي قميصًا صوفيًّا متسخًا وقلنسوة؛ أما الكونت فكان من الممكن أن يتحول إلى أي نوع من الأوغاد الجذابين، المألوفين في كل جزء من العالم.

وحدَها السيدة فاندربانت تحدَّت جهوده للحطِّ من قَدْرها. فرغم أنه نزل بها إلى دوائر الرذيلة والبؤس الدنيئة، فقد ظلت بانتصار السيدة المثالية في وجه المِحن.

مع توقُّف تدفُّق الحديث هنيهة، جاء موقفٌ مربك ليعكِّر هذه المناسبة الاجتماعية. فالشاب كلير، الذي لم يحوِّل عينَيه عن وجه جورجيا قط، خرج فجأةً عن صمتِه بوابل الأسئلة.

سألها: «هل لديك معرفة جيدة ببروكسل؟»

فأقرَّت جورجيا قائلة: «لا. هذه زيارتي الأولى.»

«عجبًا، كيف فاتكِ أن تزوريها؟ ألم تسافري من قبل؟»

«بلى. أنا لم أسافر إلى الخارج من قبل.»

«أين تعيشين؟»

«في قرية صغيرة، على الساحل الشرقي لإنجلترا.»

«لماذا؟»

«الأجواء هناك هادئة للكتابة.»

«هل لديكِ إقطاعية كبيرة؟»

«لا، مجرد كوخ.»

«وكيف تسلِّين وقتكِ؟»

«لديَّ أصدقاء قليلون جدًّا. لم أعُد مهتمة بالمشاركة في الأنشطة.»

«أليس لديكِ عائلة؟»

«أمي وابنتاي الكبيرتان. ميرل وميفيس. في السابعة والثامنة من العمر.»

لما ذهلت من تدفُّق الأسئلة سؤالًا تلو الآخر، راحت جورجيا تجيب عنها آليًّا، مثل شاهدٍ ضُيِّق عليه الخناق في استجواب. كانت قد توقعت الاستعلام عنها بأسلوب رقيق دمِث، وبطريقة جذابة حاذقة، ما دامت ستنضم إلى أسرة الكونت؛ أما هذا التعدي على خصوصيتها من شاب جِلف فقد أصابها بالذعر.

كان الهجوم سريعًا جدًّا وغير متوقَّع لدرجةٍ حالت دون تدخُّل الآخرين. وتكوَّن لدى تورش انطباع بأن مضيِّفيه فضَّلوا تجاهُل هذا الاستجواب على الاعتراف بأي إساءة سلوك. ورغم أن ذهنه كان خاليًا في البداية، فقد أعطاه ذكر ابنتَي جورجيا الفرصةَ ليتدخل.

فقال: «إنني من القلَّة المحظوظين باحتفاظهم بصورةٍ لابنتَي السيدة يو، مع أمهما. إنهن يبدون مثل ثلاث شقيقات، اثنتَين في الحضانة وواحدة في المدرسة.»

ثم أمسك عن الكلام؛ إذ تشتَّت انتباهه عن الحديث، بسماع شكوى غير مألوفة.

كانت السيدة فاندربانت تقول: «أيها النادل، هذه السكاكين حادة للغاية. أحضر لنا سكاكين ثَلِمة. فهذه هي الطريقة لمعرفة إن كان اللحم طريًّا بحق أم لا.»

بعد تبديل السكاكين سريعًا، ونجاح اللحم في الاختبار، ابتهج الكونت بعمَّته.

«كنت أعلم أنه حتى أنتِ سترضين عنه. لقد تحدثت مع رئيس الخدم، فذهب بنفسه إلى المطابخ واختار قطعة اللحم.»

أثار هذا الموقف شكوكَ تورش من جديد، فربما كان مرتبًا من قبلُ لاستعراض المستوى الراقي للنزلاء الذين يستطيعون الحصول على تلك الخدمة الخاصة.

وكلما أمعن في الموقف، قلَّ استحسانه له. كان يعلم أن الظروف قد جعلت جورجيا بالغةَ الحساسية أمام الهجوم. وهي بعيدًا عن العمل، ذات طبيعة مطواعة وساذَجة، وقد

غادرت للتو منفاها الاختياري. فكانت هذه أول إجازةٍ لها بعد سنواتٍ من الكتابة تحت ضغطٍ هائل، حيث كانت تعيش في عالمٍ من خيالها النابض.

كان يرى أنه إذا كانت هذه الأسرة كما تدعي عن نفسها، فسيكون الكونت معتادًا مجتمعَ السيدات الجميلات الفاتنات، مما يجعل من المستبعَد أن يقع بعنف في حب جورجيا. علاوة على ذلك، فإنهم إن كانوا بحاجة لدعم مالي، فإنهم كانوا سيستهدفون وريثةً حقيقية.

أما إنهم قد بدَوا في موقفِ مَن يصطادون كاتبةَ روايات رائجة، فقد وضعهم ذلك في فئةِ صائدي الثروات الوضعاء. لذلك فقد قرَّر أخيرًا أن يتأكَّد من شكوكِه بمناقشة الدوافع الخاصَّة.

فقال: «من المؤكَّد أنكم جميعًا قد قرأتم روايات السيدة يو. فإنني من قرائها بجانب كوني وكيلها. لكنني في الوقت نفسه لا أعتقد أن هناك أيَّ وجه للمقارنة بين الجرائم الحقيقية والخيالية. فلا يوجد في الروايات ما يمكن أن يضاهيَ هول جريمة «العرائس المقتولات في حوض الاستحمام».»

ثم التفت نحو الكونت.

«لعلك تذكرها؟ إنه رجل تزوَّج من العديد من النساء المسكينات ثم أغرقهن، ليحصل على أموالهن.»

نظر الكونت إليه باهتمام حقيقي.

وقال: «إن القتل لشيءٌ لا يسعني فهمه مطلقًا. فالشخص الذي يرتكب جريمةَ قتل لا بد إما أن يكون وحشًا أو مجنونًا. فلا يمكن لشخصٍ عاقلٍ أن يخاطر بحياته، بينما هناك سُبل عدة للحصول على المال من المرأة.»

قالت السيدة فاندربانت: «على المرأة التي تتزوَّج من غريبٍ أن تقبل العواقب. لا شك أن مثل تلك الزيجات مستبعَدة في طبقتنا. فأول ما نتمسك به هو المعرفة الوثيقة بالعائلة.»

فتابع تورش حديثَه وقال: «لا فرق؛ فأي امرأة ذات ثروة معرَّضة للخطر حتمًا عند زواجها. وهي حتمًا مشكلة مزعجة في حالةِ كان الغريب جذابًا. فإنها إذا رفضته، فقد تخسر حبًّا حقيقيًّا؛ وإذا تزوَّجته، فربما تخسر ما هو أكثر من مالها.»

وبينما هو يتحدَّث، رمق جورجيا بنظرة. اضطرب ضوء الشموع مع النسمات الآتية من النافذة المفتوحة، وارتعش على شَعرها الأشقر الأشبه بنسيجٍ رقيق. وكانت عيناها متسعتَين في توجُّس، لكن ظلَّت على فمِها ابتسامة. بدَت جورجيا مستعصيةَ المنال وغامضة، مثل حورية أشجارٍ هاربة من شجرتها.

تفاقم توجُّسه إلى خوف فعلي. فمع أنه كان يتحدَّث عن حالة افتراضية، فإنه من الوارد أن تكون في خطرٍ حقيقي. وما إن طافت المخاوف بذهنه، حتى هاجم كلير جورجيا مجددًا بسؤال شخصي مباشر.

«ماذا كنت ستفعلين في هذه الحالة يا سيدة يو؟ إن لديكِ ثروة.»

وضعت جورجيا يدَها على حلقها، كأنها تواجه صعوبة في الإجابة. كانت لانبهارها بشخصية الكونت ومركزه، قد تجنَّبت التطرُّق إلى أمورها الشخصية في علاقتها به. وقد تصاعد تحفُّظها حتى كاد يتحوَّل إلى شللٍ عاطفي، لكنها أدركت الآن أن الوقت قد حان لتغتنم فرصةً ميئوسًا منها.

قالت جورجيا: «ليس لديَّ ثروة.»

متذكرًا حقوقها الأدبية، راح تورش يحدِّق فيها مندهشًا، في حين استشاط كلير غضبًا.

قال كلير مناقضًا قولها: «إنكِ تجنين أموالًا طائلة. الكل يعرف أنكِ تجنين أموالًا طائلة. هل تحاولين الاستخفافَ بي لأنني سألتكِ سؤالًا؟»

«لا.» مرةً أخرى حملت جورجيا نفسَها على التفسير. «صحيح أنني كسبت الكثير من المال، لكنه ليس بالقَدْر الذي يتصوَّره الناس. فالكُتَّاب نادرًا ما يفعلون. لكنني لا أستطيع أن أمسَّه. لقد خصصت أموالي بالكامل لابنتيَّ.»

وقبل أن يتمكن الشاب من أن يرُد بأي تعليق، صرفته السيدة فاندربانت.

«لا نتوقع أن تنتظر لتتناول القهوة يا كلير. فلا بد أن حديث الكبار مملٌّ في نظرك.»

تجهَّم الشاب وغادر المائدة. وعند مروره بالكونت وضع يده على كتفه في حركةٍ دالةٍ على التملُّك، وهو ما استاءَت منه جورجيا.

فقالت في نفسها: «إنه يَغار مني.»

في الوقت نفسه، راح تورش يدرُس ردَّ الفعل العام على إعلان جورجيا الصادم، فوجد أنه لم يبدِ أحدٌ تأثُّرًا به. فما زالت ابتسامة الكونت بشوشة دون مبالاة، في حين كان انتباه البروفيسور منصرفًا بالكامل لتقشير خوخة. فيما حافظت السيدة فاندربانت على موضوعية المضيِّفة المثالية.

في ضوء مستواهم الاجتماعي، بدا وجود شاب سيئ التربية على المائدة اختيارًا غير موفَّق. وهو ما جعله يتساءل إن كان كلير قد انضم إليهم لاستنطاق ضحية محتملة أم لا.

إذا كان الأمر كذلك، فمن المتوقَّع أن يحطم الخبر الذي باحت به جورجيا آمالَ أي صائدٍ للثورات.

هكذا تنفَّس تورش الصُّعَداء. فقد باتَت جورجيا في أمان.

الفصل الثاني

وراء الستار

مع أن محنتها أوشكت على النهاية، فقد شعرت جورجيا أنها بالكاد تطيق الدقائق الأخيرة من العشاء. فقد انتابها إحساسٌ بالذنب كأنها موجودةٌ هناك بادِّعاء كاذب، كما لو كانت تتظاهر بأنها سيدةٌ ثرية، لجَذْب الدعوات الكريمة.

حين طلبت أن يعفوها من البقاء لتناول القهوة، لارتفاع حرارتها، فوجئت باهتمام السيدة فاندربانت.

إذ سألتها: «هل لديكِ خادمة؟»

فأجابت جورجيا: «لا. لكنني أعلم ما يجب تناوله لهذه النوبات. وسأكون على ما يرام في الصباح.»

«لا بد من العناية بكِ، على كل حال. سوف أتحدث مع المسئولة عن غرف الطابق، وأخبرها أنني سأَعُدُّ أيَّ عناية توليك إيَّاها موجَّهة إليَّ.»

وشمخت بذقنها بإحساس واعٍ بالفخر بمكانتها، ثم تحولت إلى تورش، كأنها المَلِكة وقد تنازلت للقائه، في حين رافق الكونت جورجيا إلى الباب الخارجي للجناح. وعندما بلغا الرُّواق الذي كان محجوبًا عن الصالون بستائرَ من قطيفة ذات لون أخضر فاتح مثل خضرة الحشائش، نظر إليها مبتسمًا.

ثم قال: «لا بد أن عمَّتي قد خمَّنت أنني أريد التحدث إليكِ على انفراد.»

انتظرت ليكمل كلامَه وقلبها يخفق شوقًا. وبينما هي تجول بنظرها فيما حولها، كانت تعلم أن ذكرى المكان المحيط بها ستظل باقية أبدًا. فسوف تتذكر لاحقًا الجدران العاجية، وتمثالًا نصفيًّا من الرخام لليوبولد الأول قائمًا فوق قاعدة، وبساطًا أبيضَ من فرو الغنم، صُبِغ كلُّه بزرقةٍ يشوبها لون رمادي من زجاج المصباح المعلَّق. ولاحظت كذلك

حاويةَ المظلات الأنبوبية ذات رسوم الأعشاب الرديئة، ومشهدَ تزلُّج على الجليد من العصر الفيكتوري منقوشًا على لوحة من الصلب.

تنحنح الكونت.

وقال: «أود الاعتذار عن سلوك كلير. إنه لم يقصد التصرف بفظاظة. كلُّ ما هنالك أننا لا نكترث للمال. كما أنه كان غاضبًا لأنه اعتقد أنكِ كنتِ تسخرين منه.»

وأمسك عن الكلام وتطلَّع إليها بترقُّب، منتظرًا تعليقها.

فقالت له: «آسفة إذا كان أساء فَهْمي. من المؤكَّد أنني كنت أقول الحقيقة. قول الحقيقة يغني عن المشكلات ... يبدو أنه يحبك جدًّا.»

ضحِك الكونت ما شاء له الضَّحك وقال: «كلير؟ أجل. إنه وغد، لكن لا يسعكِ إلا أن تحبيه.»

قالت جورجيا ذاهلة في لهفتها على معرفة المستقبل: «حقًّا؟ هل سأراك غدًا؟»

لكنه حطَّم أملَها بابتسامة أسفٍ.

«يؤسفني أنني لن أستطيع. فكما ترين. لا بد أن تأوي أسرتنا كلها إلى الفراش مبكرًا الليلة، حيث ستسافر عمتي في وقت مبكر جدًّا غدًا. ومن المتوقَّع أن أصحبها.»

«حسنًا، إنه «الوداع» إذن؟»

«من الوارد أن أعود. لكن إذا تعذَّر ذلك، فسوف تصيرين ذكرى عزيزة. ومتى رأيتُ رواياتكِ في كشك الجرائد في محطة القطار، يمكنني أن أقول متباهيًا: «لقد التقيت بالسيدة يو الشهيرة، وهي أكثر جاذبية حتى من رواياتها».»

ومع ارتفاع درجة حرارة جورجيا، فإنها بدأت تشعر بالبرودة.

وقالت: «أخشى أن أكون قد تركت انطباعًا سيئًا لدى أسرتك.»

«لا، لا. كيف تقولين هذا؟ لقد كنتِ متواضعة وصريحة. وهذه الصفات تروق لعمتي.»

وإذا بجورجيا تشعر برغبة في أن تحكيَ له قصة حياتها، التي حرصت غاية الحرص أن تخفيَها عن العامة.

فقالت: «لا بد أنه شيء رائع ألَّا يشغل المال تفكيرك. أما في حالتي، فقد كان أهم شيء. كان جَدي تاجر شاي ثريًّا. وكان عصاميًّا وبنى نفسه بنفسه، ومع ذلك فقد أرسل ابنه الوحيد إلى أكسفورد، وتكفَّل به في كل شيء. إن أبي لم يكسِب قرشًا طَوال حياته. وإنما أهدر أغلب ثروته شيئًا فشيئًا في البورصة. كان خائب الرجاء، حيث كان يشتري الأسهم

على المكشوف. وهكذا صرتُ أنا مثل جَدي فيما يتعلق بالمال. إنني حقًّا رجلٌ عجوز صارم بلحيةٍ كثةٍ رماديةٍ وجفنَين متهدلَين.»

شاركها الكونت ضحكها المتكلِّف مع مجاملتها بإيلائها كامل انتباهه.

أكملت كلامها قائلة: «كنا في غاية القلق بشأن المال، حتى إننا جميعًا كنا سعداء حين تزوجت صديقًا قديمًا للعائلة. فقد بدا أن زواجي منه سيضمن لنا الأمان. وإذ فجأةً، تبدَّل كل شيء. فقد أفلس إدوارد — زوجي — وانتحر. وتركني مفلِسةً ومسئولةً عن رعاية أمي وطفلتَين.»

«وأمكِ كذلك؟»

«بالتأكيد. فقد خسرت ما تبقَّى لها من مالٍ في إحدى شركات إدوارد. واشتغلت أنا في وظيفة في البداية، وجعلت أكتب روايتي الأولى ليلًا. فكتبت قصةَ حياتي بأكملها. وحدثت المعجزة، وكانت من أفضل الروايات مبيعًا. ومن بعد تلك البداية، لم أنظر خلفي قط ... لكن لا بد أن بإمكانك أن تتفهم سبب شعوري بأنني يجب أن أحتاط لابنتيَّ. إنهما تعتمدان عليَّ وأنا لن أعيش أبدًا.»

«إنني متفهِّم ذلك بالتأكيد. وأحترمكِ عليه. هل تسمحين لي؟»

ورفع الكونت يدها إلى شفتَيه.

في تلك اللحظة، بدت تحيته لها حركة خالية من المعنى. انتظرت هي أن يتكلم قبل أن تكسِر الصمت برجاءٍ أخير.

«أرجو ألَّا أكون أضجرتك. أردت التوضيح فحسب. في الواقع، لقد جعلني ابن عمِّك أشعر بالخزي؛ لأنني لم أحقِّق شيئًا ولم أصِل إلى مرتبةٍ رفيعة. وها قد عرفت السبب ... الوداع.»

«كلا، بل إلى اللقاء. لِنتحَلَّ بالأمل.»

ومع أنها اعتادَت الخسائر إلا أن نزولها إلى حجرتها، من دون مرافق، كان من أقسى خيباتها. وهي التي سَرَحت بخيالها مع حبيبٍ أشقرَ بَهيٍّ الطلعة، منحها أعظمَ هدية، هدية الضحك، ومعها الحُلم بلقب «كونتيسة».

وبينما هي تسير متعثرةً في الممراتِ الضيقة المغطَّاة بالبُسُط الممتدة في جنباتها، أدركت فجأة أنها كانت متعبة جدًّا وأن الفراش هو الشيء الوحيد المهم حقًّا. استطاعت بصعوبة أن تجرَّ قدمَيها حتى حجرتها، وحين وصلت إليها أخيرًا بدَت صغيرةً وخانقة، مقارنةً بصالون السيدة فاندربانت بهوائه المنعش وفخامته.

خلعت ملابسها، وذهبت إلى النافذة بعد ابتلاع جرعةٍ أخرى من الدواء. كانَت النافذة تُطِل على حركة المرور في شارعٍ صاخب، وعربات ترام مضيئة حاملة إعلانات لسجائر غير معروفة ومياه معدنية.

وفي الخلفية رسمت الأضواء المبعثرة خريطةً للأجزاء العليا من المدينة. كانت كلُّ بقعةٍ في المدينة مرتبطةً بالكونت. في مكانٍ ما كان عمود الكونجرس وقبر الجندي المجهول، يحرُسه تمثالا أسدَين من البرونز عند قدمه. وبينما تراقب المنحدر خطرت لها قريتها، مع صوت المد وهو يسحب الحصى، والأفق البعيد حيث يلتقي البحر بالسماء.

ومع أنها تُؤوي أحبَّ الناس إليها، إلا أنها قاومَت فكرةَ الرجوع إليها.

وهمسَت لنفسها قائلة: «ليس الآن، ليس بعد ما حدث.»

ثم دلفت إلى الفراش شاعرةً بالإحباط والبؤس. وسرعان ما غامت أفكارها ونسيت كلَّ شيء عدا الحاضر. ولم تكن نوبة ارتفاع الحرارة التي انتابتها مزعجة؛ فقد رقدت في حرارةٍ دافئةٍ جافةٍ ذكَّرتها بالاستلقاء على الرمال الدافئة من حرارة الشمس. ودخل من النافذة المفتوحة صخب الشارع وضوءٌ خافتٌ من الأنوار بالخارج، ولم يمرَّ منها ليلًا نسيمٌ عليل.

كان آخر ما رأته قبل أن تذهب إلى النوم هو ثوب سهرتها؛ إذ بدا مثل ستائر سوداء متدلية فوق ظهر المقعد.

وحين فتحَت عينَيها مرة أخرى، ظلَّت تراه، لكنها لاحظت تغيُّراتٍ أخرى. فقد هبَّ عليها نسيمٌ بارد من النافذة، التي بدَت كأنها اقتربَت منها أكثر. وبدا أن حجم الحجرة قد ضوعف.

لكنها قالت لنفسها: «هذا عبثٌ. لا بد أنني ما زلت نائمة.»

مدَّت يدها لتضيء النور، لكن الزر لم يكن في مكانه. مع أنها كانت في نفس الفراش؛ إذ أمكنها التعرُّف على نقوش غطاء السرير، وهي زهور خَشْخاش زرقاء على خلفية خضراء. والدليل الآخر أن ساعة يدها كانَت أسفل الوسادة، وإن كانت لا ترى عقارب الساعة؛ لصغر قرصها.

حين تذكَّرت أن نافذتها تُطِل على ساعة كنيسة، نزلت إلى الأرضية المصقولة وتحسست طريقها نحو النافذة، لتجد أمامها تغييرًا آخرَ أربكها. لقد اختفى الشارع بأنواره وحركة المرور على وجه الأرض. وحل محلَّه ظلام دامس، تشوبه أشباح زرع.

وبينما هي تحاول عبثًا أن ترى وسط العتَمة، لاحظت سُلمًا حديديًّا ملتفًّا صاعدًا وراء حافة النافذة مباشرةً. وقد ملأتها رؤيته برغبةٍ جامحةٍ في الصعود إلى السطح. فقد

كان حُلمها المفضَّل — سواء في نومها أو صحوها — هو مدينةً للمستقبل، حيث تشمَخ المباني في طوابقَ شاهقة، ويسير المشاة عاليًا فوق الشوارع الملتفة كحلزون يتجه إلى الأسفل إلى المرور المتدفِّق.

قالت لنفسها محاولةً التفكير بمنطق: «إذا كان هذا حُلمًا، فإنه من الآمن تمامًا أن أخرج من النافذة. لكنني أشعر أنني يقِظة.»

حاولت عبثًا أن تجِد تفسيرًا معقولًا لمأزقها المستعصي على التفسير، لكن عقلها كان في ظلام وسبات كأنه في خدَرٍ عميق. ومع أن تحوُّل حجرتها الغريب يبدو دليلًا إيجابيًّا على أنها كانت تحلُم، فقد حثتها ذكرى متوارية على توخي الحذر، بينما تحاول استكشافَ ما حولها.

اعتادت عيناها العتَمَةَ، لكنها وجدت صعوبة في تحديد أماكن الأشياء. فقد بدا كل الأثاث مختلفًا، وقد وُضع في أماكنَ غير معتادة. وحدَها المرآة كانت في مكانها الأصلي فوق رف المدفأة الرخامي القديم الطراز.

مستهديةً بلمعتها، تحسَّست جورجيا طريقها نحو المرآة. كانت المرآة معتِمة جدًّا حتى إنها لم تستطِع أن ترى شيئًا في البداية. لكنها شيئًا فشيئًا تبيَّنت معالمَ جذوع أشجار وفروعًا جدباء، بدت بعيدة جدًّا.

بدلًا من رؤية انعكاس صورتها المألوفة في المرآة، راحَت تُطالع منظرَ غابة مكسوَّة بالثلوج.

فقالت لنفسها ببهجة: «هذا دليل على أنه حُلم. إذن فلأصعد إلى السطح.»

هكذا صعِدت إلى النافذة بلا خوف لتخرج منها، ثم وقفت متوازنةً على الحافة الضيقة. بالكاد وَسِعت الحافةُ قدمَيها لكنها مدَّت ذراعَيها عاليًا، وراحَت تشبُّ جاهدةً للأعلى نحو النجوم، شاعرة بيقين أنها ستطير عاليًا في الهواء.

ومع أنها لم تَطِر، إلا أنها عند مداعبة النسيمِ بيجامتَها الرقيقة، شعرَت أنها خفيفةٌ مثل فقاعة صابون. ولما امتلأت بالنشوة، مالت بجسدها عابرةً هاوية ضيقة من الظلام وتشبَّثت بالدرابزين الحديدي للسلَّم. وحين صعِدته من دون مجهود كبير، أدركَت أنها كانت إلى حدٍّ ما — بسبب الدواء — في بُعدٍ زائفٍ خاضعٍ للتلاعب بالزمن؛ إذ بدا أنها ظلت تصعد ساعاتٍ دون أن تبلغ أعلاه.

وتعرَّضت لنوبات فقدان وعي متتالية، حيث فقدت الإحساس تمامًا بما يحيط بها. صعِدت أعلى فأعلى، حتى باتَت النجوم دانيةً جدًّا حتى إنها مالَت برأسها تلقائيًّا، لتجنُّب تشابك شعرها بمجموعة من النجوم المتدلية.

وسريعًا، بعد غفلة، اكتشفت أنها قد بلغت هدفها، حيث كانت تسير على السور المرتفع لمدينتها المستقبلية. كانت على ارتفاعٍ عالٍ جدًّا حتى إنها لم تستطِع أن ترى أضواء الشارع بالأسفل، مع أنها سمِعت أصوات الطريق المتصاعدة كأنها طنين ذبابة. وبينما هي تخطو بخفة، مثل ورقة شجر يحملها النسيم، خطر لها أنها سافرت أميالًا، حين رأت مربَّعًا عموديًّا لنافذةٍ مضاءة على مسارها الصاعد.

وفي غمرة الحماسة لاحتمال انطلاقها في مغامرة جديدة، فتحت النافذة وقفزت إلى الداخل. وحالما هبطت، استوقفها وقْعُ أصوات.

وفجأةً تحوَّل الخيال إلى واقع بلا رحمة، وفقدت الحصانة التي يتمتَّع بها الحالمون. وحين أدركت المأزق الذي ستقع فيه إن ضُبطت داخل منزل غريب، شعرت بحرارة الخزي. لكنها بمجرد انطلاقها نحو النافذة، أمسكت عن ذلك الهروب الهلِع.

إذ قالت في نفسها: «لقد جئت إلى هنا من قبل.»

فالتمثال النصفي الرخامي القائم فوق قاعدة، وبساط فرو الغنم الأبيض، والرسومات الرديئة على حاوية المظلات الأنبوبية؛ كانت كلها أشياءَ مألوفة. لقد كان الرُّواق الذي وقفَت فيه حين قضى الكونت على أملها بابتسامة وداعٍ رقيقة.

غمرتها الذكرى بشعورٍ حادٍّ بالأسى، حتى إنها أرادَت البكاء يأسًا وقنوطًا من تحقُّق أملها. لكن في تغيير سريع في حالتها المزاجية، تحوَّلت أفكارها إلى مسارٍ آخرَ.

فقالت لنفسها: «ربما ما زال حفل العشاء مستمرًّا. وما زال الجميع جالسين حول المائدة، على الجهة الأخرى من الستار ... وربما أرى جوستاف مرةً أخرى، إذا نظرت من خلال طياته.»

نظرَت من خلال طيات الستار بحذرٍ متيقِّنةً أنها سترى جماعةً من الأشخاص ذوي الهيبة والتهذيب، جالسين مثل التماثيل حول مأدبة رسمية بيضاء.

وكانت على حق؛ إذ كانوا لا يزالون هناك جالسين إلى نفس المائدة. لكن مع تغييرٍ فظيعٍ ومخيف. فقد اختفى الشرشف المصنوع من الدانتيلا، واختفت زهور الأوركيد، وكان الهواء خانقًا بسحابةٍ من الدخان. والتفَّت حول طاولة روليت خضراء دائرةٌ من المقامرين الذين راحوا يشاهدون العجلة وهي تدور بعيونٍ ملؤها الطمع.

شعرَت جورجيا وهي تنظر إليهم بأنها ترى منظرًا من خلال مرآةٍ مشوهة. في البداية رأت أغرابًا: رجلًا سمينًا لديه لُغد، وامرأة عجوزًا بوجنتَين متدليتَين مصبوغتَين بالمساحيق. لكنَّها بدأت بعد ذلك تتعرَّف إلى بعض أفراد الجماعة، مما ألقى الرَّوع في نفسها.

أحدهم كان رجلًا سكيرًا بشعر كثيف أبيض مجعَّد ووجه أحمر، كأنه رَسْم هزلي حقير للبروفيسور مالفوي الوقور. وكانت السيدة فاندربانت تجمع رُقاقات اللعب من فوق المنضدة بأصابعَ تشبه مخالبَ طائرٍ جارح يمسك بفريسته، فيما بدت بالغةَ الوضاعة بالسيجار المتدلي من فمها. والكونت أيضًا كان هناك، وقد أحاطت ذراعا الشاب كلير برقبته، أما الشاب فحاز نصيبًا من التَّخنُّث بما وضعه من البودرة وأحمر الشفاه.

وفيما كانت جورجيا تنتفض من النفور، رفع الكونت ناظريه فجأة، حتى بدا أن عينيه قد وقعتا عليها، وإن كان لم يستطِع التعرف إليها وهي تراقبه.

وفي تلك اللحظة المرعبة، أدركت لماذا ظلَّت تلحُّ عليها اللوحة التي كانت في متحف ويرتز. ذلك لأن عينَي الكونت كانتا زرقاوَين ولامعتَين مثل عيون الطفلَين الحسنَين، اللذَين كانا يضحكان أثناء حَرْق أجنحة الفراشة بشعلة الشمعة.

الفصل الثالث

الكونتيسة تغادر البلدة

مروعةً من هول ما رأته هُرعت جورجيا عائدةً إلى النافذة المفتوحة. كان الدافع المسيطر عليها هو الهربَ، وهي تتسلل خارجةً إلى النافذة التي اكتنفتها هوَّةٌ من الظلام. رغم أنها لم يكن لديها حسٌّ بالاتجاه، فقد انتابها شعورٌ غامضٌ بأن النافذة ستقودها حتمًا إلى حجرتها.

كانت ترتعش من البرد وساقاها ثقيلتان من الصدمة. لقد أفلت منها حُلمها البهي بالحرية، تاركًا إياها عالقةً في الكابوس المألوف، كابوس عدم القدرة على المُضي قُدمًا. كانت تعلم أنها لا بد أن تمضيَ، إلا أن الجمود قضى على استعدادها للتحرُّك. وفي سعيها الشاق للمضي، شعرت بأنها مقيدة وعاجزة، مثل حشرة تحاول الزحف على شريط دِبْق مصمَّم لاصطياد الذباب.

ومما زاد من كَرْبها أن إحساسها بالأمان أخذ يتضاءل تدريجيًّا. فقد كانت حتى هذا الوقت ملتحفةً في شرنقة الحُلم التي أعطتها الإحساسَ بالحماية، حيث لم يكن من الممكن أن تسقط، لكن مع إحساسها المتزايد بالارتفاع جاء خطر الإصابة بالدُّوار. رغم أن مسارها كان لا يزال محجوبًا لحسن الحظ، فقد انتابتها لحظاتٌ خاطفةٌ متكررةٌ من الوعي، حيث استطاعت تحسُّس قضبان حديدية أسفل قدمَيها الحافيتَين.

وإذا بها تزل وتكاد تفقد توازنها على حافة سُلم ملتفٍّ هابط. كان ضيقًا وملتفًّا على نحوٍ حادٍّ جدًّا حتى إن رأسها دار من تكرار الدوران. وفي هبوطها مندفعة من درجةٍ لدرجة مهرولة، مارَّةً بنافذة إثر نافذة، كانت دائمًا تجد مصاريعَ النوافذ مغلقة تحول دون دخولها.

ولم ترَ نافذةً مفتوحةً إلا بعد أن كاد يصيبها الهلع؛ خوفًا أن يكون حُظر عليها الدخول. قفزَت من فوق عتبة النافذة فكادت تنطرح في العتمَة الداخلية للحجرة. وبينما

هي تتحسَّس طريقَها فيها لا ترى شيئًا، اصطدمت بعنفٍ بكرسي، تدلَّى فوقه ثوبٌ أسود، ثم ارتمَت بقوةٍ على الفراش بالعرض، ليرتطم رأسها بحاجزه الجانبي.

لم تتذكَّر شيئًا آخرَ حتى شعرت في نُعاسها بيدَين لم تَرَهما كانتا تضبطان الملاءة برفقٍ أسفل ذقنها. وحين فتحَت عينَيها بصعوبة التقتا بعينَي امرأةٍ هائلة الجرم، ذات شعرٍ داكن مموج يصل إلى كتفَيها، جعلها تبدو مثل طالبة مدرسة في منتصف العمر. كانَت ترتدي مئزرًا أزرق داكنًا مهندمًا، وتبدو حنونةً وقويةً في آنٍ واحد.

قالت المرأة بلغةٍ إنجليزيةٍ طليقةٍ مثل لاجئي الحروب: «معذرة، لكنكِ كنتِ مستلقيةً على الفراش بالعرض، من دون غطاء، كأن كابوسًا قد انتابك.»

ضحِكت جورجيا بارتياحٍ لما انتبهت مغتبطةً للشمس، التي انتشرَت أشعَّتها في بقعٍ على السقف.

وقالت: «لقد انتابني كابوس فعلًا. لقد حلَمت أن الحجرة قد زاد حجمها.»

ثم صدرت منها صيحةُ دهشة.

وقالت بشهقة: «لقد زاد حجمها فعلًا.»

مع أن الحجرة لم تكن هي الجناح الغامض الواسع الذي كان في حُلمها، فقد صارت ضِعف حجمها السابق. والجزء الذي كان يقع فيه فِراشها كان به أثاث حجرة جلوس، من أريكة، ومقاعد منجَّدة بمُخمل أصفر، ومنضدة مستديرة من خشب الجوز، وصوان مزخرف. وكان فوق رف المدفأة الرخامي لوحة مؤطرة لمنظر طبيعي مغطًّى بالثلوج، بدلًا من المرآة المعتادة.

كان الجزء الآخر من الحجرة يضم مخدعها المألوف. إلا أن الفراش كان قد تغيَّر موضعه ليقابل اتجاهًا آخر، وهو ما يفسِّر عدم قدرتها على العثور على زر النور.

ضحِكت السيدة على ذهولها.

وقالت: «يمكن تفسير هذا كلِّه ببساطة. إنني أعمل هنا؛ لذلك فقد طلبت مني السيدة فاندربانت أن أطمئن على راحتكِ. فدخلت بمفتاح العاملين الخاص بي بعد أن خلدتِ للنوم، ووجدتكِ ساخنة، ساخنة جدًّا كأنكِ محمومة. كانت الحجرة مثل الفرن؛ لذلك فتحت الأبواب المنزلقة للصالون. إنها مغطاة بورق حائط، كما ترين. وهذا ما يجعلها غير مرئية. ها هي.»

ووضحت لها كيف تعمل الأبواب، ثم ابتسمت ابتسامةَ إقناع.

ثم قالت بحماسة: «لا بد أن تدركي يا سيدتي كم أنتِ محظوظة بذلك. كان الفندق مشغولًا بدرجةٍ كبيرةٍ حين جئتِ للحجز، حتى إننا اضطررنا إلى إعطائكِ المخدع التابع

لهذا الجناح الخالي. وها قد تبيَّن أنكِ بحاجةٍ إليه، فإذا كنتِ تريدين حجزه من الممكن أن نمنحكِ إياه بتخفيض عشرة في المائة في السعر. ويوجد كذلك حمَّام، حيث من الممكن أن تكوني في خصوصية تامة.»

رغم أن جورجيا ارتأت أن مثل ذلك الاتفاق ليس ضروريًّا، فقد هزَّت رأسها موافقة.

فقالت المرأة سريعًا، قبل أن تستطيع أن تغيِّر رأيها: «سأفتح المياه في الحال إذن. بإمكانكِ أن تأخذي حمَّامًا قبل أن يأتيَ النادل بالإفطار والقهوة.»

رفعت جورجيا صوتها ليعلو على صوت خرير المياه.

وسألتها: «هل كنت نائمة حين دخلتِ ليلة أمس؟»

«كنتِ نائمة حتى وأنا أزيح الفِراش ليستقبل تيارَ الهواء الآتي من الحديقة. يمكننا الآن أن نتركه في مكانه.»

«شكرًا. كان هذا كرمًا بالغًا منكِ.»

«لا يا سيدتي، فإنني أتقاضى أجرًا مقابل الخدمة. السيدة فاندربانت هي التي رتَّبت كل شيء.»

«لكنني لم ألتقِ بها إلا ليلة أمس لأول مرة.»

«لا شأن لذلك بالأمر. إنها سيدة ثرية ذات حسَب، وأمثالها غالبًا ما يكونون خيرين.»

«هل تأتي إلى هنا كثيرًا؟»

«ليس بقدرِ ما نودُّ أن تأتي. هلا تقرعين الجرس يا سيدتي ليأتيَ الإفطار؟»

ذهبت المرأة إلى الباب، لكن على الرغم من التلميح واصلت جورجيا أسئلتها.

«في أي وقت ستغادر؟ فإنني أود أن أشكرها.»

«لقد فات الأوان للأسف. فإنهم على وَشْك المغادرة.»

«أجل، لقد أخبرني الكونت أنهم سيأوون جميعًا إلى النوم مبكرًا. هل رحلوا؟»

كانت جورجيا تتحدَّث باندفاعٍ بأملٍ واهنٍ أن تجِد ما يطمئنها. ثم اكتشفت غلطها في مناقشة شئون نزلاء الفندق، حين صار وجه المرأة خاليًا من أي تعبير.

علَّقت المرأة قائلة: «إذن؟ بعد قليلٍ سيمتلئ المَغْطِس يا سيدتي.»

وبمجرد أن أغلقت الباب، أوصدت جورجيا المزلاج وذهبت إلى الحمَّام. كان حجيرة معتِمة صغيرة، يأتيه الضوء من الممر من خلال نافذة صغيرة زجاجها أزرق في أصفر كهرماني، ينعكس عليه ظلال الناس المارين بالخارج.

كانت الحركة في الممر مستمرَّة، حتى إنها شعرَت كأنها كانت تستحمُّ على مرأًى من الناس، على الرغم من تأكيد عاملة الغرف على عزلته. ولتردُّدها إزاء إضاءة النور من دون ستارٍ ليغطي الزجاج، فقد راحت تغتسل في شبه عتمة.

وبينما هي ترتدي رداء الحمَّام مرة أخرى، سمِعت رنين الهاتف فهُرعت عائدة إلى مخدعها. وانتزعت السماعة متلهفة، على أمل التحدُّث إلى الكونت، لكنها أُصيبت بخيبة أمل حين جاءها الصوت المألوف لوكيلها.

«كيف حالكِ هذا الصباح يا جورجيا؟»

أجابته قائلة: «على خيرِ ما يرام.»

«خير. ماذا ستفعلين اليوم؟»

«لا شيء.»

«هل ستأتين إذن معي إلى بروج؟ لقد انتهيت من عملي هنا، لكنني أنوي البقاء يومًا. ما رأيكِ؟»

كانت تنوي رفض الدعوة، لكنها تردَّدت فعدَلت عن قرارها. على الأقل ستستطيع أن تحدِّثه عن الكونت، وربما يخفف ذلك من حزنها. ما دامت الشمس مشرقة، فلا يزال هناك بصيص من أمل.

قالت بكآبة: «أود ذلك.»

فقال تورش مقررًا: «سآتي إليكِ إذن لأصطحبكِ الساعة العاشرة.»

كانت تلك أهمَّ صفقة أبرمها لصالح عميلته على الاطلاق، لكنه أنهى المكالمة دون أن يعيَ ذلك بالمرة.

بينما كانت جورجيا مضطجعة في فراشها في انتظار الإفطار، بدأت تعيد التفكير في انطباعاتها عما حدث ليلًا.

قالت لنفسها بحسم: «لا بد أنني استيقظت لحظةً أو نحو ذلك، وعندها أدركت أن الحجرة صارت أكبرَ حجمًا. ثم غلبني النُّعاس فنمت مجددًا. لطالما قال أبي إنه من الممكن تتبُّع منشأ كل حُلم. وقد بدأ حُلمي من المرآة التي في صالون السيدة فاندربانت.»

متيقنة من نقطة البداية، بدأت جورجيا في إعادة جمع الخيوط. كانت المرآة قد ذكَّرتها بالحُلم الذي راودها في طفولتها، حين رأت حشدًا من الوجوه البغيضة والمقززة، جاءت كلها من نقوش هوجارث. فكانت الذكرى التي بعثتها مسئولةً بدورها عمَّا طال

ضيوف حفل العشاء من تحوُّل شنيع، وفي الوقت نفسه أجَّج هلعها الكامن من صورة متحف ويرتز القسوةَ الساخرة التي وجدتها في عينَي الكونت.

وحدَّثت نفسها قائلة: «تلك الجزيرة الموحشة أيضًا. كان ذلك بالطبع نتيجةً منطقية لمعركة واترلو. فقد جعلتني أستغرق في التفكير في سانت هيلينا.»

كانت قد ذهبت وحدها لا تلوي على شيء، في رحلة استكشافية من دون الكونت، ضمن مجموعة من السائحين. وقد تأثَّرت بشدة بما رأته وسمِعته مع غيابه بشخصيته الآسرة للانتباه. جعل المرشدُ المعركةَ تبدو كأنها أحدَث من الحرب العالمية التي وقعت بين عامَي ١٩١٤ و١٩١٨، وهو يشرح البقايا الصدئة في نُزل «لا بيل ألاينس» ويصف المذبحة المروعة التي جرَت في الخنادق المتوارية.

وبعد ذلك صعِدت الدرجات إلى قمة الجبل، وبينما هي تجول ببصرها في الحقول الهادئة المتألقة بضوء الشمس، تكونت في مخيِّلتها صورة المعركة. كانت قد اندمجت تمامًا في أنشطة السيَّاح حتى إنها اشترت تذكارًا منقوشًا عليه أسد هولندي، لكنها أخفته حتى لا يسخر منها الكونت.

قالت في نفسها: «لا عجب أنني شعرت كأنني نابليون.»

مقتنعة بتفسيرها، نهضت جورجيا من الفراش وعبَرت إلى نافذة الصالون. كانت ممتدةً أسفلها حديقةٌ بها بعض الشبه من غابة الأشجار الشاسعة في حُلمها. كانت مخطَّطة تخطيطًا طموحًا بالنظر لحجمها البالغ الصِّغر، بشجيرات مُغبرة، وتماثيل رصاصية، وبِركة أسماكٍ صغيرة امتلأت بمياه بنية، لكن مظهرها العام كان يشي بالإهمال. فقد كانت الحشائش كثيفة، والمقاعد الخشبية مبتلَّة لا يمكن الجلوس عليها، والأجزاء الحجرية مسودَّة من السُّخام.

على بُعد مسافةٍ قصيرة، كان سُلم الحريق قائمًا على خلفية السماء. كان السُّلم صاعدًا في التفافٍ شديد نحو السطح. وقد بدا من مخدع جورجيا مَعبرًا بالغَ الخطورة نحو الأمان، حتى إنها ارتأت أنه لا بد أن يكون قد بُني على أساس أن الخوف الأكبر يبدِّد الأصغر.

وبينما هي تُتابع مسارَه، لاحظَت نافذةً كبيرةً مفتوحةً قائمةً في زاويةٍ بين جدارَين. كان في مرآها شيءٌ مألوفٌ غير سارٍّ بالمرة، حتى إنها لم تنتبه لدخول النادل بصينية إفطارها.

تطلَّع النادل إلى أعلى ليعرف ما الذي كان مستحوذًا على انتباهها.

ثم قال لها: «لقد كنتِ عند تلك النافذة المرتفعة ليلة أمس.»

عند سماع هذه الكلمات جاشت ذكرى حُلمها فغمرت ذهنها.

قالت محتجَّة: «لا. هذا مستحيل.»

نظر الرجل إلى وجهها المضطرب بدهشة.

وظل على قوله؛ إذ قال: «نعم يا سيدتي. إنه جناح السيدة فاندربانت حيث تناولتِ العشاء مساء أمس. إنه أغلى جناح لدينا لإطلالته الخلابة على المدينة. من المحتمل أن تكوني قد أطللتِ من نوافذه يا سيدتي، أليس كذلك؟ ... إنني في خدمتك.»

وهكذا وضع الصينية وخرج من الحجرة، بينما ظلَّت جورجيا قابضةً على إطار النافذة. وإذ فجأةً ارتجَّ كيانُها برياح الشك البغيضة. حتى الشكوك التي كانت أغربَ بكثيرٍ من أن تصدِّقها، راحَت تهتف مطالبةً بأن تعترف بها وتصدقها استنادًا إلى حقيقة واقعة.

لقد ثبتت صحةُ جزء من حُلمها بدليل أن الحجرة ازداد حجمها. وبناءً على ذلك، بأي حق تستطيع أن تدَّعي معرفة في أي جزء تحديدًا انتهى الحلم؟ من الوارد أن تكون قد أقدمت فعلًا على تلك الرحلة الخطيرة صاعدةً إلى السطح تحت تأثير الدواء.

نظرت إلى حافة النافذة، وارتجفت من مجرد التفكير في الحفاظ على توازنها على هذه الحافة الضيقة. وكانت الفجوة التي تفصلها عن السُّلم تستوجب القفز عَبْر مساحةٍ فارغة. فلو كانت سقطت، ولو حتى من الطابق الأولى، لكان من المحتمل أن ينكسر ظهرها أو عنقها.

قالت لنفسها يائسة: «ليتني أعرف الحقيقة.» للأسف لم يكن ثمة سبيلٌ للتأكد من أي نظرية، بما أنها قضت على أي دليل بالفعل. كان الضوء في الحمَّام خافتًا جدًّا لتكتشف ما إذا كانت يداها أو قدماها متسختَين، فيما لم تكشف بيجامتها الساتان السوداء عن أوساخ.

نظرًا لاستعصاء الوصول إلى حل أكيد للغز، فقد أوعز إليها المنطق أن تطرد المسألة من ذهنها لكونها مستعصية على التصديق. لكن ظلت تلك النافذة المفتوحة، بشكلها المألوف، تستدرجها أكثرَ إلى الشيء المروِّع الذي اكتشفته وراء الستار.

وبينما هي ترتجف، اجتذبها صوتُ نفير سيارة فمضت إلى النافذة الأخرى. كان ثمة سيارة مفتوحة كبيرة متوقِّفة بجانب الرصيف محمَّلة بالأمتعة. وقد أحاط بها صِغار الخدم بالفندق بزيهم الرسمي، يرجو كلٌّ منهم الحصول على نفحات من المال. كان

البروفيسور وكلير داخل السيارة بالفعل، لكن لم تَضِع على جورجيا فرصة أن تشهد رحيل الكونت وعمَّته.

وبينما هي تشاهد السموَّ الذي استقبلت به السيدة فاندربانت انحناءات التبجيل من العاملين، تلاشى شبح الوجه المتردي بالطمع الخبيث. فقد كانت السيدة الموجودة بالأسفل سيدةً جليلة، في زيارتها شرف يقدِّره الفندق.

تسارعت ضربات قلبها حين نظر الكونت إلى أعلى، وفاجأها وهي تنظر من النافذة. قبَّل أصابعَه لتوديعها، فيما أضاءت الشمس عينَيه الزرقاوَين، فلم يُوحِ صفاؤهما بأنه قضى ليله معربِدًا.

لوَّحت جورجيا بيدها، وعادت إلى إفطارها الذي تجاهلته.

وقالت لنفسها وهي تصبُّ القهوة: «الحمد لله أنه كان حُلمًا محضًا. مؤكد أنه كان على الأرجح شقيًّا قاسيًا وهو طفل، مثل ذينك الطفلين في الصورة. فإن جيله لم يُربَّ على الرفق بالحيوانات. أما الآن فالأطفال هم الذين يعلِّموننا.»

وابتسمت لدى تذكُّرها أول جرو تربِّيه ابنتاها. فإنها قبل أن تستطيع أن تلقي خُطبة قصيرة عن الرفق بالحيوانات سبقتها ميفيس، التي كانت قد تعلَّمت من مربيتها قبل ذلك.

فقالت بصرامةٍ وارتيابٍ معتبرةً أمَّها نموذجًا لقسوة الكبار: «يجب ألَّا نقسوَ أبدًا على الكائنات العجماء. تقول الآنسة جونز إننا لا بد أن نتذكر أن الجرو يشعر مثلنا، وإن كان لا يبدو مثلنا تمامًا.»

ثم أضافت ميرل، متجاهلة التسلسل المترابط: «وتذكري أنكِ يجب ألَّا تلتقطيه وتحتضنيه بقوة، وإلا فسينزعج بشدة.»

صدر نفيرٌ آخر فعرفت أن الكونت كان في سبيله إلى الخروج من بروكسل وحياتها. سمِعت السيارةَ وهي تسير على الحصى، وكانت تعلم أنه كان بصحبة طيف سيدة لم تعِش إلا في خيال كاتبة روايات.

غادر الكونت والكونتيسة البلدة.

الفصل الرابع

التوقيع

حين سافرت جورجيا يو إلى الخارج أولَ مرة، كانت في مهمة، لتوسيع آفاق ذهنها. لم تكن مهتمة بأي بلد على التحديد، لكن شخصًا مهتمًّا بالسفر ورفيع المقام في آنٍ واحد نصحها بأن «تبدأ من بلجيكا ثم ترتقي».

وعلى ما في ذلك من تعالٍ ضمنيٍّ، فقد كان لذلك الاختيار أهميةٌ بالغة في مستقبلها. فإنها لو لم تذهب لفاتها مصادفةُ لقاء وكيلها، الذي كان مسئولًا عن زيارتها إلى بروج.

من ناحية أخرى، يجوز الاحتجاج بأنها التقت بالكونت في بروكسل، لكن ربما كان مكتوبًا لها أن تلتقيَ به — أو بالأحرى بمَن على شاكلته — أينما ذهبت، بما أن الطبيعة والظروف جعلتاها هدفًا سهلًا.

لم يتحمَّس هارفي تورش لدى مصادفته جورجيا والكونت أثناء مروره بميدان جراند بالاس. فرغم أنه كان قد ارتحل إلى أوروبا في عمل، فإنه كان يمزجه بالمتعة، ولم يُرِد أن يتذكر عملاءه، حتى إن كانت جورجيا من أصدقائه القدامى.

وتغيَّرت مشاعره حين لاحظ اضطرابها السعيد وربط بينه وبين رفيقها. كان تورش نفسه رجلًا ضئيل الجسم، ذا وجه نحيل، نابهًا يبدو مثقفًا، وإن كان فطينًا فحسب. وقد جعلته ضآلة جسمه يبالغ في أهمية حُسن البنية الجسمية، وكانت سببًا إضافيًّا لتصوره شقيقه الأكبر، أوزبرت، في صورة البطل.

تمتَّع أوزبرت بكل النِّعم والمواهب — الذهنية والجسدية — التي حُرم هو منها، لكنه فَشِل في توظيف عقله بنجاح، ومن سوء حظه أنه اشتغل مدرسًا مبتدئًا في مدرسةٍ حكومية. وهو لم يُخفِ حبَّه لجورجيا، بيد أنه لم يتمتع بالثقة الكافية ليعرض عليها الزواج؛ إذ خشي أنها تعدُّه صديقًا ليس إلا.

وكان تورش يأمُل أن يوفِّق بينهما في زواج سعيد في المستقبل. حيث كان معجبًا بجورجيا من الناحية الشخصية، ويكنُّ لها بالغ الإعجاب بوصفها كاتبة. فقد كانت طاقتها ومهارتها مذهلتَين، وكذلك كانت تتمتَّع بموهبة، كل هذا جعلها تملك مكونات النجاح التجاري. كانت متجردة من التردد الفني والتحذلق على حد سواء؛ إذ كان لديها في رأسها شيطان يمكِّنها من إضافة التطورات اللازمة لحبكات مألوفة وغير مبتكرة.

وكان تورش يرى أن عيبها الوحيد هو إحجامها عن الدعاية، ورفضها المستمر السماح لوكلاء الدعاية باستغلال تاريخ حياتها العاطفية.

وقد جعلته مودَّته إياها وولاؤه لشقيقه يرى الضوء الأحمر حين عرَّفته إلى رفيقها. من ثَم فإن ما باحت به في حفل العشاء بشأن الوديعة لم يرفع من آماله مرةً أخرى فحسب، وإنما زاد من فضوله أيضًا.

حين جاءته جورجيا في بهو الفندق اندهش من مظهرها اليافع. كانت ترتدي ثوبًا رياضيًّا من قماش الفلانيل لونه أبيضُ يميل إلى الاصفرار، فيما لم تغطِّ شعرها الأشقر ذا المَسحة الفضية. بدت نحيفة البنية مثل طالبة في المدرسة، وقد دارى الضوء الخافت الخطوطَ في وجهها الصغير القسمات.

سألته بنبرة شجية قبل أن يتسنى له الكلام: «هل أحتاج إلى ارتداء قفازات؟»

فقال: «يبدو كأنكِ كنتِ تخالطين طبقاتٍ رفيعةً مؤخرًا. لا بد أن مستوى الكونت كان رفيعًا.»

تظاهرت بأنها لم تسمعه وسألته سؤالًا آخرَ.

«هل يجب أن نذهب إلى بروج؟»

«لا. فلتقترحي مكانًا آخرَ.»

«آه ... لتكن بروج إذن. ليس في ذهني شيء آخر. إن فكري مشوَّش.»

أدرك تورش أنها كانت تعيسة وتحاول نسيان الواقع؛ ولذلك راح يتحدَّث في أمورٍ تافهة في طريقهما إلى المحطة. ولم يسألها سؤالًا مباشرًا إلا والقطار منطلق وسط الحقول المنبسطة، والقنوات التي ظلَّلتها أشجار الصفصاف.

«هل صحيح ما قلتِه عن الوديعة؟»

فأجابت: «صحيح تمامًا. لقد فعلت ذلك بناءً على نصيحة.»

«نصيحة مَن؟»

«شقيقك. كان أوزبرت يعلم أنني قلِقة على مستقبل ابنتَي؛ لأنه خمَّن خوفي من أن أخضع لسيطرة ذهنية. فإنها مسألة طالما جالت بخاطري. ربما لاعتيادي ابتكارَ حبكات

مثيرة؛ ومن ثَم بإمكاني أن أتخيَّل كم من السهل لدرجةٍ مخيفةٍ أن تستسلم لشخصٍ تنامَت ثقتك فيه بلا حدود. لذلك كان يجب أن أحافظ على ميرل وميفيس في أمان، في حال إصابتي بالضَّعف.»

«على كل حال، يبدو أن شقيقي أوزبرت قد بالغ في فعله الذي أراد به خيرًا.»

على الرغم من نقده، فقد تألَّق وجهُ تورش فخرًا بهذا الدليل على نبل شقيقه وزهده. لكنه في الوقت نفسه أسِف على خسارة ملعب التنس والسيارة اللذين تخيَّل أن أوزبرت سيرثهما، جزءًا من ورثه عند زواجه من روائية ناجحة.

سألته جورجيا على الفور: «هل تمانع استشارتي إياه بدلًا منك؟ لقد خشيت أنك ستكون عمليًّا إلى حد الإفراط. أما أوزبرت فقد كان رائعًا. لم تَعُد لديَّ مخاوفُ مادية منذ أن رتَّبت أموري. لم يَعُد هناك إحساس بعدم الأمان أو خوف من المستقبل. بإمكاننا جميعًا أن نعيش مطمئنين على الفائدة.»

ثم أضافت بضحكة مغتصَبة. «لا شك أن أموالنا ستنفد إذا أنفقنا دخلنا على مقياس فاندربانت.»

«حسنًا. لكن حين تبلغ الصغيرتان سنَّ الرشد من الممكن أن تمسكا بزمام الأمور وتنحياكِ جانبًا.»

«لن ترثا قبل أن تبلغا الخامسة والعشرين. إذا كانتا ستصيران مثل ابنتَي الملك لير الكُبريَين، فسأرى نُذر ذلك وأدَّخر المال استعدادًا. لكنهما لن تفعلا. فالمرء في أمانٍ مع ذويه.»

«بالتأكيد. نضيف إلى ذلك أنكِ تغفلين حقيقةً مهمة. وهي أنكِ ما زلتِ لم تبلغي الثلاثين. ولديكِ الكثير من الوقت لتجني ثروة صغيرة أخرى.»

عضَّت جورجيا على شفتها، وهي تنظر من النافذة إلى قطيعِ ماشيةٍ أبيضَ في أسود كان يرعى في الحقل. لاحظَت تلقائيًّا أن أخشاب مباني المزرعة كانت مطليةً بلونٍ غير مألوف من الأزرق الزاهي. وكانت هناك فتاة ذات شعر بالغ القِصر ووجه لا تشوبه شائبة نقصٍ تخوض في وحل الأرض.

مرَّت مهلةٌ ملحوظة قبل أن تتحدَّث.

قالت: «إنك تعلم يا هارفي ما بذلته من جهد. لقد وضعت من طاقتي أكثرَ مما ينبغي. وأشعر أنني أستحق عطلةً طويلة جدًّا.»

لم يكن الخبر مفاجئًا لتورش. رغم أن مخزون جورجيا من المغامرات المثيرة كان يبدو معينًا لا ينضُب، فإنه لم يغفل عن أنها استنفدت هذا المخزون الهائل بلا هوادة. فإنها في سعيها للأمان المادي حشرت عمل سنوات في فترة ضيقة نسبيًّا من الوقت.

مذكرًا نفسه بأنه من الوارد أن يستقيم المستقبل، تقبَّل تورش الصدمة بحكمة.

فوافقها بهدوء قائلًا: «أجل، أعتقد أن الراحة ستكون مفيدةً لكِ، ولعملكِ. هذه مدينة جنت يا سيدتي. لا بد أنكِ تذكرين القصيدةَ التي درسناها في المدرسة: «كيف أتوا بالخبر السار.» أما أنا فستظل جنت مرتبطةً لديَّ بخبر لم يكن سارًّا.»

يبدو أنها لم تسمعه، فيما تجاهلت جنت التي رأتها مجموعةً ضبابية من المداخن والأسطح.

ثم قالت فجأة: «الكثير من الناس يتزوجون أغرابًا يا هارفي. فالفتيات يخرجن لممارسة رياضات الشتاء ويَعُدن مخطوبات. أنت التقيت بسيبيل في جولة بحرية.»

علَت وجهه الذكي أمارات الحماقة عند ذكر زوجته. كانت زوجته امرأةً رياضية قوية ومتوهجة تسلُك طرقًا غير نزيهة في الحب؛ إذ كانت مَن أوقعته في شِباكها من دون استعداد منه، لكنه ما زال مُدلهًا في حبها بشدةٍ إلى حدٍّ ألَّا يُدرك أن زواجَه لم يكن أمرًا عفويًّا بالمرة.

فأقرَّ كلامها قائلًا: «الزواج مخاطرةٌ لا محالة في العموم.»

«لم يكن زواجي كذلك. فقد أردت السلامة. وأنت تعلم إلى أي شيء أفضى ذلك.»

كانت المرة الأولى التي تشير فيها إلى حياتها الشخصية؛ لذلك فقد كان فضوله أقوى من أن يقاوم رغبته في أن يسألها.

«هل كنتِ تعيسة؟»

أجابته قائلة: «لا. حين تتزوج الفتاة وهي لا تزال طالبة في المدرسة، فإنها لا تتوقَّع أكثرَ من فستان الزفاف والهدايا. فحَسْبها أهميةً وإثارة أنها عروس.»

«هل جعلكِ إدوارد سعيدة؟»

«نعم، لقد كان لطيفًا على الدوام. حتى إنه قبل أن توافيه المنية، طلب مني أن أسامحه على خذلانه إياي. ولم أدرك أنه كان يعني أنه سيتركني لأعيل ابنتَينا. لكن لا تنسَ هذا. لقد حظيت بزواج آمن.»

مال تورش إلى الأمام وربَّت على يدها.

ونصحها قائلًا: «لا بد أن تختاري شخصًا جديرًا في المرة القادمة.»

ومما أثار استياءه أنها أقرت بتلميحه بصراحة فادحة.

«هل تقصد أوزبرت؟ سأصارحك برأيي الآن. لم يكن هناك مَن يضاهيه، حتى التقيت بجوستاف. لقد اعتدت أن أنتظر وأتساءل لماذا لم يطلب مني الزواج. أما الآن فقد تغيَّر كل شيء.»

حاول تورش أن يخفيَ خيبةَ أمله.

وقال ببرود: «إذا كان هذا ما تشعرين به، فليس لي أن أضيف شيئًا. غير أنني سأقول إن أوزبرت قد أثبت بنصيحته لكِ بشأن الوديعة أنه ليس صائد ثروات.»

«وهل كان يملك أن يفعل غير ذلك؟ لكن أمام جوستاف الفرصة نفسها الآن. إذا طلب مني الزواج بعد أن عرف أنني لا أملك شيئًا، فسيثبت أنه غير طامع هو الآخر. هل تعتقد أنه سيفعل يا هارفي؟»

لكنه تجاهل نظرةَ الرجاء في عينَيها.

وقال مذكرًا إياها: «لا أعلم سوى أنه قد رحل.»

فتنهَّدت قبل أن تنتبه إلى حزنه بحرصها الغريزي على مشاعر الغير.

وقالت: «آسفة جدًّا بشأن أوزبرت. لكن ألا يمكنك أن تقدِّر موقفي؟ كل امرأةٍ تريد أن تحيا حياةً حقيقية. وأنا لم أعِش الحياة.»

«أعتقد أنكِ مررتِ بتجاربَ كثيرة.»

«ولادة وموت وزواج. هذه ليست تجارب. لقد كنتُ أصغر من أن أشعر بها. إنها أشياء ألَمَّت بي، وأنا رضيت بها. هذا كل ما في الأمر. كانت كأنها تمرُّ من فوق رأسي دون أن تمسني، مثل موجة عالية. هل تعتقد يا هارفي أنه سيعود؟»

«من الأفضل أن تسألي موظفَ حجز التذاكر في المحطة يا عزيزتي. فكيف لي أن أعرف إذا كان حجز تذكرة رجوع؟»

ظلَّا صامتَين ما بقيَ من الرحلة القصيرة. وحين وصلا إلى بروج ندم تورش على اقتراحِه الذهاب في هذه الرحلة؛ لأن جورجيا كانت مستغرِقة في الكآبة. لم تكن في حالة مزاجية تسمح بتقدير الآثار العتيقة. فالشوارع القديمة الخلابة، وكل آثار العصور الوسطى، والكنوز الفنية في الكنائس والمتاحف، والقنوات الراكدة، كلها لم تثِر في نفسها إعجابًا.

لكنها لاحظت السُّخام على الحصى، وشحوب الألوان، والمياه البنية العكرة، التي علَتها سحابةٌ من الحشرات الطائرة. لقد رأت المكانَ متهالكًا وكريه الرائحة وقذرًا، لكنها كانت

على يقينٍ من أن الكونت كان سيضفي عليه الحياة، ويجعله عالمًا جديدًا رائعًا لو كان برفقتها.

كان أكثر غدائها تدخين السجائر، ولم تعلِّق على دقات جرس الكنيسة الشهير.

بعد هنيهةٍ سألها تورش: «ما رأيكِ في بروج؟»

«إنها بديعة ... لكن هل هي نظيفة؟»

«لا. إذا احتكمنا إلى معايير النظافة، فلم تَعُد بروج كما كانت. سنأخذ القطار التالي يا جورجيا. لكننا قبل ذلك سنزور نوتر دام زيارةً سريعة.»

فقالت جورجيا محتجة: «يا عزيزي، لكنني رأيت الكثير جدًّا من الكنائس، حتى إنها صارت كلها متشابهة الآن.»

«لكن لا بد أن تري تمثال مايكل أنجلو. ولن نزيد على ذلك.»

لكنه أخلَّ بكلمته حين كانا بالداخل؛ إذ توقَّف أمام لوحتَين ثلاثيتَين لبيير بوربو.

قال تورش: «لقد سمِعت قصة طريفة عن الشخص الذي رسم هذه اللوحات. لقد اعتاد أن يوقِّع لوحاته بأن يرسم نفسه واحدًا من الشخصيات الهامشية. ها هو ذا في لوحة سجود الرعاة. إنه هو الذي يعتمر القبَّعة.»

فعلَّقت جورجيا وقالت: «تبدو دعاية عجيبة ومنفِّرة.»

«ربما من وجهة نظرك؛ لأنكِ تنزعجين من تلك الأمور. لكنني أتفهَّم موقفه. لقد قال الرجل لنفسه: «لقد وضعت كلَّ ما أملك في هذا العمل. لقد بذلت فيه جهدي. من ثَم لا بد أن أثبت ذلك. أنني موجود بداخله في حالِ حاول أيُّ شقيٍّ أن يسرق نجاحي. وصورتي تُثبت أن هذا عملي أنا.» هل فهمتِ الآن الأمر من زاويته الشخصية؟»

ابتسمت جورجيا ونظرت إلى وجهه المتحمس.

وقالت: «لكم أنت طيب ومقدِّر على الدوام!»

فقال: «لكنني لست مقدرًا بدرجةٍ كافية، لأعرف كيف يكون وجع الكاحل الذي تشعر به المرأة بعد المشي بكعبٍ عالٍ على الحصى؟ حسنًا. توقَّفي عن التظاهر بالمسكنة. لكِ ما تريدين. سنذهب إلى المحطة مباشرةً.»

توقَّف في رُواق الكنيسة ليشتري بطاقة بريدية مصوَّرة للوحة «سجود الرعاة».

وقال: «احتفظي بها للتذكرة.»

كانت الأمطار تتساقط وهما يغادران بروج، حتى إن تورش المتحمس نفسه أقرَّ بأن المدينة القديمة بدت تعيسة وكئيبة كآبة لا تُوصف، وهي تحت حجاب الدخان

والرذاذ. وشعر بالندم على جرِّه جورجيا إلى تلك الرحلةِ المحبِطة، حيث إن هدفه كان رفع معنوياتها.

قالا «الوداع» على سُلم فندقها.

وقال لها: «سوف أسافر الليلة. لا بد أن أكون في المكتب غدًا. هل تريدين أن أبلغ أي شخص برسالة؟»

«بلِّغ أوزبرت تحياتي.»

«سيسرُّه ذلك. إلى متى تنوين البقاء؟»

«لا أعلم.»

«ويحي. ويحي.»

ضحكت بتحدٍّ وقالت: «لمَ لا. أنا لا أريد أن أفوِّت لقاءه، في حالِ رجع. ومن المحتمل أن أمضي إلى السويد.»

«وهناك إنجلترا. فقد أخبرني الكونت أنَّ نصفه إنجليزي.»

سحبت جورجيا يدها وبدأت تصعد السُّلم على مهَل. هامت مثل السائرين نيامًا في الرُّواق المزدحم، ودخلت البهو الواسع بأضوائه الخافتة.

فكان أول مَن رأته هو الكونت.

الفصل الخامس

تعريف بالجزيرة

في ذلك المساء تغيَّرت بروكسل في عينَي جورجيا. لم تَعُد المدينة الجديدة تتمتع بذلك السِّحر الغامض الذي كان يغشاها قبل حفل العشاء؛ فهي نفسها لم تَعُد تحلِّق في السماء من السعادة، ولا مغيبة عن الواقع؛ بل صارت للمدينة أسسٌ ثابتة ومعالمُ واضحة يُرى فيها جمال التصميم المعماري والبناء. وبدلًا من الخليط المبهم من المباني، صار هناك جاداتٌ وميادين وطرق لمدينة أوروبية راقية. وقد درست خريطتها باهتمام واعٍ، ولأول مرة ربطت بينها وبين الذكرى الأدبية لشارلوت برونتي.

كان المطعم يضجُّ بأجواءٍ احتفالية، حيث كان يشهد مأدُبة عامة للاحتفال بلمِّ شمل مواطنين دنماركيين. شعرت جورجيا بالإثارة وهي تشاهد الضيوف ينتقلون، في مراحلَ تدريجية، من الرسميات والصمت إلى لغطٍ من الأصوات وعواصفَ من الضحك. كانوا لا يزالون يشربون الأنخاب، ويتصايحون في نفَسٍ واحدٍ حين انضمَّت جورجيا إلى الكونت في الصالون، حيث كانت الأوركسترا تعزف موسيقى وطنية مجاملةً لهم.

لاقت البهجة السائدة ترحيبًا لديها، وكأنها وصلت إلى واحةٍ غنَّاء بعد السير في صحراء قاحلة خلال رحلتها في بروج.

كانت إبَّان عودتها تشعر باليأس ينخُر في روحها مثل السوس، وقد أرعبها التهديد بالانفصال إلى الأبد، لكنها بدلًا من الوحدة وجدت صحبةً أخويةً طيبة.

كان الكونت هو الآخر في حالةٍ معنوية ممتازة، وهو يحكي الخطة التي استطاع بها أن يتهرَّب من أقاربه.

قالت جورجيا: «أعتقد أنك ستظل تضحك حتى في لحظة موتك.»

فقال لها واعدًا: «قطعًا، إلا إذا كان فكي متيبسًا. لقد قرَّرت أن تكون جنازتي مرحة؛ فقد حضرت العديد جدًّا من الجنازات الكئيبة. سيُقدم فيها الشراب بلا حدود، وسيكون

على الكل أن يشرب حتى الثُّمالة؛ امتثالًا لآخر أمنياتي. وستُطبع في بطاقتي التذكارية قصتي المفضَّلة من دون حذف، بحيث يضحكون كلما طالعوها فيما بعد.»

فقالت جورجيا على الفور: «لكنني لن أضحك.»

«أعتقد حقًّا أنكِ ستبكين قليلًا. فإنكِ جادة جدًّا ورقيقة للغاية.»

اكتسب وجهه رزانةً وهو يقول مضيفًا: «لكنني لست مرحًا على الدوام. فإنني جاد في أغلب الأوقات. وأفضِّل البقاء وحيدًا، دون أحد على مرمى البصر، ناعمًا بوحدتي.»

«لكن أليس هذا صعبًا نوعًا ما؟»

«ليس بالنسبة إليَّ. فلديَّ جزيرة خاصة. وهي بعيدةٌ عن أي ساحل. من الممكن السير في أنحائها فلا ترين سوى أميالٍ من البحر. سوف تحبينها.»

وإذ فجأةً صار صوتُه المتلهف صوتًا عمليًّا، وبدأ يصف منزله بتفاصيلَ داخلية دقيقة وغير رومانسية.

راح يطمئنها قائلًا: «إنه جنة للمرأة. بكلِّ ما فيه من وسائل الراحة الحديثة الموفِّرة للجهد وكل ما فيه من زخارف فنية. أعتقد أنكِ تعلمين أنه من الممكن شراء الغاز في أسطوانات؟ أو لعلكِ تفضلين المدافئ الكهربائية؟ هل تفضلينها؟ حسنًا. فلدينا محطة توليد كهرباء خاصة.»

وواصل كلامه مفصحًا عن اهتمامه البالغ بذوقها، حتى بدأ ينمو لديها اهتمام المالك.

قال: «هناك حجرة تصرخ طالبة أن يجلس فيها مؤلِّف شهير للكتابة. جزء منها زجاجي، وتُطِل على البحر مباشرة، بحيث تستطيعين النظرَ من النافذة لرؤية الأمواج وهي تتكسَّر فوق الصخور المغمورة تحت الماء. وحين تكون الأمواج شديدة جدًّا، يرتطم الرذاذ بالزجاج كأنه مطر.»

ناشدته جورجيا قائلة: «لا تزِد كلمة أخرى. لقد أثرت غَيرتي.»

«إنني أريد إثارة غيرتكِ. فربما عندئذٍ أستطيع إقناعكِ بالبقاء معي. البقاء زمنًا طويلًا جدًّا.»

وحملت عيناه معاني قوية حتى إن أعصابها اضطربت رغمًا عنها.

فقالت سريعًا: «حدِّثني عن تكلفة تركيب نظام تدفئة. فأنا أيضًا أعيش في البراري.»

«بالتأكيد. لقد حكيت لكِ عن كوخي الريفي. فاحكي لي عن كوخكِ.»

«إنه لطيف جدًّا. يكاد يكون حديثًا؛ فقد بُنيَ عام ١٨٩٣. ونحصل على الطاقة بحرق النفط والفحم، لكن لدينا شركة مياه. ومن دواعي فخرنا الشديد أننا نمتلك حمَّامًا، وإن كان ليس مكسوًّا بالقِرميد. ومؤخرًا أضفت حجرتَين؛ إذ تعيش أمي معنا.»

عندما نظر الكونت إلى وجهها الصغير الرزين، وجد من المستحيل أن يحدِّد أكانت تتحدَّث بثقة مفتعلة أم ببساطة حقيقية. لم يبدُ عليها أمارات السنين التي حملت خلالها العالَم على كاهلها الضعيف، وقد استشعر أنها لم تشكُ يومًا الجهودَ التي بذلتها ولا روَّجت للإنجازات التي حقَّقتها.

ولأول مرة أدرك سرَّ قوَّتها. إنه يكمُن في صمتها.

فسألها: «هل كانت تلك السنة الأولى بالغة الصعوبة؟»

«لا. لقد تمكَّنت من إطعام أسرتي، ولم أتضور جوعًا.»

وبينما هي تتحدَّث، ذكَّرت جورجيا نفسها بأن هذا الرجل، على الرغم من بهائه، كان غريبًا تمامًا عنها. وسيكون الزواج منه أشبهَ بالغوص في حفرة مظلمة في قاع المحيط. وإنها تريد الإقدام والغوص، لكن لن تواتيها الشجاعة حتى تتأكد تمامًا من شخصيته.

وحتى تختبره قرَّرت أن تستعرض وضعها المالي بالصورة الأكثر إحباطًا لصائد ثروات.

فقالت: «سوف أخبرك بسرٍّ. لقد حالفني الحظ بأن ضمنت لنفسي دخلًا بسيطًا في الوقت المناسب. لقد استنزفت مخزون الإبداع والكتابة الذي لديَّ.»

ضحِك الكونت غيرَ مصدق.

وقال: «أوه، لا. هذا مؤسف للغاية. تقصدين أنكِ فقدتِ الإلهام.»

«أقصد أنني صرت مستنزَفة الأفكار. كان من المتوقَّع حدوث ذلك؛ إذ إنني لم أرفض تكليفًا قط.»

«لكن أليس من الممكن شراء الحبكات؟»

«لست أنا مَن يفعل ذلك. فلا بد أن يكون الكتاب من خَلْقي. لا بد أن أعيش فيه وأشعر بكل كلمة فيه، وإلا فلن يخرج إلى الحياة.»

وللمرة الأولى يولي الكونت مأساتها الأدبية اهتمامًا.

سألها: «وكيف سيؤثِّر ذلك على العقود التي أبرمتِها؟»

فقالت مفسِّرة: «لحسن الحظ لم يتبقَّ لديَّ سوى كتابٍ واحد لأتمَّه. ولن يضغط عليَّ الناشر لأسلمه حين يعلم بظروفي. فهو يعلم أن العمل، إذا كان دون المستوى، فسيكون مصيره الفشل ليس إلا.»

«ومع ذلك، لو كنتُ وكيلكِ لاختلقت قصةً، فأقول إن استثماراتكِ قد انهارت، وإن ابنتَيك ستجوعان. من شأن هذا أن يشحذ عقلكِ الخامل.»

«لو فعلت ذلك لاضطُررت إلى البحث عن عملٍ آخر. ألا تفهم الأمر؟ الكتابة عندي ليسَت مسألةَ عقل. وإنما مسألة خيال. وهذا لا يأتي قسرًا. وإذا غادرك، فلا حيلةَ لك في استرجاعه.»

بان على وجه الكونت الانشغال، وقطَّب ما بين حاجبَيه كمن استغرق في التفكير. وبعد وقفةٍ طويلةٍ هزَّ كتفَيه وكرَّر كلماتها.

«حسنًا، لا حيلةَ لنا في استرجاعه، إذن فلا أسف عليه.» وقبَّل يده مودِّعًا سرابًا من نسجِ خياله. «يا لكِ من امرأةٍ سعيدة الحظ! ليس لديكِ مالٌ في البنك. ولا مال هنا.» ثم لمس جبهتها برقة. «فلا يمكن لأحدٍ على الاطلاق أن يرغبَ في الزواج منكِ من أجل ثروتكِ يا عزيزتي، مثل ذلك الرجل الذي قتل عرائسه في حوض الاستحمام.»

وبينما هي تُصغي لصوته الرقيق، شعرت جورجيا بالبرودة التي انتابتها في بروج.

قالت: «ربما ما زال لديَّ فرصة أخرى. فلديَّ أكثر من ألف جنيه وديعة.»

«ألف؟» قالها الكونت وعيناه شبه مغمضتَين من الاستهزاء. «آسف يا عزيزتي، لكن الألف جنيه لن يكفيَني إلا أسبوعَين تقريبًا بأسلوب الحياة الذي اعتدت عليه.»

لاحقًا، بينما جورجيا تصعد وئيدًا السُّلم الرخامي العريض، توقَّفت عند البسطة أمام صورتها على مرآةٍ ضخمة. كانت قد اعتادَت أن تحييها بهمسة حمقاء.

«تصبحين على خير يا أيتها الكونتيسة.»

كشفت الصورة في المرآة عندئذٍ عن مدعية وقحة. كانت ابتسامتها مُرة تمامًا كأفكارها.

«كنت حمقاء إذ توهَّمت أنه عاد من أجلي. كان هنا حين أتيت وسيظل هنا بعد أن أرحل. وكلما عجَّلت برحيلي كان أفضل.»

بعد أن أطفأت الأنوار، وقفت عند نافذة الصالون وأرسلت نظرها لعتَمَة الحديقة. كانت ذكرى حُلمها لا تزال حيةً للغاية، حتى إن الأشكال التي رأتها في الكابوس مثَلت مرة أخرى أمام عينَيها. فرأت شابًّا منحلًّا بشفتَين ملوَّنتَين. ورجلًا بلُغد رجراج. وامرأة بغيضة متنكِّرة في ثياب سيدة راقية. رأتها بوجه أحمر سكران، مبتلٍّ ورطب كأنه نُقع في ماء مُغلًى.

وحدَه الكونت لم يكن موجودًا. فقد اختفى إلى الأبد.

قالت تحدِّث نفسها: «أحمَد الله أنني في مأمن منهم.»

وفي تلك الليلة حلَمت أنها تزوجت من أوزبرت. كانت البنتان معهما حيث بنَوا جميعًا حديقة مزينة بالصخور في فناء الكوخ، تحت سماءٍ برتقاليةٍ في غروب خريفي ساده الصقيع. ثم دخلوا لتناول الشاي، حيث غمرتها سعادة أسرية هادئة، تمنح الطمأنينة مثل مدفأة فحم لا تنقطع حرارتها.

وظل الشعور بالدفء حتى بعد استيقاظها في الصباح التالي.

تساءلت جورجيا: «ترى ماذا سيحدث اليوم. كلا، أنا أعلم. لا شيء.»

وفي صباح ذلك اليوم طلب الكونت منها الزواج.

الفصل السادس

زهور من أجل العروس

في البداية لم تستطِع جورجيا أن تصدِّق حُسن طالعها. فقد تحققت أمنيتها، خلافًا للاحتمالات وضد قهر الظروف. ومع ذلك، فإنها بدلًا من الموافقة على عرض الكونت، وجدت نفسها تضع العراقيل في الطريق.

باحت قائلة: «ليس بإمكاني أن أكون كونتيسة مطلقًا. فليس بإمكاني الوفاء بالتزامات اللقب. فلتتذكر أنني نكرة.»

فقال الكونت مبديًا افتخاره بها ليهدِّئ من رَوعها: «بل أنا النكرة. فأنا أحمل لقبًا قديمًا لا يراه أحد مطبوعًا، إلا في صفحة المجتمع في صحف بلدي. أما اسم «جورجيا يو» فهو معروف لدى الملايين في أنحاء الكرة الأرضية.»

همست جورجيا، غير قادرة على تفسير وضعٍ تجده واضحًا من وجهة نظرها الطبيعية: «الأمر مختلف.»

كانت تعلم أنها واحدة من الكثير من الشخصيات الاجتماعية التافهة الذين كانت أسماؤهم مألوفة للآلاف، وذلك لاحترافهم التأليف. فإنهم مرتَين سنويًّا ينتشلون أنفسهم بمشقة من القاع حيث تقبع أسماؤهم المغمورة في الأساس، مع ارتفاع مد موسم النشر، ويبذلون محاولةً قوية أو ضعيفة لاكتساب الشهرة، ثم يأوون مرةً أخرى إلى عزلتهم الأصلية.

كان إنتاجها هي أكثر انتظامًا من أن تكون واحدة من تلك النماذج؛ إذ لم تكن كُتبها تختفي من صفحات الإعلانات إلا فترات وجيزة، لكنها تدبَّرت أمورها لتحظى بعزلة شبه تامة. فهي لم تنضم قط إلى نادٍ أدبي، ولا حضرت أيَّ مناسبة، ولا أُخِذت لها صور، ولا أُجريت معها حوارات.

واصلت كلامها في ارتياع وقالت: «إنك لا تفهم قصدي. إنني لا أعرف أحدًا. ولا أذهب إلى أي مكان. سوف أخذلك. كما أنك أخذت صورةً خاطئة عني. أنت تلتقي بنساء راقيات أنيقات. فما الميزة التي تراها فيَّ؟»

فسألها الكونت: «وما الميزة التي رآها زوجكِ فيكِ؟»

«لقد راقبني وأنا أكبَر. لقد كان هو وأبي في المدرسة معًا. فعقَد عَزْمه على الزواج مني وأنا في الرابعة عشرة.»

«تصرُّف كريم منه. تصرُّف كريم في حقك. لا بد أنه كان هناك رجال في حياتكِ من بعده؟»

«واحد فقط. أوزبرت. شقيق هارفي تورش.»

«هنيئًا له. إن تورش لشابٌّ ضئيل ظريف. هل أوزبرت مثله؟»

«لا. إنه أضخم منك.»

أدركت جورجيا في دهشةٍ أنها كانت سعيدةً سعادةً قاطعة، بإهانة الكونت على تهكُّمه وثقته الزائدة بنفسه. ورغم شعورها بسحر جاذبيَّته، أحسَّت بنفورٍ قويٍّ ينتابها.

وواصلت كلامها فقالت: «ولديَّ ابنتاي. وسوف تظلَّان دائمًا اهتمامي الأول. وهما تتمتَّعان بذوقٍ خاص، وربما لا تألفانك ولا تُعجبان بك.»

«بل ستفعلان. وهذا ليس في صالحي. فمن المعروف أن الأطفال والحيوانات ترتبط دومًا بأحقرِ الأشرار. وانظري كم أنا صريح معك. فأنا أرفض أن أفوز بكِ بادِّعاءاتٍ كاذبة.»

لفَّت جورجيا خاتم الزواج يائسة. فقد أدركت أن عليها الحفاظ على صفاء ذهنها حتى لا تتخذ قرارًا خاطئًا. ومع أن بإمكانها التراجعَ عن قرار الزواج ولو قبله بدقيقة، حذَّرتها غريزتها من الضغط الهائل الذي ستمارسه عليها شخصية الكونت بتأثيرها الذي بلغ أقصاه.

إنها اليوم تملِك نفسها، بإرادة حية، وقدرة صافية على التمييز. لكن غدًا قد تصير دمية يحرِّكها شخص بخيوط غير مرئية.

قال الكونت بثقة: «أنت تحبينني حبًّا جمًّا. لكنكِ خائفة مني.»

قالت جورجيا معترضة: «ليس منك. لكنني بالطبع أخاف أن أرتكب خطأً.»

«هذا أمر سهل. إذا رفضتني فلن يسعني فعل شيءٍ إزاء ذلك. لكن ألن تأسفي على أضواء المدن الباهرة، وأنتِ تسيرين على ذلك الشاطئ الكئيب في شفق الشتاء؟ ... أو ربما

حين تذهبين إلى السينما. بينما أنتِ في رحلة الرجوع الطويلة في الحافلة وهي تجوب الريف المظلم، ألن تذكِّري نفسكِ قائلة: «كان من الممكن أن أكون متألقةً مثل مارلين ديتريش.» أو حين تلتقين بامرأةٍ مضجرةٍ تتباهى بقصة حبٍّ وضيعة. من المؤكد أنكِ ستقولين لها في النهاية: «كان من الممكن أن أصبح كونتيسة.» لكن هل ستصدِّقك؟»

رجَتْه جورجيا قائلة: «توقَّف. كيف لك أن تعرف كل شيء؟»

كان يستعرض المستقبل بحَدْس عجيبٍ حتى إن كل كلمةٍ أصابَت هدفًا في مخيِّلتها. فقد أمكنها أن ترى شرائط الطحالب البحرية البنية على الشاطئ، وتسمع الصياح الحزين للنورس، وتشم المعاطف العازلة للماء في الحافلة المكتظَّة.

واستأنف الكونت كلامَه فقال: «أعلم أنكِ افتقدتِني. فقد رأيت وجهكِ الصغير الحزين حين دخلتِ البهو أمس.»

مضت اللحظة الحاسمة التي اتخذت فيها جورجيا قرارها دون أن تعيَ ذلك. فقد حقَّق الكونت الفوز بكلماته الأخيرة. وتخيلا معًا ضجرًا مرتقبًا لا يطاق. بروكسل الكامدة وبروج الخاملة. مستقبل كئيب، مثل مسطحات موحلة انحسر عنها الجَزْر. دقائق بطيئة، وساعات كليلة وألم من ندمٍ لا ينفع.

قالت له: «لا بد أنك مجنون. وأنا مجنونةٌ لإنصاتي إليك. إننا غريبان.»

«ماذا ستخسرين؟ فقد أثبتُّ لكِ أنني لست صائد ثروات.»

«أعلم. دعني أفكر إذن.»

ونظرت حولها كأنها تبحث عن علامةٍ تدلُّها على مصيرها. كانا جالسَين في الحديقة المقابلة للقصر الملكي. كان يومًا صافيًا، حارًّا، شديد الرياح، حيث جعلت ظلال أوراق أشجار الكستناء البنية تهتزُّ على وجهَيهما مثل المراوح، وتناثر الرذاذ من النافورة الدائرية الكبيرة في الهواء مثل الدخان.

لكنها لم تَجِد العلامة التي بحثت عنها. كانت منصة الفرقة الموسيقية القائمة وسط الأشجار مهجورة، والكراسي خالية. وكانت المسارات المتعرِّجة المتخللة الأيكة بانتظار ساعة التقاء الأحباء في المساء. لم يكن هناك سوى بضعة أطفالٍ راحوا يلعبون حول دائرةٍ من تماثيل حجريةٍ تبحلق، لكن بعيون عمياء.

ثبَّت الكونت عينَيه على وجهها المضطرب.

وقال: «إنني أطلب منكِ الزواج اليوم. لكنني لن أطلبه غدًا. وأريد ردًّا الآن.»

فأجابت قائلة: «موافقة.»

«يا حبيبتي.» وتألَّقت ابتسامة الكونت. «لن تندمي على قرارِكِ أبدًا. فإنني لا أُغرِق عروستي في حوض الاستحمام. بل إنني أعدكِ بألَّا تجدي فرصةً للاستحمام أبدًا. فسنحتفظ بالفحم في كل الحمَّامات.»

غير آبهٍ للمربيات اللواتي كن يشاهدْنَهما، أخذ الكونت جورجيا في أحضانه وأرجع رأسها إلى الخلف تحت ضغط قُبلته.

فقالت بجرأةٍ متكلفة: «يا له من أسلوبٍ مباغت!»

فسألها الكونت: «ألم يقبِّلكِ أحدٌ من قبل؟»

فقالَت له وصوتها ما زال متهدجًا: «ألم أخبرك أن لديَّ ابنتَين؟ ذكِّرني أن أخبرك لاحقًا بأنني كنت متزوجة.»

«متزوجة من رجل هرِم. فقد ذهب زوجك إلى المدرسة مع أبيكِ.»

«لكنه كان في المدرسة الابتدائية، في حين كان أبي طالبًا مشرفًا في صف التخرُّج.»

«لا بد أنه كان متأخرًا جدًّا في الدراسة إذن.»

كانت جورجيا مدركة أنها تحاول الشعور بالاستياء، إلا أنها لم تستطِع إجبار نفسها على السخط. شاهدَت بشيءٍ من الانزعاج الكونت وهو يشرع في قطف زهور البيوجونيا الوردية الصغيرة، التي تكوَّنت منها أحواض الزهور التي زيَّنت الحديقة.

قالت محتجة: «لا يجوز أن تفعل ذلك. فهذا مخالف للنظام.»

لكنه لم يَزِد عن أن ضحك واضعًا زهرةً في العروة، ثم دسَّ البقية في يدها.

وقال عاقدًا أصابعها حول الباقة: «باقة من أجل العروس. ها قد ضبطتكِ متلبسة بسرقة الزهور. سوف أسير بكِ أمام كل عاملٍ من المسئولين في الحديقة. وسوف يحتجزونكِ وأصير أنا حرًّا مجددًا.»

وحين نفَّذ تهديدَه فعلًا، حيَّاه الرجل الوحيد في الزي الرسمي، وبدا أنه لم يلحظ أنها كانت تحمل معها ملكيةً عامة. ومع أن عاقبة الموقف لم تكن بغيضة، تساءلت جورجيا إن كان تجرُّؤه على القانون واستهانته بالعواقب ينذران بعيب في شخصيته أم لا.

قال الكونت ملوحًا لسيارة أجرة: «لنتناول الغداء. لا بد أن نحتفل.»

وسريعًا سريعًا ... استؤنفت رحلتها المجنونة في التحليق بالهواء بوتيرة سريعة. فذهبا إلى فندق شاهق على الطراز الحديث، ذي أثاث يعتمد في تصميمه على الأنابيب المعدنية وتصدح في أجوائه موسيقى السوينج. طلب الكونت أغلى الأطباق، التي أُهدر أغلبُها. وتذوَّقت الكافيار لأول مرة، وأقسمت أن تكون الأخيرة، وشربت نوعًا من النبيذ، وجدَته باعثًا على الغثيان لكن يبدو أن النادل يستحسنه.

وبعد ذلك زارا متجر مجوهرات، حيث اشترى لها الكونت خاتمًا للخِطبة بسعر باهظ ودون اعتبار لذوقها. بَيْد أنها كانت، ولحسن الحظ، مسحورةً ببريقه؛ ومن ثَم فقد ارتضت أن تُحسب راضخة رضوخ الدمية في يد مَن يحرِّكها.

وقد دفعتها وتيرة ذلك اليوم المربك إلى آفاق خيالية؛ حيث فقدت هويتها وغدت شخصية في واحدة من رواياتها المشوقة. واستمرَّت الإثارة طوال العشاء، وأثناء ذهابهما بالسيارة إلى دار الأوبرا في الغسق الأرجواني بنجومِه الساطعة في السماء.

حين أُسدل الستار على الفصل الأول شرع الكونت يسألها عن ابنتَيها.

«هل هما رقيقتا البنية مثلكِ؟»

فأجابَت بإخلاص: «لا. إنهما طويلتان ووسيمتان مثل أبيهما.»

«لكنه كان عجوزًا.»

«ولهذا السبب فإنهما في غاية الذكاء. لا أعلم أأجعلهما تعملان صحفيتَين أم وكيلتَي عقارات. إنهما مهووستان بحفلات الزفاف في المجتمع والعقارات. ولا يمكنك التفوق عليهما في معلوماتهما عن تفرُّعات الأسرة المالكة.»

«لا بد أن أحكيَ لهما كل شيء عن الأعراس الفاخرة التي حضرتها. إليكِ خطتي. سوف أعود معكِ إلى إنجلترا، لأحصل على موافقة أمكِ. بعدها أريدكِ أن تعودي معي إلى السويد وتزوري جزيرتي.»

هنا تألَّق وجه جورجيا ابتهاجًا.

وقالت: «بالطبع، لا بد أن تأتي ابنتاي أيضًا.»

«لا.» قالها بنبرةٍ قاطعة. «لا يمكن أن تبعديهما عن دروسهما.»

«هراء. لن يضيرَهما الانطلاق بضعة أسابيع. ولا بد أن تريا بيتهما المستقبلي. لا بد أن تتذكَّر أنك تحت الاختبار ... ما الأمر؟»

نظرَت مندهشةً إلى جبينه العابس وشفته السفلى التي مدَّها.

وقال بجفاء: «إنما أنا مصدومٌ للغاية من استهانتكِ بالتعليم. لكن ما دمتِ تصرِّين، فلتأتيا. لكن تذكري هذا. إذا طرأت مشكلةٌ ما فيما بعد، فإنها نتيجة أفعالكِ، فلا تلومي إلا نفسكِ.»

سألته، وقد أحبطتها كلماته المنذِرة بالسوء: «ما المشكلة التي قد تطرأ؟»

قال: «مَن يدري.» وهزَّ كتفيه. «ربما تنزعج عمتي.»

«هل ستكون هناك؟»

«بالطبع، فهي مَن ستستضيفكِ.»

«وكلير؟»

«ألا تحبينه؟»

«نعم. وكرِهت الطريقة التي وضع بها ذراعه حول عنقك.»

بدا الكونت مصعوقًا.

وقال: «كيف وهو لم يضمني في مكانٍ عام من قبل؟»

وفجأةً أدركت جورجيا أنها كانت تفكر في الكابوس الذي راودها. ونظرًا لأن الاضطراب غلبها بسبب خطئها، فإنها لم تلحظ أن الكونت هو الآخر قد زل.

فقالت سريعًا: «بالطبع، إنما كنت أبالغ. فقد لمسك فحسب عند خروجه من الحجرة. لكنني لا أحب أن يتلامس الرجال.»

«لن يكون كلير هناك إذن. ها قد فزتِ مجددًا.»

ملأها إقراره بالثقة. ولأول مرة رحَّبت بالمستقبل من دون أي خوف.

قالت: «إنني متأكدة أنني سأحب جزيرتك.»

فقال مصححًا: «جزيرتنا. كلانا محبٌّ للهدوء. وبما أنكِ تخشين الواجبات الاجتماعية التي يحتِّمها وضعكِ، فسوف نجعلها مقرَّنا الدائم. لكن بمجرد أن تشعري بالملل سنشرع في أسفارنا. فيينا وقسطنطينية ونيويورك، أينما أردتِ أن نذهب. فسنذهب هناك ونعود مجددًا. نعود إلى جزيرتنا الجميلة.»

الفصل السابع

استقصاءات سرية

تلقى الشقيقان تورش نبأ خطوبة جورجيا من الآنستَين يو. كانا يقضيان عطلةَ نهاية الأسبوع معًا على الساحل، لكنهما ذهبا إلى منزل الروائية في عصر يوم الأحد.

تساءل أوزبرت حين صار الكوخ ظاهرًا مثل خلية نحلٍ في الأفق: «تُرى هل عادت؟» ولاحظ تورش أنه جعل يزيد من سرعة السيارة متلهفًا على طي الأميال الفاصلة، فيما صار وجهه متشنجًا من الترقب.

حين اقتربا، دخل بالسيارة في الرقعة المعشوشبة الممتدة على حافة الطريق الرملي. وهناك، دل على غياب حركة السير غصون اللبلاب بزهوره الوردية الصغيرة، وباقات زهور كزبرة الثعلب النامية بين الأخاديد، مع امتداد الساحل الخالي والبحر على الجانبَين. رفرفت فراشتان زرقاوان فوق الحشائش وغنَّت قُنْبُرة عاليًا في السماء. وخيَّم على كل شيءٍ الهدوء الشديد المعهود في عصر يوم الأحد، هدوء لا يقاطعه المتنزهون وراكبو الدراجات.

قال أوزبرت: «إنه نموذجي المثالي للبيت.»

لقد أحبَّ المكان وأجَلَّه لارتباطه بجورجيا. أما في الواقع فقد كان منزلًا أبيضَ مطليًّا بالمِلاط الخشن، بأسطح منحدرة، ونوافذ بزجاج منقسم على شكلٍ معيَّن، وأبواب بمزاليجَ جعلته يستحقُّ اسم «كوخ»، وهو العُذر المبتكَر لتصميم المهندس غرفًا صغيرة، لكنه كان حَسن البناء وله إطلالاتٌ رائعة من كل جهة.

وبسبب موقعه المكشوف فقد كانت الرياح كثيرًا ما تعصِف بالحديقة؛ فلا تسمح بازدهار الكثير من الزهور، على الرغم من حمايتها بسياجٍ من شجيرات الأَثْل. كانت البوابة والباب الأمامي مفتوحَين، حتى ليستطيع الناظر أن يرى جزءًا من قاعةٍ غُطِّيت أرضيتُها بالقِرميد الأحمر، وساعةً ذات بندولٍ وصندوق طويل — لم تَعُد تدقُّ — ومجموعةً مبعثرة من القبعات والمعاطف المعلَّقة على صفٍّ من المشاجب.

وإذ توقفا نبَّأتهما الصيحات المتحمسة بأن هناك مَن تعرَّف إلى السيارة المتوقفة من النوافذ. فقد خرجت ميرل وميفيس من المنزل تركضان جنبًا إلى جنب. فانقضتا على أوزبرت، وجعلتا تدوران به في دوامة بأيديهما المسمرة من الشمس، في حين رضي هارفي بتجاهله لصالح أخيه، واقفًا يبتسم من المشهد.

كانتا فتاتَين حسناوَين قويتَي البنيان، بسيقان مستقيمة مثل أعمدة بناية، وشعر كثيف ذهبي يداخله لون بني. ومع أنَّ بينهما فرقًا في العمر يبلغ عشرة شهور، بدتا كأنهما توءم. وقد عكس وجههما شخصيةً قوية، وكانتا حسناوين على الرغم من تشابههما بأبيهما بفكِّه السفلي العريض.

لقد ارتدتا قمصانًا وسراويلَ داخلية من حرير التوسة ذات لون أخضر باهت، وأحذية خفيفة صبغتها مياه البحر، واستطاعتا، مثل أبيهما، أن تُعطيا ذلك الانطباع المضلِّل بالثروة، وهو الذي ضلَّله في نهاية الأمر فقادَه إلى هلاكه.

كانت ميفيس قد نما لديها بالفعل شعورٌ بالاختيال والزهو، وكانت مربِّيتها، الآنسة جونز، ابنة القس، تفعل ما في وُسعها لتثنيها عنه. وكانت ميفيس أول مَن خرج من مسابقة العناق لتحييَ هارفي.

فسألته: «هل سمعت الأخبار أيها السيد؟» مستغلةً غياب أمها لتبُث معلومةً غير مسموحٍ بنقلها.

فقال على الفور: «أخبريني.»

وكالعادة سبقتها أختها الصغرى، لا يعيقها توخي الدقة فيما تقول.

فقد صاحت ميريل قائلة: «سنأخذ جميعًا لقبَ كونتيسة.»

استرقَ تورش النظر سريعًا نحو شقيقه. كان وجه أوزبرت مسمرًّا فلم يَبِن إن كان لونه قد تغيَّر أم لا، لكن عرف هارفي من جموده المفاجئ أن الخبر كان ضربةً قوية.

فقال، محاولًا أن يبدوَ غير مكترث: «لقد وصلهما بعض الثرثرة. لا أعتقد أن الأمر بات رسميًّا.»

ثم تحوَّل نحو ميفيس.

وسألها: «هل عادت أمكِ؟»

فأجابته: «لا. إنها لا تزال في أوروبا.»

«وهل جَدتكِ موجودة؟»

«مؤكد يا عزيزي.»

التقت السيدة بلفري بهما في البهو. كانت مثل ابنتها الموهوبة ضئيلةَ الحجم وبالغةَ الحسن، لكنها على النقيض من جِدية جورجيا، كانت على قَدْر من المرح الجاف. كان شَعرها الرمادي الجميل مهوشًا من أثر النوم، ومن الجلي أنها استعدَّت في عجالة. فقد كان وجهها لامعًا من أثرِ كِريم الترطيب، فيما ارتدَت معطفًا منزليًّا منقوشًا بالزهور مكرمشًا، وانتعلت خُفَّين ورديَّين مزيَّنين بالريش.

صاحت قائلة: «أوزبرت. عزيزي. إنني مسرورة لرؤيتك. وأنت أيضًا يا هارفي.»

مدَّت يدًا لتُصافحَ كلًّا منهما، لكنها ظلَّت ممسكة بأصابع أوزبرت بعد أن تركت يد هارفي.

وتأملت بنيتَه المفتولةَ العضلات قائلة: «ليتك ترتدي سراويلَ قصيرة على الدوام يا أوزبرت. فإنني أفضِّل الرجال في الملابس المريحة.»

ثم تحولت إلى هارفي بسؤال.

«هل سمِعت هذه الشائعة السخيفة؟»

بدا له أن وصف هذا الخبر بأنه شائعةٌ سخيفة ينزل بالكونت منزلةَ الشيء البرَّاق الزائف، مما رفع من معنوياته.

فاستفسر منها قائلًا: «إنها ليست حقيقة إذن؟»

«بالطبع لا. إنها لن تتزوجه على أي حال. ما دامت لي كلمة في الأمر. أيقول إنه كونت؟ لا بد أنه بائع مثلجات أو عاهر. هل تودان احتساء الشاي؟»

فقالت ميفيس تذكِّرها: «إنها ليست ساعة تناول الشاي؟»

«الأوقات كلها ملائمة لتناول الشاي أيتها الصغيرة.» ورفعت السيدة بلفري صوتها قائلة. «هل غلى الإبريق يا هانا؟»

فجاءت الإجابة من المطبخ: «يبقبق.»

«حضِّري الشاي إذن.»

قادتهم السيدة بلفري إلى حجرة الطعام، التي كانت، شأن بقية الكوخ، مفروشةً بأثاث حسن متين، لكنه خالٍ من الذوق. كانت الجدران مطلية بدهان قشدي اللون، والستائر خضراء ضاربة إلى الرمادي، فيما وُضعت سلة مهملات في كل حجرة. كان نموذجًا لمنزل الروائية المشغولة التي لا تجد الوقت للتنقيب عن التحف المميزة لدى باعة التحف.

خلال بضع دقائق كانت هانا العجوز قد جاءت بإبريقٍ بني كبير، وفناجين شاي، وكعكة كبيرة مُعدَّة في المنزل على صينيةٍ وضعَتها في منتصف الطاولة.

قالت: «تفضَّلا ما يروق لكما»، وهي دعوتها لأن يقوما ويتناولا ما يريدان. فاغتنما الإذن، حيث جعلتهما المعاملة غير التقليدية يشعران بأنهما جزءٌ من الأسرة، وإن كانت الفتاتان لم تشاركاهما.

أمرته السيدة بلفري، متحدِّثة بفم مليء بالطعام، فقالت: «حسنًا يا هارفي، أريد أن أعرف كلَّ ما في الأمر. فقد سمعت أنك أيضًا كنت طرفًا في المسألة.»

قال تورش مدافعًا عن نفسه: «لقد عرفتني إليه. وظننت أن الأمر لن يفضي إلى شيء. إنه يبدو صادقًا، إنه شخص مضمون بحق. لا بد أنها قصة حب.»

«أنا أعلَم بالأمر. إنه يحب أموالها.»

«لا. فقد أفصحت عن ...»

فقاطعته السيدة بلفري وقالت: «أعلم كل شيء بشأن الوديعة. لكنه يعلم أنها لا تزال تملك ثروةً في رأسها.»

تردَّد تورش مرة أخرى، خشيةَ أن يخون ثقة جورجيا.

وقال: «ثروة سيستغرق زمنًا طويلًا جدًّا ليصيبها، في حال كان ساعيًا وراء ثروتها حقًّا.»

زفرت السيدة بلفري وهي تشعل سيجارة.

وقالت: «المسألة برُمتها مستحيلة. لقد عاشت جورجيا حياتها بأكملها هنا. هنا حيث تنتمي. هذا هو عالمها، ولا يمكن أبدًا أن تكون سعيدة وهي بعيدة عنه وعنَّا جميعًا.»

«ربما تعشن أنتن معها في السويد؟»

«لا، شكرًا، فلست ممن يستمتع بنكات الحموات. ويجب أن نتكاتف جميعًا لجعلها تدرك خطأها بمجرد أن تعود إلى الديار. لا بد أنها فقدت صوابها. وإنني لأول مرة سأقر بقول: «إن أهل سافولك سذج».»

ثم أمسكت عن الكلام حين دخلت الفتاتان إلى الحجرة منطلقتَين، تلوِّح كلٌّ منهما بعددٍ حديثٍ من مجلَّةٍ نسائية.

قالت ميفيس: «إننا نتفق على بعض تفاصيل حفل الزفاف. لكننا لم نتفق على الفستان؛ فأنا أريد تقليد فستان دوقة نورفوك وميرل تريد فستان دوقة كِنت. لكن سيكون هناك حاشيةٌ من ٢٠ وصيفةً للعروس، وسيؤدي المراسم جوقةٌ كاملة.»

فقاطعتها ميرل: «في كنيسة سانت مارجريت بالطبع. وسوف يرأسه رئيس أساقفة كانتربري، يساعده بضعة من الصغار.»

فقالت ميفيس موضِّحة: «صغار رجال الدين. بعض الأساقفة والكهنة وما إلى ذلك. سيقود العروس إلى المذبح اللورد عمدة لندن؛ لأنها كونتيسة وأبوها غير موجود. وسوف ترتدي تاجًا من المجوهرات. وسيقام العرس في فندق كورنر هاوس في ميدان لستر، في القاعة الكبرى في الطابق السفلي، حيث اصطحبتنا أمي لتناول الغداء.»

فقالت ميرل بفخر: «قاعة برازييه.»

وأضافت في الوقت نفسه تقريبًا: «لقد قررت كذلك كيف سيكون زفافي. سوف أستعيض عن وصيفات العروس برجال. أوزبرت والسائق الجديد لدى السيدة دالي، والكونت. وسوف يرتدون سراويل ضيقة فضية، مثل لاعبي الأكروبات. ألن يبدوا رائعين؟»

ظلت ميفيس تحدق إلى شقيقتها الذكية بإعجاب لا يخلو من غَيرة، حتى انقضت على الخطأ.

«وصيفات العروس لا بد أن يكنَّ فتيات. لا يمكن أن يكونوا رجالًا.»

«أستطيع إذا جعلتهم يرتدون ملابس فتيات.»

لبثت الفتاتان في جدالهما، فيما سارَت السيدة بلفري مع الرجلَين إلى سيارتهما.

فهمست قائلة: «طالما كنتَ عونًا كبيرًا يا هارفي. تقول جورجيا إنها من دونك تضل. فأرجوك أن تجد شيئًا مشينًا بشأن ذلك الكونت المزعوم.»

فوعدها قائلًا: «بإمكاني على الأقل أن أجري بعض الاستطلاعات السرية. أعرف رجلًا في ستوكهولم، ربما يستطيع أن يخبرني شيئًا من أسراره.»

«شكرًا يا هارفي. أعلم أنك ستثبت أنه مدعٍ وعندئذٍ سيعود كل شيء إلى مساره الصحيح.»

سألها أوزبرت بشيء من الجهد: «ما الذي أخبرتكِ به على وجه التحديد؟»

فأجابته السيدة بلفري: «لم أتلقَّ سوى رسالة قصيرة. وكانت مشخبطة وغير مترابطة، لا تليق بأي كاتب لا سيما هي، مما يثبت أنها لم تكن في حالة طبيعية. قالت إنها خُطبت إلى كونت، وإنه رائع، وإنه سيعود معها هذا الأسبوع. الأرجح أنها هي مَن ستسدِّد ثَمن تذكرته.»

أثناء عودة الشقيقين بالسيارة على الطريق الممتد على الساحل، بحذاء الخط الزاحف لزبد البحر، تحدث أوزبرت إلى هارفي.

«ما رأيك لو أجريت مكالمة لستوكهولم على نفقتي؟ فهذا سيوفِّر الوقت.»

فقال تورش، رافضًا الفكرة ليوفر نقود هذا البطل: «كلا. لقد قررت ألَّا أكتب الرسالة. فمن الأفضل لهذه الأشياء أن تتم مشافهة، بحيث لا يكون هناك شيء ليُستخدم ضدك فيما بعد. وسوف أخبرك في الحال بما سأعلمه.»

وبعد عودة أوزبرت إلى المدرسة بفترةٍ غير طويلةٍ اتصل به شقيقه، لكن لم يكن ما لديه من أخبارٍ يدعو إلى التفاؤل.

«الكونت لا بأس به، في حدودِ ما يعلمه ووكر. لكن معلوماته عنه ضئيلة جدًّا. إنه يُسافر أغلب الوقت، لكن لدَيه جزيرة في مكانٍ ما. ووضعه المالي جيد. فهو يصرف ببذخٍ ولا يُدان مطلقًا. كما أنه يبدو ذا شعبية.»

مضَت برهة صمت قبل أن يأتيَ صوت أوزبرت عبر الهاتف.

«قد يكون ووكر مطمئنًّا لكنني لست كذلك. سوف أذهب إلى هناك يوم الأحد، وأتمعن في أمور هذا الرجل المثالي. مهما كانت الأدلة على جدارته، فإنها ستخطو خطوةً في الظلام.»

الفصل الثامن

لمس الخشب

توجَّه الأخوان تورش مسرعَين إلى الساحل، في الأسبوع التالي، متحليَين بتفاؤل، كان الطقس مسئولًا عنه إلى حدٍّ ما. فقد غطَّت السماءَ بكثافة سحبٌ بيضاء خفيفة، ظل يخترقها باستمرار شعاع مهتز من الضوء. وظهر خط فضي علامةً على التقاء الأفق والبحر، كأنه جير مخفيٌّ يلهو على السهل المتموج من المياه. كانت قبة السماء بلا ريح أو لون، تحمل وعدًا بالإثارة، مختبئًا وراء لغز اتساعها الغامض.

وعند اقترابهما من الكوخ، رأيا جماعةً واقفة عند البوابة للترحيب بهما. كان الكونت هو الأبرز بينهم — متألقًا في سروال أبيض ثلجي — وقد التمع شعره الأشقر في السطوع المؤقت للشمس.

وكان على جانبَيه، ميفيس وميرل، وقد أمسكَت كلٌّ منهما بذراع. ارتدَت كلٌّ منهما فستانًا أبيض عاري الظهر وقبعة ضخمة متدلية، مما جعلهما تبدوان كأنهما ضلَّتا الطريق من أحد شواطئ أوروبا. كانت الاثنتان قد اختلستا مساحيقَ التجميل الخاصة بأمهما، إذ بدا أنف ميفيس في وجهها المسفوع من الشمس مثل لحم مقدَّد أبيض، في حين كانت ميرل الأحذق قد وضعَت البودرة لركبتَيها.

وهكذا لوَّحتا بيدَيهما الأخريَين لزائرَيهما، لكنهما لم تُقدِما على الانطلاق نحو أوزبرت كما اعتادتا.

همس أوزبرت إلى شقيقه: «لقد استغنين عني. شيءٌ ما يخبرني بأنني لن أصير وصيفَ عروس جميلة بملابس ضيقة فضية.»

فتمتم هارفي، وهو غضبانُ مُحنِق: «يا لهما من تافهتَين!»

وحين تقدَّما من البوابة، تولَّت ميفيس التعارف شاعرةً بانتصار: «أقدِّم إليكما الكونت.»

فقالت ميرل مبتهجة، وهي تدُس ذقنها الصغير في عنق الكونت: «إننا نناديه باسم «جوستاف»».

فقال مهددًا: «إذا فعلتِ ذلك ثانيةً فسأعاقبكِ. فإنني لا أقبله إلا من فرسي المفضَّلة.»

ثم مدَّ يده مبتسمًا ابتسامة ترحيب.

«تورش، كم يسرني أن أراك ثانيةً يا عزيزي. هل هذا شقيقك الذي سمعت عنه كثيرًا؟ وكل ما سمِعته عنه حسن. قطعًا. إنني في غاية السرور للقائك ورؤية الحقيقة بنفسي.»

وواصل الدردشة بأسلوب ودي، كأنه يجدد أواصر صداقة قديمة وعزيزة. وكان أسلوبه بسيطًا جدًّا وغير متكلف، حتى إن أوزبرت انجذب إليه، على الرغم من تحامله عليه. وحتى هارفي تراخى قليلًا، وإن كان لاحظ أن بصر الكونت كان ينزع أكثرَ إلى التركيز عليه، بدلًا من التوجُّه لشقيقه الأكبر حجمًا.

قاطعت ميفيس الحديث، قائلة باختيال: «لديَّ ما أخبركم به. إنني غيرى من ميرل.»

فأفصحت ميرل: «وأنا غيرى من ميفيس.»

ثم تابعت ميفيس وقالت: «كلتانا تريد الزواج من جوستاف. وإنني لن أتحدث مع ميرل مرة أخرى.»

«وأنا سأكتب رسائل إلى ميفيس.»

على الرغم من تهديداتهما فقد كانتا تبتسمان بودٍّ كلٌّ منهما للأخرى، بما يدل على أنهما كانتا مزهوتَين عمومًا بالتنافس الجديد بينهما.

أما تورش فقد تملَّكه الاشمئزاز من تصرفاتهما السابقة لسنهما، لكنه كان أمينًا بما يكفي ليقر بأنه كان سيبتسم مثل عمٍّ طيب، لو كان أوزبرت هو مصدر غيرتهما. لكن لم تمضِ سوى دقيقة حتى استاء لمعرفته بأن ثمة خبثًا خفيًّا أمكنه فعلًا أن يعكر الصداقة بين الشقيقتَين الصغيرتَين.

كان هذا جليًّا حين دسَّت ميرل ذقنها باستفزازٍ في عنق الكونت، قبل أن تفرَّ سريعًا إلى مسار الحديقة، وهي تصيح مطلِقة ضحكات البهجة.

فصاح الكونت وهو يجري وراءها: «سوف تنالين العِقاب إذن.»

فصاحَت، منطلقة من الباب الأمامي المفتوح: «لن تلحق بي.»

فقالَت ميفيس: «سوف يلحق بها.»

كان في صوتها نبرة تهكُّمٍ كالكبار حتى إن تورش قد اندهش. بيد أنها ولحسن الحظ نسيَت تذمُّرها؛ إذ راحت تثرثر أثناء توجههم للمنزل.

أسرَّت إليه قائلة: «بات كل شيء عجيبًا. لقد صار جوستاف محورَ كل شيء. فإننا صرنا نتناول الغداء بدلًا من العشاء، ونتناول الشاي في الصالون ومعه صحون. وثمة طرفة كبيرة لا بد أن أحكيَها لك. لقد سأل جوستاف أين الحمَّام الخاص به. إنه يعتقد أن لكل شخص حمامًا كاملًا خاصًّا به. هل تتصور ذلك؟»

فقال تورش مقترحًا: «عنده البحر، إذا كان حجمه الكبير يكفيه.»

«صحيح، إنه يسبح مرتَين. فهو سبَّاح ماهر، وكسب كل الجوائز التي تتخيلها. إنني أحبه، لكن بوجوده ارتبك كل شيء. فلم تَعُد ميرل تلعب لعبة المنازل بأمانة الآن؟»

«منازل؟ ماذا تقصدين؟»

«أوزبرت يعلم. إنها لعبة نلعبها جميعًا. فإننا كل صباح نتصفح الجريدة وتختار كلٌّ منا منزلًا. لكن أمي تقول إننا ينبغي ألَّا نختار منزلًا يحتاج إلى الكثير من الخدم؛ لأننا لن نتخذ أكثر من اثنين. هذه هي القاعدة، واللعبة تفسد إذا لم نلتزم بالقواعد.»

فقال تورش مخمِّنًا: «أعتقد أن ميرل قد سمعت الكونت وهو يتحدث عن قلعته، فاغترَّت بكلامه.»

«حسنًا. لقد اختارت اليوم قصرًا في الريف، به من الحجرات ١٤ حجرة وكل المرافق المعتادة. كان ذلك بعد أن اخترت شقة متكاملة إيجارها ٩٥ جنيهًا في السنة. لكنها قالت إنها ستستضيف الأصدقاء طوال الوقت، وكلٌّ منهم سيقوم بعمله. ليست هذه أمانة؛ لأنها تعلم أننا ليس لدينا أي أصدقاء.»

فقال أوزبرت يذكِّرها: «سوانا.»

«لم أقصدكما. وإنني في غاية القلق. لا أعلم كيف سنملأ كنيسةَ سانت مارجريت من أجل العُرس، من دون ناس.»

فقال أوزبرت مقترحًا: «لا بد أن تدعي جمهورَ أمكِ.»

سرَّه أنها ابتهجت مرة أخرى؛ إذ كان يهوى ميفيس خاصة. فقد كانت طفلة عطوفًا وتلقائية، مُحبة للحيوانات، وذات قلب غاية في الرقة، على الرغم من زهوها وصخبها الخادعين. وبسبب شخصيتها هذه، كانت كثيرًا ما تقع في مآزق تتحاشاها أختها الأوسع حيلةً ميرل.

وما إن دخلا الصالة، حتى رأيا أولَ دليل على «العجب» الذي كان وَصْف ميفيس للتغيير. فقد أُزيلت فوضى القبَّعات والمعاطف، بينما وُضع على صندوق قديم من السنديان مزهرية ورود فاخرة، بدا واضحًا أنها جاءت من متجر لبيع الزهور.

لمح الاثنان من خلال الباب المفتوح لحجرة الطعام المربيةَ وهي تجهز الطاولة بأفضل أدوات المائدة الفضية والأواني الخزفية. كانت الآنسة جونز فتاةً عادية في أواخر العشرينيات، ذات وجه شاحب وعينين داكنتَين برَّاقتَين. وكان الانطباع المرسوم على وجهها عادةً بالحزن بسبب الصمم، الذي قضى على أملها في أن تصير مغنية محترفة.

صاحت ميفيس: «أوزبرت هنا يا جَدتي.»

نزلت السيدة بلفري بتهور على السُّلم غير المغطَّى، محدثةً جلبة كأنها في عجلة لتتشاور سرًّا مع حلفائها. فلاحظ تورش، المنتبِه للصغائر، أن شعرها كان مصففًا في تموجات ثابتة، وأنها كانت ترتدي فستانًا مسائيًّا رسميًّا.

سألتهما بأنفاس لاهثة: «هل ستمكثان للغداء؟» بدلًا من تأكيدها المعتاد أنهما سيتناولان معهم المتاح من الطعام.

وبينما كانا يقبَلان دعوتها، حدثتهما بصوت خفيض.

«كان لا بد أن أراكما في الحال. سأظل في غاية الخجل حتى أجد تفسيرًا … لقد دفع نفقاتِهما هما الاثنين. هل تذكران حين قلت إن جورجيا ستضطرُّ إلى دفع أجرتِه؟»

عندئذٍ أدرك تورش أن التحالف الثلاثي قد انتهى وأنه تبنَّى قضية خاسرة. ارتسم على وجهه تعبير المقاومة إذا تعمَّد رفعَ صوته عن المعتاد وهو يتحدث.

«لقد حصلت على ذلك التقرير الذي أمرتِ به.»

خمد شعوره بالاستياء لأجل أخيه قليلًا؛ إذ خفَّف منه شعورها بالحرج.

قالت ترجوه: «لا، أرجوك. لا أريد سماع كلمة واحدة. كان تصرفًا فظيعًا من جانبي، لكن …»

فقال تورش متممًا: «لكنكِ لم تلتقي به حينذاك.»

«أجل.» ولما شعرت بالراحة باعترافها اعتصرت يدَ أوزبرت. «إنه لَحسنٌ أن يحتشد الأصدقاء حولك في وقتٍ كهذا. أستأذنكما أن أذهب إلى الآنسة جونز لأطلب منها تجهيز مكانَين آخرَين.»

قال تورش معلقًا: «لقد سيطر عليهن جميعًا. إنه سريعٌ في سعيه.»

لم ينتبه أوزبرت له؛ إذ راح يحدِّق في السُّلم. فقد كانت جورجيا نازلةً إلى الرَّدهة، على مهَل، كما لو كانت تشكُّ في الطريقة التي ستُستقبل بها. كان وجهها متوردًا وهي ترمق أوزبرت بنظرةٍ شبه خجلى قبل أن تبتسم له. وفي الحال ذكرت خطوبتها، وإن بدا صوتها المستكين كأنه يعتذر عنها.

«هل سمعت أخباري؟ لم أتوقَّع شيئًا من هذا القبيل حين ذهبت في تلك العطلة. بل إنني لم أُرِد الذهاب. لكن أنت يا هارفي مَن جعلني أذهب. لكن يبدو أن الصُّدف دائمًا ما تحدث لي.»

تمتم تورش قائلًا: «مبارك»، بينما شد أوزبرت على يدها.

وقال بصوت منخفض: «المهم أنكِ سعيدة. هذا كل ما يهم.»

«إنني في غاية السعادة. لكنني مشوَّشة بعض الشيء. سيسرني أن أستقر وأعود إلى الهدوء مرة أخرى. إننا ذاهبين للعيش على جزيرة، على بُعد أميال من كل شيء.»

«ومتى ستتزوجين؟»

«قريبًا، لكنني لا أعلم متى. لقد تركت القرار لجوستاف.»

«تبدين مستسلمة للقدَر.»

«صحيح، أشعر كأنني مثل ريشة في مهب الريح. لن أعلم إلى أين أنا ذاهبة حتى أجد نفسي مستقرةً على الأرض ... هلا نرى أَجُهِّز الغداء أم لا؟»

مكثوا منتظرين بلا غاية حتى دخل الكونت حجرةَ الطعام وقد تعلَّقت ميرل بذراعه. كانت قد بدأت تفتعل الحركات، لتغيظ منافستها، حين عالجت ميفيس الخلاف بينهما.

«لا بأس يا ميرل. يمكننا دعوة جمهور أُمِّنا بأكمله إلى الزفاف.»

عجَّ الغداء بالصخب، وإن كان تورش لم يسهم بالكثير لإنجاحه. ولما ظل منتبهًا للتفاعل بين الجلوس، لاحظ أن أوزبرت قد انجذب إلى حديثٍ ودي، موضوعه الألعاب الأوليمبية، وهو أول موضوع وقع عليه اختيار ضيف الشرف. كما أنه لاحظ كيف أن الكونت، عند المقارنة بين بطولات كلٍّ منهما، كان دائمًا يتعمَّد أن يظهر بمظهر الخاسر. فقد أقرَّ بكرم أخلاق: «أنت أفضل مني دائمًا. ماذا كان أفضل زمن سجَّلته في مسافة نصف الميل؟»

كذلك لاحظ تورش صمت جورجيا، وأنها بدت مكتفية بالإنصات، كأنها منوَّمة مغناطيسيًّا من تأثير حديث حبيبها المتدفِّق. وقرب نهاية الوجبة فتح الكونت زجاجة شمبانيا، أقر بأنه هو مَن جاء بها.

قال الكونت معتذرًا للسيدة بلفري: «أرجو أن تعذريني على شرائها من إبسويتش. لكنها مناسبة خاصة. وسوف أقترح أنا النَّخْب الأول. وقد لا يكون النخب الذي كنتِ تتوقعينه.»

هكذا قام واقفًا، حاملًا الكأس في يده.

وقال: «إن بطولة عزيزتي جورجيا ليست بحاجة لمديح مني. فكلكم تعلمون ما فعلَته. لكنني أود أن أذكِّركم أن هذا أضحى ممكنًا بفضل بطلة ثانية. ربَّة بيت بطلة قامت بكل الواجبات المنزلية التي لا تُقابل بالشكر ... إنني أقر بالفضل لسيدة بالغة الشجاعة. وهي أمها.»

ثم انحنى للسيدة بلفري، التي راحت تحدق في الفراغ باللامبالاة غير الطبيعية، التي تنتاب أولئك الذين يستمعون إلى مديحهم على الملأ. كانَت تحاول التغلُّب على الانفعال، إذ كانت المرة الأولى التي يقرُّ فيها أحدٌ بالخدمات التي قدَّمتها خلال أسوأ فترة من حياتها.

فقد تولَّت رعاية المنزل، هي التي لم تعتَدِ الأعمال المنزلية — إلى جانب تولي مسئولية طفلتَين — لتتيح لجورجيا الوقتَ لتقوم بواجب عائل الأسرة. وقد تبيَّن أنها مهمة شاقة، ومرَّت عليها أوقات شعرت فيها بقليل من السخط لغياب عبارات التقدير.

وقد حدَّث تورش نفسه في ضيق: «لماذا لم يخطر لنا أن نفعل ذلك، بدلًا من أن يقوم به هذا الشخص الجديد؟»

وهكذا شربوا النَّخب بحماسة تدُل على شعور بالذنب، وقد أُدينوا بافتقارهم إلى الخيال والتعاطف مع الآخرين.

إذا كانت السيدة بلفري حظيت بالتبجيل في الغداء، فقد دخلت الآنسة جونز دائرةَ الضوء في عصر ذلك اليوم، حين التمس الكونت منها أن تغني. فعزفت افتتاحية موسيقية لأغنية ثم توقفت لتخاطب مستمعيها.

فقد حذَّرتهم قائلة: «قد أشذ عن النغمة. فقد بِت أفعل ذلك أحيانًا. وهو ما يثير الضحك حقًّا؛ لذلك إذا فعلت، فتذكروا أنني لن أبالي إذا ضحكتم.»

لكن لم تقع الكارثة وبدا واضحًا أنه فُتن بصوتها الجميل. فقد أغمض عينَيه لينفرد بصوت المغنية دونًا عن أي شيءٍ آخر، ولم يفتحهما حتى انتهت الأغنية.

وقال: «أود أن تكوني معي على جزيرتي، وحسبك أن تغني لي.»

هنا بان على وجه جورجيا الحالم تعبيرُ اليقظة، الذي كان مألوفًا بدرجةٍ كبيرةٍ لدى وكيلها.

فقد قالت: «إنها لفكرة سديدة. عندئذٍ ستستطيع البنات متابعةَ دروسهن. هل يروق لكِ أن تقضي عطلة في السويد يا آنسة جونز؟»

انفرجت شفتا الفتاة بلهفة لتتكلم، لكن سبقها الكونت.

فقد قال: «يسرني ذلك لكنه مستحيل. فليس لدينا حجرات نوم كافية.»

فقاطعته ميفيس قائلة: «لكنك قلت يا جوستاف ...»

«لا، تلك كانت قلعتي. إنني في غاية الأسف يا آنسة جونز، إنها لخسارة كبيرة لي.»

حين انتهَوا من تناول الشاي — «في حجرة الاستقبال، من دون صحون» — همَّ الشقيقان بالرحيل ... متحيناً الفرصة، مكث أوزبرت ليتحدث مع جورجيا على انفراد.

حيث سألها: «هل ما زلتِ تأخذين بالفأل والطِّيرة؟»

فأجابته: «بل وأكثر مما كنتُ يومًا.»

«جيد. كنت أرجو أن تعجبكِ هذه.»

وتصيَّد من جيبه سوارًا خشبيًّا. كان السوار مكونًا من كرات خشبية منتظمة في خيط مطاطي، وكل كرة مزيَّنة برمز فضي من رموز حُسن الطالع: حدوة حصان، وترقوة طائر، وما إلى ذلك.

قال لها: «ارتديه فسيجلِب لك حُسن الحظ كأنكِ «تلمسين الخشب»».

«سوف أرتديه دومًا إذن.»

ووضعته في معصمها، ثم تحدثت بشوق.

«ما رأيك في الكونت يا أوزبرت؟»

تردَّد أوزبرت قبل أن يجيبها، تردُّدًا يعود إلى حدٍّ ما إلى محاولته السيطرةَ على عضلات وجهه.

قال أوزبرت: «لقد ارتضيت بالنصيب. فقد خسرتكِ يا جورجيا. وهو أمر مؤلم أشدَّ الإيلام. وأسوأ ما في الأمر أنني إنما لم أنتظر إلا لأمهلك الوقت لتسوية الوديعة ... والآن لا يسعني إلا أن أتمنى أن أكون خسرتك لصالح رجل أفضل مني.»

كان يتحدَّث بصراحة تامة. فقد شعر فعلًا بأنه في غاية الضآلة بجانب شخصية الكونت، حتى إنه تاق إلى العودة إلى المدرسة، حيث يستطيع على الأقل تحمُّل المقارنة مع طلاب المدرسة.

وبعيدًا عن إحساسه بالدونية، فإنه لم يستطِع أن يرى سببًا للشك في نجاح الزواج، بما أن أفضل مميزات الكونت هي أنه لا يضمِر دوافعَ خَفية. إن أوزبرت المحب العاشق، اعتبر أنه من المسلَّم به أن يكون سِحر جورجيا النادر، وجمالها الغامض الخيالي، شكلًا وروحًا، كانا ظاهرَين لزوجها المستقبلي، مثلما تجلَّيا له دائمًا.

لذلك فقد خلا باله من الحَيرة التي انتابت أخاه، والتي زادتها ملاحظات الآنسة جونز. فبينما كان تورش يشاهد الكونت وهو يطارد ميفيس — ليعدِل بين المتنافستَين — لاحظ

أن المربية هي الأخرى كانَت من المتفرجين على هذا المشهد. فكانت شفتاها مضمومتَين وعيناها في غاية الحزن، حتى إنه حاول أن يُظهِر لها بعض التعاطف.

فقال لها: «لا بد أنكِ ستفتقدين السيدة يو.»

فقالت مفصحة: «لا أستطيع أن أتخيل كيف ستمضي بي الحياة من دونها. فإنها دائمًا في غاية اللطف معي.»

«فلتنظري إلى الجانب المضيء. إنه في صالح تلميذتَيك. لا بد أن يسرَّكِ أن الكونت محبٌّ لهما.»

فقالت بانفعال: «إنه ليس محبًّا لهما. فإنه لا يقبِّلهما، ولا يُجلِسهما في حِجره، كما يفعل شقيقك. فهما اللتان تُقبِلان عليه، وهو إنما يدعهما تفعلان ذلك.»

لم ينطِق تورش بتعليق.

لكنه سألها بفضول: «ما الشيء الذي حداكِ إلى إعطاء تلك الخُطبة القصيرة غير اللازمة، قبل أن تغنِّي يا آنسة جونز؟»

فقالت: «لم تكن أنت المقصود. قلت ذلك لحماية السيدة يو. فإنني لم أُرِد أن تستاء من أجلي، في حال ضحِك الكونت مني. فإنني متأكدة أنه كان سيضحك.»

وحين استدعاه نفير تنبيه، ترك تورش المربية وهُرع نحو السيارة. ومع انطلاقهما، التفت الشقيقان إلى الخلف مرسلَين البصرَ نحو الكوخ.

كان الكونت واقفًا باسطًا إحدى ذراعَيه حول جورجيا، فيما تعلَّقت ميفيس بالذراع الأخرى. كادَت ميرل تَخطَف اللقطة؛ إذ تسلَّقت البوابة خلفهم — مثل مَلاك مُحلق في السماء — لتضع ذقنها على شعر الكونت وتطوِّق رقبته بذراعَيها.

بعد أقل من ثلاثة أسابيع، تلقَّى أوزبرت صورةً من السويد، ربما كانت نسخة طبق الأصل للمجموعة نفسها، غير أنهم كانوا متخففين من ملابسهم. لكنهم كانوا لا يزالون مترابطين ومبتسمين ومواجهين للشمس.

وكان الكونت قد كتب رسالةً على إطار الصورة.

تقول الرسالة: «سعداء رغم أننا متزوجون.»

الفصل التاسع

التوجُّس

بدا لجورجيا أنها لم تكد تدرك أنها رجعت إنجلترا، حتى سافرت مرةً أخرى. كان ثمة قسوة في اقتلاعها الثاني من أصولها، لا سيما أنها ظلَّت مغروسة في مكان واحد طَوال حياتها. وكما قالت أمها، مصيبةً في قولها، إنها كانَت مرتبطةً بمسقط رأسها بالعديد من روابط الانتماء والعادة، حتى إنه لا مفر من الألم الناشئ عن تمزُّق هذه الروابط.

حين وقفت جورجيا على سطح الباخرة السويدية لويد، في انتظار أن تبحر بها، شعرت كأنها خيالٌ وتكاد تكون طيفًا، كأنها قد ركبت بالخطأ سفينةَ الهولندي الطائر، وحُكم عليها بالترحال الأبدي.

فسألت نفسها: «تُرى متى سأرى إنجلترا مرة أخرى؟»

وقد كان يومًا متعبًا، على الرغم من أنه لم يستلزم منها أيَّ مجهود غير تناول غدائها في مطعم ريتز. وقد أدار الكونت الموقفَ بأسلوبه الراقي المعهود. فقد نُقلت من الكوخ إلى لندن، ومن هناك — في قطار مخصوص — إلى سانت بانكراس ثم إلى تيلبوري، بمعزِل عن الالتزام بمواعيد القطارات والاتصالات على ما يبدو.

وقفت البنتان بجانبها — في أبَّهة بمعاطف السفر الجديدة المصنوعة من وبَر الإبل — تتفرجان بحماسةٍ على المشهد المتحرك. وبما أنها استقوت بصحبتهما، فإنها لم تستطِع أن تدرك إحساسها بالوحدة وهي منحنية على متن السفينة. شعرت بأنها مفعمة بأحاسيس التوجُّس، كأنها باقتلاعها من بيئتها الطبيعية، إنما تقدِم على خطوة خطأ.

وبعد قليل انضم إليهن الكونت، ليثبِّته في الحال إلى سطح السفينة مرساتان توءمان: ميرل وديفيس. أمعن الكونت النظر في جورجيا، وفي الحال أعرب عن تقديره لحسِّها الأدبي.

فقد سألها: «هل تسجلين ملحوظات ذهنية؟ تلتقطين كل تفصيلة؟ حسنًا، ما هو انطباعكِ؟»

فأجابته باقتضاب: «الارتباك.»

«أهذا كل شيء؟ ماذا عن الإثارة والترقُّب؟ هل نسيتِ أننا سنسافر من سانت جوتنبرج إلى ستوكهولم عن طريق قناة جوتا؟ فلتتخيليها. إنها ممرٌّ مائي رائع من بحيرات وأنهار شاسعة أوصل الإنسان بعضها ببعض. ستجلسين على سطح السفينة وتشاهدين الحقول الخضراء تمرُّ بجانبك. وأحيانًا تضيق القناة حتى ليمكنكِ أن تلمسي أوراق الأشجار.»

فقالت جورجيا بأسًى: «يبدو الأمر باعثًا على السكينة.»

«لا، سنحظى بالكثير من المتعة. مع حلول المساء، يوجِّه القبطان مصابيحه الكشافة نحو الأحبَّاء المتغازلين الواقفين على المسار المخصَّص لقَطْر المراكب. إنهم يفِرُّون، لكن المصابيح تتبعهم، فنضحك جميعًا منهم.»

وحدهما الطفلتان شاركتاه صيحات المرح.

ثم تابع كلامه قائلًا: «وبعد ذلك نصل إلى ستوكهولم. أجمل مدينة في أوروبا. فينيسيا الشمال.»

فتمتمت قائلة: «كنت أعلم أنك ستقول ذلك.»

«عفوًا؟ ستوكهولم! هناك الكثير لتريه هناك، قديم وحديث، حتى إنكِ ستحتاجين أسابيع حتى يصير لديكِ محضُ معرفةٍ قليلةٍ بها. وبعد ذلك، سنمرُّ على الألف جزيرة، وصولًا إلى منزلنا.»

نظر الكونت إلى ساعته وفي الحال تبدَّل أسلوبه فصار عمليًّا. «حان الوقت لتناول شراب. لا بد أن تجدن كبائنكن. لا تغيرن ملابسكن من أجل العشاء.»

وبينما هم يشقُّون طريقهم في الممرات المزدحمة، شعرت جورجيا بالإرهاق من ضيق المساحة. بدت الدهاليز ضيقةً أكثر من اللازم والتقسيمات مربكةً للغاية، حتى إنها أيقنت أنها لن تستطيع أبدًا أن تعرف طريقها في السفينة. وحين بلغت كبينتها، التي كانت مجاورة لكابينة ابنتَيها، راحت تنظر حولها في انزعاج.

وقالت لنفسها: «لا يوجد مكان لإفراغ الحقائب.»

غلبتها الحرارة وأوجست خيفةً من رُهاب الأماكن المغلقة، فراحت تحدِّق بعجز إلى حقائبها، غير قادرة على أن تتذكر أيها تحمل أغراضها المسائية.

وإذ بها تُدرك السبب الكامن وراء عجزها.

فقد قالَت لنفسها: «أنا لست مضطرةً إلى إفراغ حقائبي. كنت سأرتكب خطأً فادحًا. لا يزال أمامي الوقت لأعود إلى الشاطئ. لا بد أن أذهب الآن.»

وبينما هي تحاول استجماع إرادتها، اندفعت ميفيس إلى كبينتها.

وقالت لاهثة: «لقد ربحت القرعة. وحصلت على الفراش العلوي وبذلك سأتسلق سُلمًا عند الذهاب للنوم. هذا أفضل شيءٍ حدث لي طَوال حياتي.»

ورغم أنها كانت الخاسرة، فإن ميرل هي الأخرى بدَت متوهجةً وهي تختلس النظر من مدخل الباب.

فقالت، غير مبالية بأن السفينة كانت واقفة في المرفأ: «أحب حياة المحيط. تعالَي يا أمي لتناول العشاء. سأدُلك على الطريق.»

بوعي ضعيف أنها واقعة في أزمة نفسية، تركت جورجيا نفسها لقيادة ابنتَيها المتحمستَين. كان الكونت في انتظارهن عند مدخل صالة الطعام. لاحظَت جورجيا شيئًا في مظهره قبل أن تصيح ميرل.

«إنك تضع عينًا زجاجية.»

نظرت جورجيا إلى العدسة الواحدة المثبتة على عينه اليمنى.

وسألته: «هل أنت قصير النظر؟»

فأجابها: «نظري ممتاز. لكنني دائمًا ما أرتدي هذه العدسة وأنا في ستوكهولم؛ لأنها تضفي مَسحة من الوجاهة. فأنا من عِلية القوم هناك؛ ومن ثَم أحاول الحفاظ على مكانتي. فالمظاهر أهم شيء … والآن لا بد أن تكوني مثل أهل البلد وتحتسي كأس سنابس.»

«وما هو؟»

«كوكتيل. لكن يجب تجرُّعه دَفعةً واحدة، هكذا.»

لم تستطِع جورجيا أن تحذوَ حذوه، فشربت الكأس سريعًا. لم تكن معتادةً المشروباتِ المنبهةَ، حتى إن السنابس — وهو كحول خالص، منكَّه بروح الكراوية — أثَّر على رأسها وأكمل حالة الشرود التي كانت فيها.

جلست جورجيا إلى مائدة مستديرة، على كرسي دوَّار تحرَّك معها، وجعلت تحدق بتوهان إلى حشدٍ من الركَّاب كانوا يتناولون عشاءهم وقد بدا أنهم يدورون هم الآخرون. كان من حولها وجوه سعيدة — سواء أكانوا زوارًا متلهفين أم مواطنين عائدين إلى بلادهم — لكنها لم تشعر إلا بالضوضاء والحرارة.

وإذ بميرل تطلق صيحةَ فرح.

«إننا نتحرك.»

عند سماع كلماتها، اندفعت الدماء في رأس جورجيا. فهبَّت واقفة، لكنها عادت إلى الجلوس ثانيةً. فقد فات الأوان لتغادر السفينة.

مع هذا الإدراك، تحوَّل بقيةُ العشاء لما يشبه الكابوس. كانت جالسةً بجوار جورجيا مُدرِّسةٌ سويدية، راحت تحكي لها عن السويد، متحدثة عن تقدُّمها في الفنون والحِرف، ونظامها التعاوني، وشققها النموذجية المخصَّصة للعمال. ومع أنها كانت تتحدَّث إنجليزيةً تكاد تخلو من الخطأ، فقد استخدمت كلمة «الميلاد» وهي تقصد «معدَّل المواليد»، مما جعل جورجيا تتساءل عما إذا كان واجبًا عليها أن تصحِّح لها هذه الهفوة.

كانت لا تزال تتفكَّر في المسألة، والصوت يأتيها رتيبًا مثل محركٍ لا يتوقف عن الدوران، فيما شاهت كل الوجوه في مجال بصرها وقد صارت غير واضحة المعالم. وبدأ جفناها يرتخيان حتى انتبهت على صوت الكونت.

«لنصعد إلى السطح.»

كان من المريح أن تخرج إلى الهواء الطلق، وإن كان الظلام دامسًا لحد استعصاء رؤية الشاطئ. حدَّثها النسيم المنعش وزيادة حركة السفينة بأنهم في سبيلهم للخروج إلى أعالي البحار. وبينما هي متكئة على السور، شاهدَت أضواء بلدة ساوثيند تتضاءل إلى نقاطٍ ثم تختفي.

كانت إنجلترا تتلاشى من ورائها.

قالت جورجيا: «لا بد أن أصطحب الصغيرتَين إلى أسفل.»

أفلت الكونت من تعلُّق الفتاتَين به، ووضع ذراعه حولها.

وقال: «فلتصعدي في الحال. فإنني لم أنفرد بكِ بعد.»

«سأوافيك بمجرد أن أستطيع ذلك.»

على الرغم من وعدها، فإنها بعد أن رأت الصغيرتَين في الفراش، شعرَت بأنها مرهقة لدرجة عدم القدرة على الصعود إلى السطح مرةً أخرى. فخلعت ملابسها على عجل، وألقتها على الفراش الخاوي مما زاد من شعورها الطاغي بالفوضى.

ظلَّت مضطجعة مستيقظة مدة طويلة، تستمع لوقع الأقدام والأصوات، والضحك، وكل الأصوات المرحة التي تليق بجولةٍ للاستجمام. بدا أن الناس كانوا يمرون ببابها طَوال الليل، كما ظلَّت ترى وهج المصابيح الكهربائية خارج كابينتها حتى غفت.

حين استيقظَت جورجيا رأت الشمس ساطعةً من خلال نافذتها. كان يومًا بديعًا، حيث البحر هادئ، مثل وادٍ أزرق متغضن. وكان الضوء قويًّا جدًّا حتى إنه كشف عن كل عيبٍ من العيوب الجسدية بوضوحٍ لا رحمة فيه. وحين كانوا على ظهر السفينة، راحَت ميرل — ووحدها بمأمن من هذا الاستعراض للعيوب — تعلن عن هذه العيوب بصراحة مدمرة.

فقد رفعت صوتها لتعلن: «ميفيس لديها شارب»، وهي تحدِّق في الزَّغَب الخفيف فوق شفة شقيقتها العليا. ثم قالت: «لدى أمي ملايين الخطوط الصغيرة حول عينَيها.»

فسألها الكونت بثقة: «ماذا عني أنا؟»

«لديك الكثير من الشعر الرمادي.»

ولكي تخفي إحراجها، غيَّرت ميفيس الموضوع وكشفت عن نزعةٍ وطنيةٍ صريحة. فسألت: «لماذا لا تضع هذه السفينة الراية البريطانية؟»

فقال الكونت مفسرًا: «لأنها سفينة سويدية.»

«لكن البحر كله ملكنا. إنجلترا هي التي تسيطر على الأمواج.»

وبينما هي تتباهى بقوميتها، فقدَت توازنها من شدة الأمواج. فشحب لونها من الغثيان، وهُرعت إلى جانب السفينة.

وبينما كتمَت جورجيا في نفسها ضيقها من ضحك الكونت، فقد أعربت ميرل عن استيائها علانيةً.

وقالت تاركة ذراع الكونت: «ليت أوزبرت كان هنا. إنه حنون.»

تذكَّرت جورجيا بملحوظتها كِياسة أوزبرت وحيلته على الدوام، متى راودت ميفيس عادة الإصابة بالغثيان عند ركوب أيٍّ من المركبات المتحركة.

فسأل الكونت: «ماذا كان أوزبرت سيفعل؟»

ردَّت ميرل: «إسعافات أولية. هل تعلم أن الإصابة بالغثيان بالغة الخطورة؟ فإنك إذا أصابك غثيان ولم تستطِع التوقف وظلِلت مصابًا به بقيةَ حياتك، فإنك عندئذٍ ستموت.»

وكأنه خمَّن سبب صمتها، تحول الكونت إلى جورجيا.

فسألها: «أتفتقدين أنتِ أيضًا أوزبرت؟»

فقالت بجمود: «كان دائمًا متعاونًا في هذه المواقف.»

«تقصدين أن باستطاعته أن يفعل ما قد يفعله أيُّ خادم على السفينة بصورة أفضل. أما أنا فأضحك فحسب ... إذا لم نضحك من دُوار البحر، فسيكون أمرًا مقززًا. لذلك لا بد

أن نجعل منه مادة للهزل ... والآن سأجرب أسلوبي العلاجي على سيدة صغيرة في حالة هستيرية.»

«لكن لا يمكن أن تلومها لكونها تُصاب بدُوار البحر.»

ابتسم الكونت لها بتسامح.

«ماذا حدث لسيدتي الكريمة؟ لقد تحولتِ إلى دُبة غاضبة، تدافع عن صغارها. فلتقرِّي بأنه كان من الخطأ أن نأتيَ بهما.»

«ما كنت سآتي من دونهما.»

«بالطبع. وأنا أيضًا أحبهما. فإن ميرل لديها كل حيل النساء على حداثة سنها. كما أنها جميلة؛ ومن ثَم فإنها تستطيع أن تنجوَ بأفعالها من أي عقاب. أما ميفيس فلديها مشكلة في أعصابها فقط. البحر أهدأ من أن يصيبها بالغثيان.»

ومما جعل جورجيا في خجل أنه أثبت صحة كلماته، حين ظل ما تبقى من الصباح يذرع سطحَ السفينة وميفيس متعلقة بذراعه.

مع أن ميرل أثبتت أنها الأفضل سلوكًا، فقد تعادلتا في الغداء، حين تعرَّفت الصغيرتان أولَ مرة على البوفيه المفتوح. كانت تجربة جديدة أن يُسمَح لهما بالتجول حول مائدة حافلة بألوان من المقبِّلات، ليصيبا منها ما يروق لهما أيًّا كان.

وللأسف حذَت ميرل حذوَ الكونت في اختياراته، وعادت بصحن مليء بسمك سلمون مملح وكافيار سويدي وأنشوجة ورنكة. ولما اتضح أن الأخيرة هي شرائح من الرنكة المتبَّلة، المنقوعة في الخل المُحلى والمنكَّهة بالبصل، فقد دفعت ثمنًا قاسيًا نظير تصرُّفها، خاصةً حين تحداها الكونت أن تأكلها.

وقد أثبتت شجاعتها، لكن على حساب مَعِدتها، وظلَّت ما تبقى من اليوم ساهمة.

بدا لجورجيا أن رحلة العبور قصيرة أكثر من اللازم. كانت مهلة للراحة، حيث بدا كأن الوقت قد توقَّف ما بين فترات، لتناول الوجبات والتحديق في البحر المتألق بأشعة الشمس. فبعد الضغط العاطفي الذي عانَته مؤخرًا كان من المريح أن تتحرَّر من مشاعر الحب، وتركن إلى الركود الذهني، في انجرافها غير الملحوظ نحو المستقبل.

ومع قدوم الليل، ازداد البحر هياجًا وبدأت السفينة تتأرجح. وحين نزلت إلى كابينتها وجدت أن نافذتها قد أُغلقت بإحكام. ولدى رؤيتها جيشان مياه البحر المكفهرة المحمَّلة بالزَّبد، في النور الصادر من نافذتها، اتَّجهت أفكارها إلى ميفيس.

فأسرعت إلى الكابينة المجاورة، حيث كانت الخادمة منهمكةً في إخراج الأواني بطريقةٍ مزعجة. وكانت ميرل التي استولت على الفِراش العلوي المشتهى، منحنيةً على حاجزه لتشاهدَ ما يحدث، فيما كانت ميفيس شاحبة من الترقُّب.

ولدى رؤيتها أمَّها بلَّلت شفتيها بتوتر.

وسألت أمَّها قائلة: «أماه، هل سينتهي البحر حين نصل إلى السويد؟»

بدلًا من جورجيا، أجابتها الخادمة التي أرادت التدرُّب على اللغة الإنجليزية وقالت: «لا. إنه يمتد ويمتد.»

نحبت ميفيس وهي تقبض على ذراع جورجيا.

«هيا بنا نعود إلى ديارنا. لا تذهبي إلى جزيرة الكونت. فلن تكون آمنة والبحر يحيط بها من كل جهة.»

«لا يا أماه، إنها ليست آمنة.» شاركت ميرل في التنبؤ بالهلاك، كأن عدوى الحالة الهستيرية التي ألَمَّت بشقيقتها قد انتقلت إليها. «لا بد أن نعود إلى الديار في الحال. ثمة طريق للعودة، طريق بريٌّ بالكامل، ليس به إلا قطعة صغيرة جدًّا من البحر يمكننا القفز فوقها. لقد أرتنا الآنسة جونز إياها على الخريطة.»

خجلى من الكشف عن مشاعرها، حاولت جورجيا أن تجعل ابنتَيها تضحكان بأن ألقت مزحةً بائسة.

«لقد أكلت ميرل الرنكةَ فصارت مرتبكة. إنني خجلى من طفلتَي البكَّاءتَين.»

وعلى الرغم من كلماتها فإن قلبها كان مثقلًا بالخوف من المستقبل. فتذكرت المأساةَ التي وقعت مؤخرًا حين ماتت زوجة مزارعٍ محلي في حادث تحطُّم طائرة. كانت المرة الأولى التي تسافر فيها جوًّا، حيث قيل إن أولادها ظلوا يتشبَّثون بها، وهم يبكون بكاءً يثير الشفقة ويترجونها ألَّا تذهب.

وقد استحوذت تلك القصة على تفكيرها؛ إذ شعرت بقبضة ميفيس الخانقة حول عنقها. وقالت لنفسها إن الأطفال لديهم الغريزة نفسها التي تحذِّر الحيوانات من المصائب الوشيكة.

إنهما تعلمان أن هذه الرحلة ستنتهي بكارثة.

شعرت بأنها أمام فرصتها للهروب، للمرة الأخيرة. وفي حالةٍ من التردُّد البائس، اضطجعت ساعات مستيقظةً، تستمع لاصطدام الأمواج بالسفينة ودوي المحرِّك. وبينما

هي ترهف السمع لتلتقط كل صوت، ظلَّ يعذبها وَهْم سماع أوركسترا مصاحبة لدوي المحركات، حيث كانت دائمًا تجد نفسها على وَشْك سماع موسيقى خافتة.

كانَت السفينة كلما تمايلت استغرقت جورجيا في حالةٍ من التوجس المتوتر، حيث تكتم أنفاسها حتى تعود السفينة إلى وضعها الصحيح. ولارتياعها من هاجس الموت في البحر، تركت جورجيا نفسها لتتأثر بخوف صغيرتَيها.

ومع طلوع الفجر المعتِم عزمَت على أن تقتصر رحلتها على السويد، وتعود إلى إنجلترا برًّا.

وقالت لنفسها: «لن أذهب إلى الجزيرة.»

الفصل العاشر

السويد في يوم

في اليوم التالي ذهبت جورجيا إلى الجزيرة، بإرادتها وبناءً على طلبها. وقد أدركت سخرية الموقف لاحقًا حين تذكَّرت الظروف التي أفضت إلى قرارها. فبعد أن غيَّرت خطَّتها لتناسب ابنتَيها، كانتا هما مَن حرَّضتاها بطريقٍ غير مباشرٍ لتعود عمَّا رتَّبت له.

كانت قد استيقظت بعد ساعاتٍ قليلةٍ من النوم؛ لتجد السفينة ثابتة كأنها فندق في مدينة سانت جوتنبرج. وحين نزلت إلى قاعة الطعام، كانت أسرتها على وَشْك الانتهاء من الفطور. وبدا الكل في حالة معنوية ممتازة، مما جعلها تشعر بخجلٍ طفيفٍ من مخاوفها الأخيرة، خاصةً أن أحدًا لم يتحدَّث عن اضطراب السفينة بصفةٍ رسمية.

بل إن الخادمة المسئولة عن الطعام انتقدتها حين ذكرت هي أن الليلة شابها الاضطراب.

فقد صححتها قائلة: «محض حركة قليلة. إنه لمن المستحبِّ أن يشعر المرء بأن السفينة حية. فلا أحد يحب الذهاب في جولة بحرية في حوض استحمام.»

فقال الكونت متفقًا معها: «بالتأكيد. فإن أحواض الاستحمام بالغة الخطورة.»

ثم غاب البريق عن عينَيه وتحدَّث بلهجةٍ جادة.

«هل صحيح ما أخبرَتني به الصغيرتان؟ ألَا تريدين أن تأتي إلى جزيرتي؟»

فقالَت مفسرةً بعجلة: «الأمر ليس كذلك. إنما يبدو أن هناك الكثير لنفعلَه في السويد. ومن الخطأ أن نحاولَ أن نرى الكثير في زيارةٍ واحدة. وسأؤجِّل الجزيرة للمرة التالية.»

«متى؟»

«بعد أن نتزوج ... فالأمر وما فيه أننا ساعتئذٍ سيعرف أحدُنا الآخرَ معرفةً أفضل، وسيكون كلانا قد بات متأكدًا تمامًا من مشاعره.»

«لكن من المهم أن تري الجزيرة وتلقى استحسانكِ أولًا. أرجو أن تكون منزلنا المستقبلي.»

«أعلم ذلك. ولدينا الكثير من الوقت.»

هزَّ الكونت كتفَيه وغيَّر الموضوع.

وقال: «لديَّ خبر سيئ لك. لم نستطِع الحصول على كبائن في رحلة قناة جوتا. فالكثافة شديدة في البواخر هذا الموسم. كما أن البحيرتَين الكبيرتَين — فانرن وفاترن — من الممكن أن تكونا عاتيتَين مثل البحر. وستُصاب ميفيس بالدُّوار.»

تدخَّلت ميفيس في الحديث وقالت: «سنذهب إلى ستوكهولم لنرى المتجر الذي كانت تبيع فيه جريتا جاربو القبَّعات.»

وقالت ميرل مبتهجة: «وسيُرينا جوستاف السيدةَ التي تقفز في الماء وماعز عصور ما قبل التاريخ.»

فقال الكونت موضحًا: «لقد وعدتهما بأن أصطحبهما إلى سكانسن. إنه متحفنا المكشوف الشهير. ستريان هناك المنازلَ القديمة بأثاثها الأصلي وأدوات الطهو، والحيوانات البرية والمستأنسة، والرقصات الشعبية، وغيرها الكثير من الأمور الممتعة.»

إن كان قد شعر بأي خيبة أمل شخصية، فقد أخفاها في خططه من أجل تسلية الفتاتَين. وحتى في رحلة القطار إلى ستوكهولم، ظل رائقَ المِزاج ورابط الجأش كلما أُصيبت ميفيس بالغثيان.

وقال متنبئًا بما سيحدث: «سيصيبها الغثيان أينما ذهبنا في السويد. فسنتنقل بالقطارات والعربات طوال الوقت. من الأنظف الإصابة بالغثيان في البحر.»

في ظل هذه الظروف كان في بلوغ ستوكهولم راحة لجورجيا. ومع أن أفضل طريق للوصول إليها هو طريق البحر، فقد فتنها طرازها المعماري الحديث الفخم، ومبانيها القديمة، ومسطحاتها المائية المتصلة. بيد أنها على الرغم من بهجتها الأولى، كان الانطباعان السائدان عن اليوم انطباعَين متناقضَين، أحدهما بالانتظار والآخر بالعجلة.

كانت مدد الاستعجال قصيرةً لكن مركَّزة، وأثارت في النفس شعورًا مزعجًا بالإحباط. كان ثمة الكثير من البدائع لتُرى ولا وقت لتكوين ذكرى؛ فكان أقصى ما أمكنها فعله أن تختطف القليلَ من الانطباعات الشاردة، التي ما لبثَت أن ذبلت سريعًا مثل زهور خشخاش في قبضة يد دافئة.

كان الفاصل الزمني الأول حين تركهن الكونت ليذهب إلى البنك. فمكثن في السيارة مدةً لا تكاد تُحتمل. بجفون مثقلة من قلة النوم، راحت جورجيا تجول بنظرها محدِّقة

في المنظر الكئيب الممتد أمامها، الذي بدا شديد الشبه بشارعٍ في الحي التجاري من أي بلدة، فيما جعلت ميرل تدبدب بقدمَيها كلما غيَّرت وضعها.

وفي تناقض مع حركتها المستمرة، كانت ميفيس ساكنة وصامتة على نحوٍ ينذر بالسوء. فكانت مثل بركان، لم تَعُد في حالة انفجار نشط، لكنها وصلت إلى حالة خطيرة من الغليان. فقد بدت شاحبة جدًّا حتى إن مشاعر القلق بدأت تراود جورجيا ثانية، حين انضم إليهن الكونت.

كان هو يدخن سيجارًا وبدا أنه في حالة معنوية ممتازة.

قال معتذرًا: «آسف على تضييع وقتكن. كان أمرًا حتميًّا. في البداية كان لديَّ بعض الشواغل، بعدها اجتمع بي اثنان من المديرين. وكانت ثمة خطابات في انتظاري أيضًا ... إنهم بحاجةٍ لأن آتي إلى الجزيرة غدًا. فلديهم هناك بعض المشكلات الصغيرة، ولا يوجد مَن هو كفؤ لمعالجتها. فليست عمَّتي سوى سيدة مجتمع.»

فسألته جورجيا: «هل ستذهب؟»

«أبدًا. لن أتركك مقابل الدنيا وما فيها.»

رمق ساعته ثم أعطى السائق أمرًا.

وقال مفسرًا: «لا بد أن نصل إلى سكانسن الآن بأسرعِ ما يمكن. لكنني رتَّبت مسارًا لإعطائكِ فكرة عامة جيدة عن المدينة. وبإمكانكِ أن تستكشفيها لاحقًا حين يتيسر لكِ.»

وقد تخلَّت جورجيا عن محاولة تذكُّر المباني، أو تحديد أماكنها في مرورهم هرولةً بالأماكنِ فيما بعد. وقد عبروا عددًا محيرًا من الجسور وتجاهلوا كلَّ ما صادفوه من معالم، سواء كانت من المعمار أو من التماثيل. وعلى ذلك توقَّف السائق بالسيارة أمام المتجر الذي كانت جريتا جاربو تبيع فيه قبعات.

حين أُشير إلى بناءٍ ضخمٍ من الحجارة الرمادية اللون يعود إلى عصر النهضة الإيطالي، وقيل إنه القصر الملكي، ازدادَت عينا ميرل رغبةً.

وقالَت: «هل هو متكامل؟»

فسألها الكونت: «ماذا تقصدين؟»

«أقصد ما إذا كان قائمًا بذاته. لا بد أن تعرف معنى ذلك. فإن نصفك إنجليزي.»

تلك الحركة الفطنة جعلت جورجيا تتساءل ما إذا كان الكونت قد تعمَّد اكتساب هذا الاختلاف الطفيف في أسلوب كلامه، ليحدِث أثرًا. وقد شد شعر ميرل دون أن يبدوَ عليه الخجل.

وقال: «نعم، للقصر باب أمامي خاص.»

فأعلنت ميرل بتحدٍّ: «لا بد إذن أن أحصل عليه بمجرد أن يُعرض للإيجار. سوف أملؤه بجمهور أمي، وكل شخص سيكون مسئولًا عن حجرته. ها أنا ذي قد حجزته يا ميفيس. وبذلك أكون قد توخَّيت الأمانة.»

قال الكونت باستحسان: «تعلم هذه الصغيرة ما تريد بشكلٍ أفضل من بعض النساء. هذا هو سبيل الارتقاء في الحياة.»

استاءت جورجيا من الموقف لِما انطوَت عليه الملحوظة من تأنيب مبطَّن. وسألت نفسها بخوفٍ عما إذا كانت من زمرة النساء اللواتي يَغرن من بناتهن. وقد شعرت باستياءٍ محقَّقٍ حين بدأت السيارة تجتاز مبنى البلدية، الذي عرفته من طوبِه الأحمر، وبرجِه المربَّع ذي الجرس، وتيجانه الثلاثية التي التمعت في ضوء الشمس.

قالت: «نصحني أوزبرت بألَّا أفوِّت رؤية النقوش الموجودة أسفل الإفريز بوجهٍ خاص. هلَّا تطلب من السائق أن يتوقَّف؟»

قال الكونت موافقًا بابتسامةٍ لا مبالاة: «تحت أمركِ. لكن لا بد أن نسرع في ذلك.»

تحرَّك بهن الكونت مسرعًا في الساحة الخارجية، التي أدَّى رُواقها المعمَّد المزدوج إلى الحديقة وشاطئ البحيرة، ثم إلى القاعة الزرقاء. ومن دون أن يتيح لهن الوقت للإعجاب بالقِرميد الحائل والأرضيات الرخام، هُرع بهن صاعدًا السُّلم ومجتازًا الدهاليز، إلى حجرة شاسعة ومزخرفة، ذات جدران من الفسيفساء المطلية بالذهب.

وقال: «إننا نقيم المآدب العامة في هذه الحجرة. وقد دُعيت إلى هنا من قبلُ ضيفَ شرفٍ.»

كما لو كانت تريد برهانًا على تفاخره، انتبهت جورجيا إلى أسلوب الموظف المسئول عن مبنى البلدية في تبجيله. يبدو أن عدسته الأحادية وملابسه الرسمية قد حوَّلته إلى مواطن مختال ومهم.

ولما استشعرت أنها فقدته، ساورتها رغبةٌ في استعادة حبيبها الرومانسي الغريب مرةً أخرى. وقد جعلها هذا الشعور أكثرَ قدرة على التعاطف مع ميفيس التي كانت تكابد آلام الغَيرة.

فقد همست، بينما يسابق ميرل المبتهجة في نزول السلم الضخم: «جوستاف يحب ميرل أكثرَ من الجميع.»

هكذا وصلوا إلى سكانسن في وقتٍ قياسي، لكنهم اضطروا مرةً أخرى إلى الانتظار مدةً أطول. رفضت الفتاتان زيارةَ أيٍّ من المنازل الخشبية العتيقة، ولبثتا أمام حظيرةٍ ذات رائحة نفاذة، وظلَّتا تُشاهدان ماعزًا ضخمة باهتمامٍ آسر.

وحين عبَّرت جورجيا عن اعتراضها، وقالت: «بما قد تشعران إن ظل شخصٌ يحدِّق إليكما وقتًا طويلًا؟» أفحمها منطق ميرل.

«لكنني ليس لديَّ قرون.»

فقال الكونت وهو مبتهج: «إن لديها إجاباتٍ على كل الأسئلة.»

شعرت جورجيا بصدمة من انزعاجها. لكن حتى مع إقرارها لنفسها بتفاهة أفكارها غير المعقولة، انتابها خوف حقيقي من وقوع تطوُّر بغيض. فطالما كانت الشقيقتان صديقتَين مخلصتَين، لكنَّ تفضيل الكونت الملحوظ لميرل، جعلها تتحوَّل إلى طفلةٍ بغيضة، إلى جانب تكديره لميفيس.

انزاح التوتر حين دعاهن الكونت لمشاهدة عملية صُنْع الزجاج. فقد سرَّ جورجيا أن تمضيَ في سبيلها، لكنها بعد بضع دقائق شعرت أنهم أقدموا على مُقايضةٍ سيئة، بترك الهواء الطَّلْق لدخول مبنًى حارٍّ معتِم.

وما لبثت أن شعرت بالملل من رتابة العملية، التي بدت أنها تكرارٌ لنفس الحركات، فلا تتنوَّع إلا عند تحطيم عينةٍ معيبةٍ من وقتٍ لآخر. إلا أن الطفلتَين راحتا تشاهدان الزجاج المصهور وهو يُلف حول القضبان باهتمامٍ مفتون، كالذي خصَّتا به الماعز.

ولما لم تقوَ على أن تعهد للكونت برعاية الصغيرتَين؛ مخافةَ أن تضلَّا أو تُخطفا، فإنها اضطُرت إلى البقاء حتى يصرفهما الموظف المسئول.

قال الكونت: «لا بد أن نسرعَ الآن للحصول على أماكنَ جيدةٍ في عروض الرقصات الشعبيَّة للأطفال. أما هذه المنازل القديمة فسترَوْن مثلها الكثير في ديلكارليا.»

ومرةً أخرى انطلقوا مسرعين — ومرة أخرى انتظروا — جالسين على مصاطبَ صلبةٍ حول منصة خشبية قصيرة، وهم يشاهدون الأطفال المتفرقين يجمعهم الآباء والمدرِّسون.

وحين اكتمل الحشد أخيرًا وبدأ العرض، لم يَرْقَ دبيبهم وقفزهم الشديدان لمعيار الرقص لدى الآنستَين يو.

وللأسف أدَّى الأمر إلى إثارة شعور ميفيس بالتفوق القومي من دون مناسبة.

فقد قالَت بتواضعٍ مزهوٍّ: «لسنا سوى قريةٍ صغيرةٍ فقيرة، لكن مستوى الرقص لدينا أفضلُ بكثير. هل نُريهم أنا وميرل رقصةَ مزمار البحَّار؟»

فقالت ميرل سريعًا للتفسير: «ليس بهدف التفاخر. وإنما لتعليمهم. تقول الآنسة جونز إنه لا بد من تبادل الثقافات.»

وحين أُثنيتا عن عزمهما، اكتشفتا أنهما كانتا جائعتَين، وهو ما ضايق جورجيا. فقد كانت تهوى الصبيان بوجه عام وتأسف أنها لم تُنجب صبيًّا.

ولذلك فقد استأثر بانتباهها صبيٌّ أكبر سنًّا، كان غناؤه ورقصه فوق المتوسط.

كان الصبي يرتدي قبعة سوداء كبيرة من اللَّبَد، ويلعب دور أبٍ لعدد من الفتيات المناسبات للزواج. وبعد أن يزوج كلَّ واحدة منهن، واحدة تلو الأخرى، لفتًى من الفتيان الجالسين على مصطبة، يقود موكب الأزواج المتراقصين حول المنصَّة. كانت جورجيا تشاهد أداءه التمثيلي الصامت المتهلِّل باستمتاعٍ حقيقي، حين استُنهِضَت من فوق المقعد.

فقد استحثَّها الكونت قائلًا: «لا بد أن نهُمَّ للحصول على طاولة. فالمطعم دائمًا ما يكون مزدحمًا. كان لا بد أن أحجز أماكنَ لنا، لكن اليوم كان مشحونًا.»

قُدم إليهم العشاء في شرفةٍ محاطةٍ بالزجاج، تُطِل على حديقةٍ مضيئة. على الرغم من الأجواء النيرة والمبهجة، فإنهم لم ينعموا بعشاءٍ هادئ، حيث كانت الصغيرتان مشغولتَين بخوفهما أن تتأخَّرا فلا تحصلان على موقعٍ جيدٍ لمشاهدة عرض الغوص.

بعد أن تركوا قهوتهم دون أن يشربوها، وتركا سجائرَهما تحترق في منافض السجائر، خرجوا مسرعين إلى ساحة العروض. وهناك شقُّوا طريقهم وسط الزحام، حتى استقروا أخيرًا في مكانٍ ضيق قرب سُلمٍ طويلٍ لحدٍّ خطير. كان في وضع قائم مرتفعًا فوق حوض صغير جدًّا، حتى إن جورجيا شعرت بانزعاجٍ عند رؤيته.

وقالت: «سوف تسقط خارجه حتمًا.»

فقال الكونت متفقًا بلا اكتراث: «من المرجَّح أن يحدث ذلك ولو مرة. بل قد تكون هذه المرة الليلة.»

ارتجفَت الصغيرتان وصاحتا: «أووه.»

بدا وجههما في غاية الشحوب في الوهج، حتى إن جورجيا شعرَت بالقلق عليهما. فقد كانتا تتعرَّضان للكثير من الإثارة، من دون الحصول على قسطٍ وافٍ من النوم أو الطعام المفيد. وبعيدًا عن هذه الاعتبارات، كان المستقبل يحمل معه احتمال انتقالاتٍ مستمرة، حيث ستواجه ميفيس اختبارًا شديدًا وحقيقيًّا وهي التي تعاني دائمًا الدُّوار.

وبينما هي تتأمل الموقف، بدأ يساورها ندمٌ على الإذعان لهواجس صغيرتَيها بشأن وقوع كارثة. كانَت قد تركتهما تسيطران على الموقف، وهي على عكس نظرية التعليم التجريبي، ترى أن العالم تحت سيطرة الأطفال أو المجانين لن يكون منطقيًّا ولا مستقرًّا.

تدافع الحشد في ازدحامٍ خانق. وغاص كعبُ حذائها في الوحل، وشعرت بألمٍ في قدمَيها، ودقٍّ عنيف في رأسها. كان لدى جورجيا رهبةٌ من ساحات العرض؛ وذلك لأنها كانَت قد تاهَت في مهرجان، وهي في الخامسة من العمر. فلم تنسَ قطُّ صخبَ الآلات النحاسية، والتدافع المستمر، ورائحة الكيروسين، ومصابيح النفط، وصرير الأراجيح الدوارة، وزئير الأسود المرعب في أقفاصها.

أسوأ ما في الأمر هو أن هذا المكان البغيض كان مرج دوبسون المحبَّب إليها؛ حيث كانت تصنع أكاليل من زهور الأقحوان. تعرَّفت إليه من أشجار البَلُّوط الثلاث التي انتصبَت على خلفية سماء الليل، وهو ما يبدو أنه حوَّله إلى مؤامرةٍ كبرى بين الطبيعة والإنسان لتضليلها.

ظلَّت الذكرى القديمة تُلاحقها مع ازدياد الضغط. وفي تلك اللحظة بدَت لها الجزيرة كأنها سرابٌ بعيدُ المنال، ملاذ آمن، حيث نعمة الشمس والبحر والريح. وبينما هي تُفكِّر فيها بلهفة، حدَث ما أعادَها إلى مكانِها الراهن.

فقد ظهرت الغواصة — بقوامها الممشوق المتناسق — وشرعت تصعد درجات السُّلم بحركاتٍ بطيئةٍ منتظمة، متواكبة مع الموسيقى. وحين وصلَت إلى المنصة الصغيرة أعلى السُّلم، ظلَّت بلا حَراك، مثل تمثالٍ على خلفية سماءٍ مضاءة بالنجوم.

تساءلت جورجيا فيما كانت تفكر بينما تقف منتظرة، عاليًا فوق حشدٍ من الوجوه المتطلعة، مع هبوب نسمات الليل المنعشة على جسمها. ثم بدأَت تقوم بتمريناتِ مدٍّ لأطرافها وعضلاتها، وكأنها تريد أن تطيل فترةَ التشويق.

اصطخب المشاهدون مقتربين أكثرَ، يدفعهم تيار اللهفة المتزايد. اشرأبَّت الأعناق في إثارةٍ وتصاعدَت التمتمة بكلماتٍ مفهومة. وحين نظرَت جورجيا حولها، تكوَّن لديها انطباع بكثرة المروِّجين لإحساس الإثارة والدهشة، آملين في الشعور بإثارةٍ منقطعة النظير لم يدفعوا ثمنها.

وإذ فجأة استبدَّت بها كراهية عنيفة وغير معقولة.

فقالت لنفسها: «إنهم يريدون أن ترتطم الفتاة بالأرض.»

وفي أثناء مرور تلك الخاطرة بذهنها، انتهى العرض؛ إذ تم على نحوٍ غير متوقَّع. فقد وقفت الغواصة على يديها، رافعةً قدمَيها في الهواء، وتشقلبت للوراء، ثم هبطت في الحوض.

لم تشعر جورجيا بشيء سوى الامتنان على عدم سقوط الفتاة وموتها، إلا أن الصغيرتَين لم تخفيا خيبةَ أملهما.

فقد عبَّرتا عن شكواهما بصوتٍ عالٍ فقالتا: «لم يكن هذا غوصًا. لقد قفزت.»

فقالت جورجيا بحزم: «والآن ستقفزان أنتما إلى الفراش.»

وحين وصلوا إلى الفندق التفتَت جورجيا نحو الكونت.

وقالت له: «انتظرني. أريد التحدُّث معك.»

وبعد قليل نزلت بالمصعد فوجدت الكونت واقفًا في نفس المكان.

قال لها: «لم أتحرَّك طَوال هذا الوقت. وهذا يثبت إخلاصي. سيكون من الأفضل أن نتحدث متجولين بالسيارة. هذا إلى جانب أنكِ يجب أن تري المدينة ليلًا.»

مسترخيةً في السيارة، تُحيط بها ذراع الكونت، استسلمت جورجيا لهذا السلام وأثره المداوي للروح. وانعكسَت الأضواء الصادرة من مبانٍ معتِمةٍ في خطوطٍ طويلةٍ مرتعشةٍ على الماء. وسطعَت النجوم متألقةً في السماء الصافية. وأمامها ظهر تمثالٌ عارٍ ضخمٌ بذراعٍ مرفوعة، على خلفية النجوم الساطعة المتناثرة.

كأنه خمَّن ما تفكِّر فيه، همس الكونت إليها قائلًا: «من الممكن أن تكون هذه هي الحال دائمًا.»

فقالت جورجيا: «ليس إذا كان الغد مثل اليوم. لقد آل كل شيء مآلًا خطأ. حتى أنت كنت مختلفًا.»

«أدرك ما تقصدين. لكنني لا أستطيع أن أكون شخصَين في آنٍ واحد. لا يمكن أن أكون الحبيب والمرشد السياحي. أردتِ أن تصطحبي الصغيرتَين. وأنا أردت إسعادكِ. لقد فعلت اليوم ما لم أكن لأفعله لأي امرأة. فلست معتادًا القيامَ بعمل المربية.»

هكذا أدانتها كلماته بالجحود مجتمعًا بانعدام الحس الواقعي.

فقالت تقرُّ بخطئها: «كانت غلطة. هلَّا نذهب إلى الجزيرة غدًا يا جوستاف؟»

«بهذه السرعة؟» ثم ضحك ضحكةَ انفعال. «لكن هل أنتِ متأكدة أنكِ لن تغيري رأيكِ مرة أخرى؟»

أخفى الظلام تغيُّر تعبير وجهه وهو يردف قائلًا: «من السهل مغادرةُ ستوكهولم. لكن ربما لا يكون من السهل مغادرة الجزيرة.»

فقالت له: «إنني متأكدة. سوف نذهب غدًا.»

وفي الصباح التالي، بينما كانت الباخرة الصغيرة تغادر رصيف الميناء، استدارت جورجيا تنظر إلى ستوكهولم.

وقالت بضحكة خافتة: «لقد فرغت من السويد. فقد رأيت المتجر الذي كانت جريتا جاربو تبيع فيه القبعات.»

الفصل الحادي عشر

عروس الفايكنج

بينما هي واقفة على سطح الباخرة الصغيرة — المتجهة إلى سالتسوبدن، في طريقها إلى الجزيرة — كانت روح جورجيا في سكون، كما لو كانت تركت كل شكوكها وقيودها تسبح وراءها مع نُفايات الميناء.

في الماضي شعرت مرات بروحها لحوحة لا تهدأ، تتنازعها في صراعاتها من أجل الحرية. رغم أنها قد ضحَّت بنفسها من أجل تأمين مستقبل ابنتيها، فقد أنَّبها شبابها الحبيس على إهداره سنوات.

والآن بينما هي تشاهد أشعة الشمس في التماعها على الزَّبد المتخلف في أثر السفينة، قالت لنفسها إنها — في هذه الرحلة — قد عوَّضت ذلك السجين عما ارتكبته بحقه.

خلعت جورجيا قبَّعتها، وتركت النسيم يبعثر شعرها، الذي كان أفتح من شعر أي واحد من سائر ركَّاب السويد، وراحت تشاهد الكونت بعينين ملؤهما الفخر والسعادة. والكونت، هو الآخر، بدا في حالة مزاجية لائقة بالعطلة، وهو يذرع الباخرة الصغيرة جَيئةً وذهابًا كأنه قائدها. كان يرتدي ملابس خفيفة من الفلانيل على غير العادة، وكذلك بيريه أسود مائل على رأسه، فذكَّرها مرة أخرى بالغريب الذي قفز فجأة إلى حياتها، وملك عليها أمرها.

كان دائمًا لافتًا للأنظار، حيث لاحظت أن النساء الأخريات نظرن إليها بحسد حين جاء إليها.

قال الكونت لجورجيا: «أشعر بسعادة بالغة.»

في تلك اللحظة شعرت ببهجة انتصار، لكنها حين تكلَّمت كان حديثها حديث جِد.

«بكم أَدين لك؟»

فأجابها: «بلا شيء.»

«لكنَّك سددت كل النفقات.»

«لا تقلقي يا عزيزتي. سأرسل الفاتورة لاحقًا ... ما خَطْب ابنتَيك الحسناوَين، يا سيدتي؟ لم أوفَّق في اجتذابهما اليوم.»

فأجابت: «لم تريدا الحضور.»

«لماذا؟»

قالت متلعثمة: «أوه، ترَّهات بشأن خطرٍ ما.»

ومضت نظرةُ اهتمام في عينَيه.

«إنه لأمرٌ غريب. ذات مرة كان لديَّ فرس رفضت القفز فوق حاجز. ثم اكتشفت أنه كان ثمة حفرةٌ متوارية على الجانب الآخر، فلو كانت قفزت لَلقينا حتفَنا نحن الاثنين. هذه المخلوقات العجماء لديها حَدْس.»

لم تعلِّق جورجيا على الحكاية التي لم تبدُ في محلها. ولم يسَعها سوى الامتنان على وجود الصغيرتَين على متن السفينة، بعد تمرُّدهما في البداية.

كانت ميرل تتعقَّب أحد ضباط الباخرة دون خجل، وقد شدَّ انتباهها زيه الرسمي، فيما كانت ميفيس تخطُّ بالقلم الرصاص في كراسٍ مع كل جزيرةٍ يمرُّون بها.

وقد ارتسمَت على وجهها أمارات الجِدية وهي تفسِّر ما تفعله.

«سأكتشف بنفسي إن كانت ألف جزيرة بحق أم لا.»

فقال الكونت بصبيانية وهو يمسك بيد جورجيا ويبتعد بها: «تعالَي لتحصيها معي.»

بينما هي واقفة بجانبه، تشاهد جزر الأرخبيل تمر بهما، شعرت جورجيا بحرية وشباب غير معهودين؛ إذ تحرَّرت من الروابط الأسرية. كانت بعض الجزر محضَ صخور من الجرانيت الأحمر، جدباء، وكان بعضها الآخر كبيرًا بما يكفي ليكون مواقعَ مصايف.

وكانت كلما أعجبتها دارٌ خشبية — مطلية باللون الأبيض مع القليل من اللون القرمزي — بين الأشجار، قال لها الكونت متباهيًا: «انتظري حتى تري داري.»

شقَّت الباخرة طريقها وسط مضايقَ بالغة الضيق، حتى إن أمواجها غمرت حواف الشاطئ، تاركةً الحشائش والشجيرات طافية. وعاليًا تخلَّلت السماءَ الممتدة الشديدة الزرقة أشرطةٌ من السُّحب الرقيقة. وحين مرَّ شريط منها أمام الشمس، أعتمَت الخلفية الخضراء، وألقت بالظل على وجه جورجيا.

سألَت جورجيا الكونت: «هل تتوقَّع عمتك قدومنا؟»

فقال وقد لوى شفتَيه: «كيف يمكن لها ذلك؟ لو كنت أرسلت إليها برقيةً لأحضرناها معنا. نحن نتسلم بريدنا ومؤننا بأنفسنا من سالتسوبدن. حين تصلين إلى الجزيرة يا عزيزتي ستجدين أن كل الأسلاك مقطوعة.»

فقالت تذكِّره ضاحكة: «لكن هناك سُبل اتصالات لاسلكية. وأنا دائمًا ما أقرأ أن حتى إنجلترا لم تَعُد جزيرة معزولة.»

حين غادروا الباخرة في سالتسوبدن، تناولوا الغداءَ في مطعمٍ بإطلالةٍ جميلةٍ على شبه الجزيرة المغطَّاة بالأشجار والممرات المائية المزدحمة للأرخبيل. وبعد الغداء، أثناء انتظارهم قارِبَ الكونت البخاري، الذي كان سينقلهم إلى الجزيرة، راحوا يتمشَّون على الشاطئ حيث كان ثمة تمثال مضطجع منحوت في صخرةٍ منخفضة.

انطلقت الصغيرتان إلى التمثال وترجَّتا الكونت أن يلتقط لهما الصور. ففك الرباط عن الكاميرا وبدأ ضبطها ثم عدَل عن رأيه.

وقال: «سنأخذ الصورة جميعًا. سأطلب من ذلك الشاب هناك أن يصورنا.»

ثم قفز من فوق الجلاميد المغطاةِ بطحالب البحر، وعاد بصحبة شابٍّ مبتسمٍ يرتدي ثوب سباحة، فتولَّى المهمة في الحال.

قال الشاب بلغة إنجليزية ممتازة: «قِفوا متقاربين رجاءً. وأنت يا سيدي، ضع ذراعك حول السيدة وانسَ أنها زوجتك. هيا جميعًا، ابتسموا. الآن.»

كان الكونت مبتهجًا بعد أن شكروا المصور الهاوي.

فقد قال أثناء سيرهم متجهين إلى رصيف الميناء: «طلبت منه أن يلتقط لنا عدةَ صور. فلديَّ رغبة خاصة في تسجيل سعادتنا اليوم.»

تذكَّرت جورجيا الموقفَ لاحقًا. أما ساعتئذٍ فقد غمرها الشعور بالإثارة للمغادرة على القارب البخاري. وقد جاء الكونت يخاطبها بمجرد أن ركبوه.

فقال: «فلتودِّعي الأرض. نحن على وَشْك قَطْع الاتصال مع العالم.»

فسألته: «متى سنعود؟»

«ما أهمية ذلك؟ فلا وجود للزمن على الجزيرة. وبمجرد أن نمضي في سبيلنا سألقي بساعتك في البحر. فلن يعود بكِ حاجة إليها. سوف نستبدل بها عروس بحر جميلة من أجلي. ها قد انطلقنا.»

صاح حماسةً إذ انطلقوا بالقارب، الذي تقافز بهم فوق الماء ناثرًا الرذاذ. ثم استدار وتحدَّث إلى ميفيس، التي جلست متسمرة، وقد صارت كل عضلة في جسدها مشدودة.

«سننطلق سريعًا حتى لا يتسنى لكِ الوقت للإصابة بدُوار. وبهذه السرعة سنسبق السمك.»

أثبتت أساليبه الصدامية نجاحها؛ إذ ظلَّت حابسةً أنفاسها، وشيئًا فشيئًا كان لضغط الهواء على وجهها أثر المخدِّر. وانسدل جفناها من النعاس، وارتمى رأسها ثقيلًا على كتف ميرل.

فصاحَت ميرل، مستغلةً فرصتها لتضفي على الموقف طابَعًا دراماتيكيًّا: «يا لكِ من مسكينة! أنت بحاجة لأمكِ.»

لم تُلقِ جورجيا بالًا لنظرة التأنيب التي رمتها بها. وخلافًا لكلِّ ما سبق ضحكت وهي ترى ميرل تحيط شقيقتها الكبرى بذراعها في لفتةِ أمومة متوترة. فقد انتابها شعورٌ بالتمرُّد على كل القيود وهي في حالة جديدة من النشوة، حتى تلك القيود التي تصنعها العاطفة.

لقد ضحَّت سنواتٍ عديدة من أجل صغيرتَيها، أما اليوم فهو لها وحدَها.

قالت لنفسها تذكِّرها: «لقد منحتهما الأمس لتفعلا فيه ما تشاءان فأفسدتاه تمامًا. حتى إنني لن أتذكَّر ستوكهولم مطلقًا من دون أن ألهث أو أتثاءب.»

في البداية سلَكوا طريقهم بين جزر الأرخبيل، وشيئًا فشيئًا خرجوا إلى البحر المفتوح. فخلع الكونت البيريه قبل أن يأخذ عجلةَ القيادة من الميكانيكي، ويصيح بجورجيا أن تقف بجواره.

«إنني قرصان الفايكنج وأنتِ عروس الفايكنج عائدة لديارك.»

وخز رذاذ البحر عينَيها وغمر شفتَيها. وجعلت الشمس تلهب وجهها والريح تهبُّ كأنها ستقتلع شعرها من جذوره. وامتلأت أذناها بصوت مكتوم لقرع طبول، وهي واقفة على مركبة متحركة هائجة تنطلق وتدور بسرعة فائقة. شعرت كأنها مندفعة صوب مستقبلها خائضة ذلك البحر الأزرق الثائر، الذي يغطيه الزَّبد كأنه قطيع متسارع من الخيول البيضاء.

ثم أعادها صوتُ ميرل المحتج إلى حاضرها.

«هل هذا الوضع نهائيٌّ حقًّا يا أماه؟»

فسألتها جورجيا: «ماذا تقصدين؟»

«لقد طلب منا جوستاف أن نقول «وداعًا» للأرض.»

فهزَّت رأسها لتطمئن الصغيرة، مع أنهم بدَوا بصدد انفصال مطلق عن العالم في تلك اللحظة. فلا أثر للأرض على مرمى البصر، ولا طيور في السماء. وآخر الجزر الصخرية الصغيرة باتت بعيدة. ليس هناك سوى أميال وأميال من المياه.

كان آخر النهار حين بدءوا يرون الجزيرة التي بدت كأنها بقعةٌ بنفسجية في الأفق، لكن حين وصلوا إليها كان آخر شعاع من الشمس لا يزال يصبغ الأمواجَ ذات اللون الزيتوني بلون برتقالي محمر. امتدت مساحتها من ثلاثة إلى أربعة فدادين، وهي مليئة بأشجار الصنوبر والبتولا، إلى جانب شجيرات الزينة.

كان المنزل واقعًا في الطرَف الأعلى من الجزيرة مُقامًا على أرض مرتفعة، وكانت الحجرات الخلفية في الطابق الثاني تُطل مباشرةً على البحر. كان بناءً فخمًا، أبيضَ اللون راسخ البنيان، بطراز معماري حديث، ذا أسطحٍ مستويةٍ وشرفاتٍ مشمسة، تصل إليه بسُلَّم منحنٍ ذي درجاتٍ منخفضة.

وقد دُهشت جورجيا من حجمه وفخامته، وهي التي توقَّعت أن ترى البناء الخشبي المعتاد.

فقالت: «لا بد أنَّ نقل المواد وحدَه قد كلَّفك ثروة.»

فقال الكونت يشرح لها: «لا. الحمقى يبنون المنازل والحكماء يسكنونها. لقد بناه مليونير غريب الأطوار. وبعد وفاته بات المنزل عبئًا على الورثة؛ لأنه كان منعزلًا جدًّا. فاشتريته منهم بأموال طائلة، لكنها في الواقع أقلُّ من قيمته. والآن سنأخذ جولة حوله، حتى يمكنكِ رؤيته من كل جهة.»

وبينما كان الزورق يرسم دائرةً من الزَّبد حول الجزيرة، رأت جورجيا شخصًا غير واضح الهيئة واقفًا في إحدى الشرفات. لم يلوِّح ذلك الشخص الذي كان يراقبهم بيده للترحيب، فاستنتجت أنه لا بد أن يكون أحدَ الخدم.

كان رصيف النزول والمرفأ قائمَين في مدخل خليجٍ صغير في الطرَف المنخفض من الجزيرة. وبمجرَّد أن توقَّف الزورق حمل الكونت جورجيا، وسار بها إلى الشاطئ.

وقال: «لقد جاءت العروس.»

الفصل الثاني عشر

الزائرة

في الحال نزلت جورجيا إلى الأرض مرةً أخرى، وتغيَّر الكونت من حبيب إلى مضيف. حيث قال لها: «قبل أن نصعد إلى المنزل لا بد أن تري حمَّام السباحة.»

ثم قادهن يسارًا فنزلوا درَجًا نُحت نحتًا خشنًا في الصخور، حتى وصلوا إلى أرض فضاء مستوية وسط الأشجار، حيث بُني حمَّام سباحةٍ مكشوف. وقد بدا في ذلك الوقت من المساء معتِمًا وباردًا — أشبه بطللٍ من العصر الروماني منه بملعب ترفيهي في هوليوود — لكنَّ الصغيرتَين طربتا به.

قال الكونت يبيِّن محاسن الحمَّام: «ستجدن مياهه دافئة من حرارة الشمس. أما البحر فإنه هائج وبارد على الصغيرتَين ... والآن هيا بنا نفاجئ عمَّتي.»

لم تكن جورجيا متيقنة من عنصر المفاجأة؛ إذ تذكَّرت الشخص الواقف في الشرفة. كانت تعلم أن هناك مَن شاهد مجيئهم؛ ومن ثَم فقد تجنَّبت مغبةَ الحضور المباغت. وعلى ذلك فقد انتفض قلبها من وجلٍ طفيف أثناء صعودهم المسارَ المتعرِّج بين أشجار الصنوبر.

أمكنها أن تلتقط لمحاتٍ على الجانبَين من البحر الهائج، ولسانًا أبيضَ من الزَّبد راح يلعق القاعدة الصخرية. وبعد وقتٍ قصيرٍ خرجوا من بين الأشجار إلى حديقةٍ صغيرةٍ تحدُّها الزهور، امتدَّت أمام المنزل. وبينما هم يجتازونها، ظهرَت السيدة فاندربانت واقفةً على رأس السُّلم لتستقبلهم.

على الرغم من أنها في عزلةٍ عن المجتمع، فلم يكن ثمَّة تغيُّر في مظهرها. فهي لم تُقدم على أي تنازلٍ لوجودها وسط الطبيعة، وإنما بدت بمظهرٍ رسمي بثوبٍ غالي الثمن، كما كانت حين استضافتِها للعشاء في بروكسل. وكان وجهها الشاحب من دون بودرة، وشعرها الأبيض لم يبعثره الهواء.

ومما أدهش جورجيا أنها مدَّت يدها بابتسامة منقبضة. فرغم أن تعبيرات وجهها كانت بطبيعتها أجمدَ من أن تلين، فقد بدا أنها تحاول جاهدةً أن تتصرَّف بلياقة.

قالت لجورجيا: «يسرُّني استقبالكِ هنا. لقد اختار جوستاف اختيارًا حكيمًا في نظري. أهنئكما.»

ابتسمت جورجيا شاكرةً لها وهي ترمق الصغيرتَين بنظرة قلق.

وقالت: «أخشى أنكِ لم تتوقعي هذا الغزو.»

فردَّت السيدة فاندربانت تطمئنها برياءٍ مهذَّب: «بل إن المفاجأة ضاعفَت من مقدار سعادتي. فلا منزل يكتمل من دون أطفال.»

سارعَت الصغيرتان لافتعال سَمْت التهذيب والمسكنة، ضمانًا على حُسن السلوك في المستقبل، فيما جرؤت جورجيا على أن تسألها سؤالًا شخصيًّا في سعيها للبحث عن صلة اهتمام مشترك.

«هل لديكِ أحفاد؟»

فقالت السيدة فاندربانت ببرود، قاطعةً الصلات الضرورية بالأجيال القادمة: «لم تسمح لي واجباتي الاجتماعية بتكوين أسرة.»

تدخَّل الكونت قائلًا: «لا بد أن تري المنزل. إنه يريد الترحيب بسيدته ... أوه، هل جانبتني اللباقة يا عمَّتي العزيزة؟»

فهزَّت رأسها نفيًا.

وقالت: «بل إنني أتطلع إلى التنازل لجورجيا عن مكاني. فلديَّ جدول مشحون خلال الخريف.»

ومثل حارس منزلٍ متعالٍ لا يريد إيجارَ منزله ويتعامل بلا اكتراث، قادت الكونتيسة جورجيا في أنحاء منزلها المستقبلي. فوجدته حَسن الإضاءةِ والتهوية وحديثًا، مع قليل من الأثاث المعدني، الموزَّع بنسق يماثل ديكور المسرح. وإنك لتجد في كل موضعٍ من مواضعه أثرًا من آثار الحركات الفنية والحِرفية الجديدة في السويد، متمثلة في ألوانٍ رقيقة وتصميمات أصلية.

وكانَت أفضل حجرة هي آخرَ ما رأته. وكان بها أثاثٌ مدمَج وإضاءة مستترة، وأحدُ جوانبها حائطٌ زجاجي قائم فوق البحر. وقد أمكن لجورجيا وهي واقفة بجانب النافذة أن ترى رذاذَ البحر بالأسفل في ارتفاعه وهبوطه في العتَمة.

قال لها الكونت: «هذه حجرتك. إنها مبنية لتليقَ بكاتبة مشهورة.»

فقالت جورجيا في همس: «إنها مثالية. هذه هي فكرتي عن السعادة الشاملة، أن أعيش هنا أبدًا وأكتب المزيدَ من الكتب. ليتني فقط أجد حبكةً جديدة.»

فقال لها الكونت: «سأجِد لكِ واحدة.»

ثم رمق عمَّته وتبادلا نظرةَ تفاهم.

ولاحقًا، حين نظرت جورجيا إلى مضيِّفتها على الطرَف الآخر من المائدة، شعرت بانتصارِ حُلم تحقَّق. يومًا بعد يوم، سيصير إشرافها غيرَ ضروري، وسترى ذلك الوجه المهيب أثناء كل وجبة، حتى يفقد قدرتَه على إثارة رهبتها من شدةِ ما ستألفه. ستعتاده باعتباره مجرَّد فرد في أسرة جوستاف، فقط لا غير.

رغم ذلك فقد شعرت جورجيا بشيء من الارتباك في تلك الأمسية الأولى، من سلوك السيدة فاندربانت المتجهِّم على الرغم من محاولاتها أن تكون مضيافة. ومع أنهم بعيدون عن أي منطقةٍ حضرية، فقد حافظَت مُضيِّفتهم على روح التقاليد والمعايير الاجتماعية العامة.

وقد أكلت كمياتٍ قليلة من الطعام ولم تشرب إلا المياه المعدنية. ولاحقًا بينما كانوا يتناولون القهوةَ في حجرة الاستقبال، التفتَت السيدة فاندربانت نحو جورجيا.

وقالت: «أنا لا أدخِّن، لكنني لا أفرض أهوائي على ضيوفي. أرجو أن تأخذي سيجارة. سيجد جوستاف بعضَ السجائر في تلك العلبة الفضية.»

في تلك الليلة نامت جورجيا دون أن يراودها حُلم، يهدهدها صوت البحر، حتى استيقظت على صوت ابنتَيها من الحجرة المجاورة. ولم تنعم إلا بدقائقَ أخرى من العزلة قبل أن تقتحما حجرتها من خلال الشرفة المشمسة المشتركة. كانتا قد مشَّطتا شعرهما من التشابك، لكن لا تزالان ترتديان ملابسَ النوم وقد تلفَّعتا بمناشف الحمام.

وقالت ميفيس منوِّهة: «سننزل إلى حمام السباحة. فلن نغتسل بالشكل المعتاد بعد الآن.»

وهزَّت ميرل رأسها فرِحةً: «نعم، ولن نستخدم الصابون بعد الآن. وسنرتدي ثوب السباحة طوال اليوم. وذات يوم لن نرتدي أيَّ ملابس على الاطلاق. ألن يكون ذلك توفيرًا؟»

كانتا مُسمرَّتَين أكثرَ من المعتاد، من تعرُّضهما لماء البحر والشمس في جولة اليوم السابق؛ إلا أنهما بغضِّ النظر عن هذه السُّمرة الزائدة، بدتا في غاية النشاط والصحة بعد النوم مدةً طويلة، حتى إن جورجيا شعرت بارتفاع معنوياتها.

فقالت باعتراض رقيق: «ماذا قد تقول السيدة فاندربانت؟»

فقالت ميرل ببهجة: «هي التي طلبت منَّا ذلك. فقد قالت: «تذكَّري، هذا قصر التحرُّر».»

«اذهبا ... سآتي أنا أيضًا.»

تدلَّى شعرها الأشقر الطويل طليقًا وهي تخرجهما من حجرتها، وقد بدت مرةً أخرى كأنها شقيقتهما الكبرى، كما كان شكلها في الصورة. لكنها لم تتبعهما بعد ذهابهما مباشرة. وإنما ذهبت إلى حجرة الجلوس التي فاضت بضوءٍ صافٍ باهر.

بينما تتَّجه نحو النوافذ، اخترقت أشعةُ الشمس الجدرانَ الزجاجية، فبعثت الدفء في الأرضية الخشبية تحت قدمَيها الحافيتَين. كان المدُّ في ذروته، والرذاذ يرتطم بالصخور المغمورة في المياه، فيتطاير قريبًا جدًّا من النافذة حتى ليبدو كأنه يحاول أن يلمسها.

بقيَت جورجيا في موضعها، تُحدِّق في البحر الذي يلتقي بالأفق في خطٍّ لامع.

وقالت تَعِد نفسها: «ستبقى الحال هكذا دائمًا. مثالية.»

شاعرة بأنها وُلدت من جديد، انضمَّت جورجيا إلى الصغيرتَين في حمَّام السباحة، حيث حاولتا أن تعلِّماها السباحةَ الحرة. كان مستوى أدائهما منخفضًا، نظرًا لأنهما، مثل أمهما، عاشتا حياتهما بأكملها قرب البحر، لكنهما انتصرتا لمحض روحهما الاستعراضية.

وبينما كن يتصايحْنَ ويرششْنَ الماء، مرَّ الكونت بحمَّام السباحة، ملتحفًا بروب حمام.

فصاح بهن: «سأذهب إلى البحر. سيكون باردًا جدًّا عليكن.»

شاهدنه — يرتدي أقلَّ القليل من الملابس — وهو يقف متأهبًا للغوص، وجذعه يلمع مثل النحاس في أشعة الشمس.

فقالت ميفيس معلِّقة: «يبدو كتمثال. هل ترين كم هو رائع؟»

فقالت ميرل معترضة: «لا. إن بطنه مترهل.»

وعلى الرغم من انتقادها القاسي فقد بدا نموذجًا جذابًا للذكورة، بقميصه المفتوح عند العنق، وشعره المتموج المبتل من ماء البحر حين التقَوا على الفطور. وكان الفطور غيرَ تقليدي، حبوب وحليب وعسل، قُدِّم في شرفةٍ مطلَّة على البحر.

ومما أراح جورجيا أن السيدة فاندربانت لم تكن موجودة.

قال الكونت لتفسير غيابها: «عمَّتي تسألكِ المعذرة. ستجدينها في باريس أو نيويورك مضيفةً غاية في الكِياسة. أما هنا فكلنا نحب الاسترخاء. كما أنها تعتبركِ بالفعل سيدة المنزل.»

فقالت جورجيا: «أرجو أن تكون إدارته سهلة.»

«إنه يدير نفسه بنفسه. لدينا أدنى عدد من الخدم، كلهم من الفلاحين. فلا يمكن لشيء أن يتسخ، وقد توافرت كل المرافق الموفِّرة للعمالة. من المريح أن تحل محلَّ مليونير.»

فسألته ميرل: «ومَن سيحلُّ محلك؟»

فأجابها الكونت: «إما ابني — أو الشرطة — حسب الظروف.»

كان الإفطار صاخبًا، لتحررهم من القيود التي يفرضها وجودُ السيدة فاندربانت. وكانت شهية الصغيرتَين مفتوحة للغاية حتى إن جورجيا انتابها القلق بشأن المؤن، حتى طمأنها الكونت.

«بإمكاننا الصمودُ لحصار. إننا نذهب إلى البرِّ الرئيسي مرةً في الأسبوع. لكننا بخلاف ذلك لدينا مخازن مليئة بشتَّى أصناف الطعام، كلها في صفائح.»

فعلَّقت ميفيس، غير قادرة على مقاومة الفرصة للترويج لهيبة وطنها: «في إنجلترا لدينا كل الطعام طازج.»

فسألته جورجيا، متجاهلةً ابنتها ذات النزعة القومية: «هل يأتيكم زوار؟»

«لا.»

«لقد راقت لي الجزيرة إذن.»

كان اليوم الأول ساعاتٍ متعاقبة من السعادة والكسل، حتى غروب الشمس. لم تُقدِم الصغيرتان على محاولات أخرى للاستئثار بالكونت، لكنهما اعتبرتاه ضمنيًّا مِلكًا لأمهما. وهكذا قضَوا أغلب الوقت إما في المياه، أو يتشمسون على مراتبَ بجانب حمام السباحة. وقد أتى لهم بوجباتهم فلاحةٌ ممتلئة الجسم بوجه مُسمَرٍّ، ترتدي الزي الوطني؛ ليعيشوا بذلك في الهواء فعليًّا.

تطلَّعَت جورجيا إلى التأنُّق من أجل العشاء، ليس من أجل التباين فقط لكن بتوجيه الكونت.

«ارتدي أكثرَ فساتينك أناقة. وتذكري أنكِ الليلة تتأنقين من أجلي.»

أدَّت معرفتها بضرورة أن تنال استحسان حبيبها، لتحويل عملية التزيُّن إلى سلسلةِ محاولاتٍ بالغةِ السعادة. وفي نهايتها، شعرت بالرضا حين رأت صورتها في المرآة، حيث تحقَّقت رغبتها في أن تبدوَ جميلةً بتجربة عدة اختيارات.

وبينما هي تلفُّ شَعرها الطويل المموج كعكة، وتنظر إلى سُمرة خدَّيها النضرَين المتوردَين، دخلت ميرل الحجرة ركضًا.

وقالت وهي تلهث: «ثمة ضيوف. لقد جاءوا في زورق بخاري.»

فسألتها جورجيا: «مَن هم؟»

«سيدة ذات شعرٍ أسود معها كلب داكن اللون.»

هُرعت جورجيا نحو النافذة الجانبية المطلة على السُّلم. ثم جمَد وجهها وفقد ألقَه حين أدركت مَن هو الشخص النحيف الأسود الشعر الموجود في الأسفل.

وقالت بصوتٍ خالٍ من التعبير: «ليس سيدة.»

فقالت ميرل بإصرار: «كلَّا، إنها سيدة. لا تكوني جاهلة يا أمي؛ فالكثيرات من السيدات يرتدين السراويل.»

هزَّت جورجيا رأسها.

وقالت: «هذا ابن شقيق الكونت. واسمه «كلير».»

الفصل الثالث عشر

الاعتراف

عند رؤيتها كلير، أدركت جورجيا أنها كانت قد لمست ذُروة السعادة، لكنها لن يتسنى لها أن تبلغها ثانيةً. إن وجوده على الجزيرة سيسلُب من روعتها. ستكون هي متيقظة لنقده الحاد ومدركة لغَيرتها، وقد جعلتها قدرته على إثارة تلك العاطفة تشعر بالغضب والخجل.

لكنها حدَّثت نفسها تمنِّيها: «ربما لن يبقى طويلًا.»

في لهفتها لمعرفة أسوأ ما قد يحدُث، ولكيلا تؤخِّر اللقاء غيرَ السار، نزلت جورجيا إلى الشرفة. فوجدت كلير في سروال فضفاض أزرقَ داكن وسترة بيضاءَ بلا كمَّين، يتحدَّث إلى الكونت بصوت خفيض لا يمكن سماعه. لكن بدا من عبوسه أنه مستاء من الصغيرتَين، اللتَين كانتا تتودَّدان إلى كلبه الداكن اللون، الكلب الهجين الأسود.

ومما أدهشها أنه حيَّاها تحيةً وديةً نسبيًّا.

قال بخشونة: «مبارك. لا شك أنني لا بد أن أعزيكِ حسب المزحة الدارجة. فإن جوستاف شخص رائع، عدا بين الوجبات.»

سألته جورجيا: «هل فوجئت؟»

«لا. فقد توقَّعت الأمر في ذلك العشاء في بروكسل. بمجرد أن رأيتكِ عرفت أن نصيب أحدهم قد حان.»

فقال الكونت: «هذه أشياءُ قدرية.»

ثم سألت جورجيا كلير، تريد بسؤالها تحديدَ في أي اتجاه ستأخذها رياح القدَر: «أين أمتعتك؟»

وكما توقَّعت، هزَّ الشاب رأسه نافيًا.

وقال: «عجبًا، ليس معي أمتعة. فكل أشيائي مستقرة هنا بالطبع. في الحجرة المعتادة، أليس كذلك يا جوستاف؟»

«بلى.»

وحين صعِد كلير السُّلم، متخطيًا ثلاث درجات في خطوة واحدة، تحوَّلت جورجيا نحو الكونت.

وسألته: «هل سيأتي كلير معنا في شهر العسل؟»

فسألها وصوته مندهش: «هل أنتِ غاضبة؟ لماذا؟ سوف تصاهرين عائلتي، وقد عقَدت العزم على أن تتعرف أسرتي إليكِ بصفتكِ زوجتي المستقبلية. ولن أقبل أن يلقاك أحدٌ بأي تجاهل.»

«هل تقصد أنه جاء خصوصًا ليهنئني؟»

«بالتأكيد.»

«وإلى متى سيبقى؟»

«كيف لي أن أعرف؟ فإنه يأتي ويذهب كيفما بدا له. وأنا لا أفهم لماذا عساكِ تستائين منه. إنه فتًى ... وأنتِ تَبدين في غاية الجمال.»

تركت نفسها تستسلم لسحر ابتسامته، حتى وهي تضمر في صدرها ضغينةً لتذكرها بوعده لها في الأوبرا.

فقد شعرت في قرارةِ قلبها أن الكونت قد خان ثقتها. اعترَتها مشاعرُ بالغة المرارة حتى إنها شعرت بامتنان حقيقي نحو ميرل، حين عبَّرت عن شعور صريح، عند نزول كلير السُّلم على مهلٍ، وهو يبدو رشيقًا وأنيقًا ببذلته المسائية الأنيقة.

أخذ كلير كلبه الداكن من طوقه وبدأ ينزل به درجات الشرفة.

فصاحت ميرل تسأله: «ألن يبقى؟»

«نعم، سيعود إلى البر الرئيسي مع سيده.»

«أوه. إذا كان لا يمكن بقاؤكما أنتما الاثنان، فهل تعتقد أنه سيمانع أن يبقى، بدلًا منك؟»

وأنقذ الكلب الموقفَ بأن أفلت عند سماعه صوت صفارة بعيدة.

فقال كلير معلقًا: «بإمكانكِ أن تجعلي من نفسك أضحوكةً كيفما تريدين، لكن لا يمكنكِ أن تجعلي منه أضحوكة. إنكِ تشبهين أمكِ شيئًا ما، أليس كذلك؟ أقصد شكلًا بالطبع.»

تظاهُره بتفسير مقصده حوَّل المقارنة إلى ملحوظة ماكرة. لكنه أثناء العشاء سلك سلوك شاب عديم اللياقة يسيطر عليه هوس. حتى إن السيدة فاندربانت اضطُرت إلى توبيخه لاحتكاره الحوارَ بحديث فردي عن التصوير الفوتوغرافي.

إذ قال يوضِّح موقفَه: «لقد شاركت في مسابقة. موضوعها هو «الزوجان المتحابان». وها أنا ذا أحذركما، فأنتما هدفي. لذا فاستعدَّا.»

وقد نفَّذ تهديده بانتباه ونشاط لا يَكل، حتى إنه جعل من نفسه مصدرَ إزعاجٍ للكل. فقد ظل خلال الأيام التالية يلاحق جورجيا والكونت، ولم يكتفِ بإجبارهما على اتخاذ وضعيات المتحابين أمام كاميرته، وإنما ظل يُلح عليهما لتغيير ملابسهما باستمرار.

والتقط لهما الصورَ وهما في ملابس السباحة، وملابس السهرة، وبسراويل قصيرة، وملابس من قماش التويد، وسراويل طويلة، بل وحتى وهما يرتديان الفراء. وكان أحيانًا يُدخِل الصغيرتَين في الصورة، وإن كان لا يحفِل بهما إلا باعتبارهما محض مكملات للصورة.

وقد قالت جورجيا ثائرةً للكونت: «أعتقد أنه لا يلاحقنا إلا ليكدرني.»

فقال الكونت يطمئنها: «لا؛ فهو إنما يجرِّب الإضاءة والزوايا. هذا شأنه دائمًا كلما اتخذ هواية جديدة. يكون في غاية الولع بها ثم تفتُر حماسته فجأة. وينتهي منها. لكن بما أنكِ معترضة، فسوف أمنعه من التقاط المزيد من الصور.»

وهكذا تلقَّى كلير التحذيرَ بأن هزَّ كتفَيه عابسًا.

«حسنًا. إنما أردت تخليدَ هذا الاتحاد المثالي؛ فهو ثنائي أصيل وعظيم مثل الويسكي والصودا. لذلك أردت تدوينه عَبْر المواسم. هل فهمت الفكرة؟ الحب المستمر من الربيع حتى الشتاء. وعلى العموم لديَّ كمية كافية من الصور. ومن الممكن أن أشرع في تحميضها.»

رغم أنهم باتوا تقريبًا لا يرونه، إلا أثناء الوجبات، فقد شعرت جورجيا بتغييرٍ في الأجواء النفسية. فعلى الرغم من الظروف المثالية، كانت الحياة تشبه عطلةً دائمة بدلًا من مشهد من الفردوس. لم يُبدِ الكونت ميلًا لاعتبار جزيرته مكانًا رومانسيًّا للخلوة، على الرغم من توفُّر الفرصة. فكان يسبح ويبحر بالقارب ويستلقي في الشمس مع جورجيا، لكنه لم يكن يمتعض من وجود الصغيرتَين، أو يخطِّط لأن يكون معها بمفردهما.

على سبيل التعزية، ذكَّرت جورجيا نفسها بأنها ستظل محتفظةً بذكرى لحظتَين مميزتَين: دهشتها حين فاتحها بعرض الزواج، وفرحتها حين حملَها إلى الشاطئ بين ذراعَيه.

وقالت تردِّد لنفسها بيتَ الشِّعر: ««فكم من امرأة عاشت دون أن تنال أمانيها.» حين نتزوج ويرحل الآخرون، ستحلو الحياة لنا مرةً أخرى.»

بَيْد أنها كانت لا بد أن تقرَّ بالهزيمة فيما يتعلَّق بمضيِّفتها. فرغم أن الوجه الأرستقراطي الشاحب بات مألوفًا لها أن تراه على الجهة الأخرى من المائدة، فقد ظلَّت العلاقات بينهما رسمية. معتبِرة نفسها القدوة، أوجبت السيدة فاندربانت معيارًا مرتفعًا من الهندام في المساء، وفي الوقت نفسه كان الحوار يُحدَّد مسبقًا، لتكون هي مَن يقرِّر بموجب سلطتها التلقائية الانتقال من موضوع تقليدي لآخر.

ومع تكرُّمها بالسماح لها بالتدخين، وتذكيرها بذلك كلَّ مساء، لم تجرؤ جورجيا قط على التدخين في حضرتها. فقد لاحظت أن الكونت وكلير كانا يمتنعان عن التدخين، كأنها إشارة لشدة اعتراض السيدة فاندربانت على التبغ.

متحاملتَين على كلير من موقف الكلب على ما يبدو، لم تحاول الصغيرتان التوددَ إليه، فيما تجاهلهما هو تمامًا.

وقد قالت ميرل مستهزئة به: «إنه جبان. لقد تحديته أن نتسابق في السباحة. لكنه رفض.»

وقالت ميفيس تفسِّر ذلك: «إنه ليس إنجليزيًّا.»

قبل أن ينتهيَ الأسبوع — الذي سار وفقًا لجدول، وإن كانت لم تعلم ذلك — باتت جورجيا على وعي بهاجس خفي جعلها في حَيرة من أمرها، من دون استناد إلى أي شكوك محدَّدة.

وقعت أول حادثة على العشاء، حين أظهرت الصغيرتان نهَمًا محرجًا للطعام.

فقالت جورجيا معلِّقة: «يبدو أن التطبُّع بطباع أهل البلاد يروق لهما. من المؤسف أنه لا يمكنهما البقاء هنا من الأساس.»

فسألها كلير: «وما العقبة دون ذلك؟»

«لا بد أن تتلقَّيا تعليمهما. لكنني لا أستطيع إقناعَ جوستاف بفكرة أن يكون لدينا مربية مقيمة.»

كانت ابتسامة كلير شقيةً حتى إن جورجيا ارتابت أن يكون ثمة فخ. حين التقت جورجيا بالبروفيسور مالفوي في حفل العشاء في بروكسل، كانت في غايةٍ من الاضطراب، حتى إن الذكرى الوحيدة التي احتفظت بها عنه كانت ذكرى مشوَّشةً عن كرم أخلاقٍ هائل يشمل به كلَّ مَن حوله، بالإضافة إلى صمتٍ مهيب.

سألت جورجيا كلير: «هل درجته فخرية؟ أليس عالِمًا حقًّا؟»

عند سؤاله انفجر كلير في ضحكٍ شبه هستيري.

ثم قال وهو ينهج: «قطعًا. إنها فخرية. إنها تفاهات يسلِّمونها إلى أشخاصٍ ذوي منزلة رفيعة، لا يعرفون كيف يكتبون أسماءهم.»

فقالت ميفيس تشرح بتفاخر: «أحيانًا ما يرتدي الملك والملكة لدينا الزيَّ الأكاديمي للتخرُّج. لكنهما لا يضطران إلى الخضوع للاختبارات أولًا. فالعائلة المالكة الإنجليزية تعرف كلَّ شيء.»

غيرَ مدركةٍ أنها خفَّفت من توتُّر الموقف، سرَّ ميفيس نجاحُها في إضحاك الجميع.

أما جورجيا فقد شعرت أنها عوملت بفظاظة. فقد جعلها الموقف، مقرونًا بأسلوب السيدة فاندربانت النيِّق في التعامل، في ارتباك وانزعاج.

وبينما هي تتمشى مع الكونت تحت ضوء النجوم بعد خروجهما من المنزل؛ لكيلا يلوثا الصالون بدخان سجائرهما، سألته باستياء: «لماذا ضحِك كلير من سؤالي العادي؟»

فأجابها بلا اكتراث: «إنه مجنون.»

«من المؤكَّد أنه غريب الأطوار. من الأفضل أن نتصارح يا جوستاف. إذا كان سيبقى هنا، فلن أبقى أنا.»

«فلتأخذيه وعدًا مني إذن يا عزيزتي. من المؤكَّد أنك أنتِ مَن سيبقى.»

وقد ضحِك هو الآخر لسبب غير مفهوم أثناء كلامه.

وكان الموقف الثاني أكثرَ إزعاجًا، بما أنه جمعها في واقعة بغيضة مع مضيِّفتها. كان المنزل مبنيًّا على منحدرٍ، فكانت هناك حجرات أسفل درجات السُّلم والشرفة الأماميتَين. ولَّما لم يكن أحدٌ قد أطلع جورجيا على المطابخ، قرَّرت ذات صباح، بصفتها سيدةَ المنزل المستقبلية، أن تستكشف الطابق شبه السفلي.

حين فتحت البابَ المؤدي إلى أسفل، نزلت درجاتٍ عريضة حتى وصلت إلى قاعةٍ بهية المنظر. كان باب المطبخ مفتوحًا، كاشفًا عن اثنين من الخَدم. أحدهما القروية الممتلئة الجسم التي قدَّمت إليهم وجباتهم خارج المنزل. والآخر كان يرتدي زيَّ أهل البلد؛ سروالًا قصيرًا أصفرَ متسخًا من جلد الماعز، وجواربَ من الصوف الممشَّط الأزرق مربوطةً بشُرَّابة، ومعطفًا طويلًا أزرقَ بصفَّين من الأزرار، وقبعةً كبيرة سوداء من اللَّبَد.

تحت ظلِّها التمعت عيناه في وجهه الأحمر الضخم وهو يوجِّه بريقهما نحو جورجيا. بدا وجهه مألوفًا وإن كانت لم تستطِع أن تتذكَّر موقفًا جمعهما قبل ذلك.

وعند رؤيتها هبَّ واقفًا وسار متعثرًا نحو الباب الخارجي، من دون أن يخلع قبَّعته. وفي الحال لاحظت أن الجو كان معبأً بدخانٍ كثيفٍ وأنه كان يخبئ غليونًا، وهو ما قد يكون السبب لانسحابه.

كانت لا تزال ترنو إليه حين سمِعت صوت السيدة فاندربانت.

«إذا احتجتِ أيَّ شيء، فما عليك سوى أن تدقي الجرس وسيأتيك الخدم به.»

استفزَّ جورجيا نبرةُ الاستنكار البارد في صوتها، ودفعتها إلى الدفاع عن نفسها.

فقالت: «إنني على علمٍ بآداب السلوك الصحيحة. فقط أردت رؤيةَ الأجزاء الداخلية من منزلي المستقبلي.»

«سيسرُّني أن أرافقك.»

ومع قلةِ العاملين، كان الطابق السفلي نظيفًا ويحتوي على الأجهزة الموفِّرة للمجهود التي تباهى بها الكونت. لم يكن ثمة أثرٌ للخادم العديم اللياقة، وارتأت جورجيا أنه من الحكمة ألَّا تأتي على ذكره. أجرَت جورجيا حديثًا متكلِّفًا مع مضيِّفتها، ثم فرَّت بأسرعِ ما يمكن صاعدةً لاستنشاق الهواء.

كان الجو في اليوم التالي مثاليًّا، حتى إنه ظل عالقًا بذاكرتها وقتًا طويلًا فيما بعد. فقد كانت السماء شديدةَ الزرقة، حتى إن انعكاسها حوَّل البحر إلى صفحةٍ من الياقوت الأزرق. وقد سرَت ريحٌ قويةٌ فأثارَت الزَّبد وتوَّجت به كل موجة، ودَوَّت بين أشجار الصنوبر مثل نغمةٍ متكررةٍ مكتومة.

كعادتها، أمضت جورجيا يومَها في الهواء الطلق. في الصباح دعاها الكونت لركوب القارب معه والسباحة في البحر. لكنها لم تستطِع البقاء طويلًا في البحر؛ إذ كان هائجًا، وبعد عودتها إلى حمَّام السباحة، رغم شعورها بالانتعاش من الماء المالح البارد، فقد أحسَّت بألمٍ في عضلاتها مما بذلته من مجهود.

حين انتهى الغداء تركت الآخرين، وصعِدت إلى السطح المستوي للمنزل. فاستلقَت على كومةٍ من الوسائد، وانهالت عليها أشعة الشمس، ومرَّت الريح فوق رأسها، وسرعان ما شعرت بالنُّعاس. بدا هديرُ الأمواج في ارتطامها بالصخور وحفيفُ أشجار الصنوبر، الممتزجان معًا، مثل صوت مدفعية آتٍ من بعيد في إيقاعٍ هامس لتخلُد جورجيا إلى النوم على وقعه.

حين استيقظَت كان الجو أبردَ والسماء مغطاة بسُحب بيضاء كثيفة. لم يكن في يدها ساعة، فلم يسَعها إلا تخمين الوقت. كان قد وُضع بجوارها صينية شاي، لكن خاب أملها لمَّا وجدت إبريق الشاي باردًا كالثلج.

قالت تحدِّث نفسها: «لا بد أن الوقت قد تأخَّر بعض الشيء. من الأفضل أن أذهب وأتهيأ للعشاء ... تُرى أين صغيرتَي الآن.»

بدا السطح موحشًا وباردًا وهي هناك وحدَها. وبينما هي تحاول الإنصات لسماع صوتهما وسط دوي الأمواج المتكسرة، أدركت مدى افتقادها لهما.

فأقرَّت قائلة: «لا قِبَل لي بالبقاء هنا من دونهما. إن اضطُرتا إلى العودة إلى إنجلترا من أجل دراستهما، فلا بد أن أذهب معهما. لا جدوى من الاستمرار في خداع نفسي. فلستُ امرأة فاتنة. ولم يكن مقدَّرًا لي البتة أن أكون عاشقة.»

وجعلت تضحك من نفسِها ومن ادعاءاتها، وهي تواجه حقيقةَ أنها لم تُرِد منافسة بطلات رواياتها.

وقالت لنفسها: «إنني من أولئك النساء اللواتي يضعْنَ أطفالَهن في المقام الأول. أنا امرأة مضجرة جدًّا.»

كانت تواقة لرؤيتهما مرةً أخرى بعد فراق بضع ساعات فقط. كأن هاجسًا ملحًّا ينبِّهها لإدراك قيمتهما، قبل فوات الأوان. أسرعت تجرجر معطفَ البحر ونزلت السُّلم القصير المؤدي من السطح إلى البسطة.

جذبت انتباهَها عن غرضها رائحةُ تبغٍ قوية. ولمَّا كان أمرًا غير مألوف، توقَّفت تتساءل مَن المسئول عنها.

وقالَت تُحدِّث نفسَها غيرَ مصدِّقة: «أعتقد أن ثمَّة شخصًا يدخِّن في حجرة السيدة فاندربانت.»

نمَّت هذه الفكرة عن تعدٍّ صارخ، حتى إنها شعرت باضطرارٍ إلى إشباع فضولها. تسلَّلت إلى الشرفة المشمسة، وعبَرت إلى نهايتها في هدوء، إلى أن أصبحَت قادرةً على اختلاس النظر داخل الغرفة.

كان ثمَّة شخصان يدخنان ويشربان سويًّا، بجانب منضدة عليها زجاجةُ براندي وكئوس. أحدهما هو القروي القليل الذوق الذي رأته اليوم السابق في المطبخ. والآخر كان السيدة فاندربانت.

وبينما جورجيا تحدِّق في السيجار المتدلي بين شفتَيها، عاودها فزعُ ذكرى محظورة. وفي نفس اللحظة، كأن غشاوةً انزاحَت عن عينَيها، تعرَّفت إلى الرجل. كان البروفيسور

مالفوي بشعره الأبيض القصير المجعَّد، لكن دون الوجاهة التي أكسبَتْه إياها النظارة ذات الإطار الذهبي والملابس الرسمية.

عادت بها خواطرها إلى ليلة حفل العشاء في بروكسل، حين استيقظَت لتكتشف أن حجرتها قد تغيَّرت.

فقالت لنفسها: «لم يكن حُلمًا إذن.»

وفجأةً تذكَّرت كيف أن ابنتَيها تشبَّثتا بها وتوسَّلتا إليها ألَّا تأتي إلى الجزيرة. أكَّدت الذكرى المقترنة بحكاية الكونت عن فرسه التي بدَت غير ذات صلة على هذه الفكرة تأكيدًا فظيعًا.

لم يكن حَدْسهما خطأً. كانتا تعلمان أن ثمة خطرًا ينتظرها، لكنها عارضتهما بما لها من سلطة الأمومة. وفي لحظة الإدراك تلك، كانت العاطفة الأقوى هي الغضب العارم من نفسها.

إذ انفجرت غضبًا تقول: «حمقاء! حمقاء! لا بد أن نهرُب في الحال.»

لكنها كانت تعلم بداخلها أن الأوان قد فات بالفعل.

الفصل الرابع عشر

سيدة سوداء الشعر

دار رأس جورجيا بها وهي تهبِط السُّلم مهرولةً في بحثٍ محمومٍ عن ابنتَيها. وقد توقَّعت في حالتها المضطربة آلام الفجيعة. كان ذهولها من مفاجأة تحوُّل السيدة فاندربانت من سيدة نبيلة إلى امرأة بغيضة؛ أشدَّ من أن تستطيع ربطه بتطورات مستقبلية، لكن صرخ حسُّها الغريزي ينبهها إلى أنها في وسطٍ فاسد، وأنها قد ورَّطت ابنتَيها في كارثة محقَّقة.

وعلى حين غِرة سمِعت أصواتهما من بعيدٍ وهما تصعَدان التل خروجًا من حمام السباحة. فعبَرت الأرض المكسوَّة بالحشائش عدوًا حتى لاقَتْهما بمجرَّد خروجهما من ظلال أشجار الصنوبر. وكالعادة، كانتا ترتديان ملابسَ متشابهة؛ سراويلَ من الصوف الأزرق وقمصانًا محبوكة. كان منظرهما يشي بالصحة والسعادة، وخُصلات شعرهما الذهبي البني المتشابك تتطاير على وجهيهما المسفوعين من الشمس، حتى إنها شعرت بغُصة في حلقها.

لم تملك جورجيا التوقُّف عن ضمهما بين ذراعَيها إلا بقدرٍ كبيرٍ من السيطرة على النفس.

ثم سألتهما بتلطُّف: «هل حظيتما بوقتٍ ممتع؟»

فأجابت ميفيس بعبوس: «كان هادئًا فحسب. لكن ميرل في حالة هياج.»

فتدخَّلت ميرل تقول بنبرة انتصار: «إنني على حقٍّ مرة أخرى. حين أصير سيدةً لن أخبر بناتي أبدًا أنهن مخطئات.»

فقالت ميفيس في محاولةٍ خرقاء لدخول دائرة الضوء: «وأنا ستصير كل بناتي دوقات وكونتيسات.»

رفضت ميرل التأثُّر بما قالته، مدركة أن لديها حقًّا أكبرَ في التميز.

وقالت: «عديني يا أمَّاه أن تأتي معي إلى الصالون في الحال. وساعتئذٍ سترين أنني على حق مرةً أخرى.»

«حسنًا.»

شاعرةً أنها لا تستطيع تحمُّل الافتراق عنهما، سارت جورجيا معهما إلى المنزل. وبينما هي في صحبتهما بدا أن الكابوس البشع في سبيله لأن ينحسر؛ فقد قويت أعصابها بوجودهما الذي أيقظ روحها القتالية.

وحدَّثت نفسها وقد عقدت عَزْمها: «سأصارح الكونت في الحال. وسأصرُّ على الرحيل فورًا. فلا يمكنه إبقائي دون إرادتي.»

كان استخدامها لقبَه مقياسًا للمسافة التي قطعتها حين اختلَت بنفسها. فهي لن تفكر أو تتحدث ثانيةً أبدًا عن شخص كانت تدعوه فيما سبق باسم «جوستاف». فقد صار ذلك الشخص ضربًا من الخيال مثله مثل الحصان الوحيد القرن.

وبينما هن يصعَدن درجات الشرفة، تحدَّثت جورجيا إلى الصغيرتَين، شاعرةً بأنه لا بد أن يبدوَ كل شيء طبيعيًّا على السطح، من أجل مصلحتهما.

فقالت: «اصعدا إلى الطابق العلوي مباشرةً وارتديا ملابسكما من أجل العشاء. وانتظراني في حجرتي. فلن أتأخر.»

لكن ميرل قالت بإصرار: «لكن يجب أن تدخلي حجرةَ الاستقبال أولًا.»

فسألتها جورجيا التي كانت قد نسيت بالفعل لغزَ ميرل الصغير: «لماذا؟»

«مفاجأة.»

طالعَتها الصغيرتان من فوق السُّلم بوجهين يضجَّان بالضحك والمزاح، أثناء دخولها من الباب المفتوح إلى حجرة الاستقبال. بدت الحجرة خالية في البداية. لكن حين أجالت ببصرها، لاحظت أن ثمة شخصًا مستلقيًا على إحدى الأرائك.

كان موليًا لها ظهره، لكنها استطاعت أن ترى قدمًا ممدودة على كرسيٍّ. وحين اقتربت لاحظت نعلًا فضيًّا وأظافرَ مطلية باللون القرمزي، وفي الوقت نفسه شمَّت عبيرَ زهور خشخاش كاليفورنيا.

فقالت لنفسها باستهزاء: «واحدة أخرى من ضيفات الكونت الذي قال إنهن لا يأتين. لكن لم يَعُد هذا مهمًّا.»

ومع أنها كانت مستعدة لرؤية كائن غريب، فقد تجاوز الشخص المستلقي على الأريكة بهيئته الفارعة النحيلة توقُّعاتها بشأن الدعة والفتنة. إذ كان رأسها مندسًّا وسط

الوسائد، حتى إنه كان من الصعب رؤية شَعرها، لكن كان من المستحيل السهو عن فتنةِ وجهها التي أبرزتها طبقةٌ ثقيلة من مساحيق التجميل.

فقد كانت شفتاها في حُمرة زهرة الجيرانيوم، ووجنتاها ورديتَين مثل القرنفل، وحاجباها خطَّين رفيعَين منسابَين، وأهدابها كثيفة لدرجةِ أنه لا يمكن إلا أن تكون مستعارة. وكانت ترتدي فستانًا مريحًا خفيفًا بلا كمَّين باللونَين الأرجواني والوردي، ولا تزدان من المجوهرات إلا بقُرطَين طويلَين من الأماتيست.

كان بجانبها، على منضدة زجاجية دائرية صغيرة، وعاءٌ لمزج الكوكتيل وكئوس. نفثت دائرة من دخان السيجارة التي كانت تدخِّنها، وهي تحدِّق في جورجيا بصمت. ثم رفعت نفسها على أحد مرفقيها، وصبَّت كأسًا من الكوكتيل بشيء من الصعوبة.

وأمرَت جورجيا بأسلوب جافٍّ: «اشربيه. واجلسي. فإنك بصدد صدمة.»

دفعت جورجيا الكأس جانبًا، وهي تحدِّق مشدوهةً في الفتاة المتزينة بمساحيق التجميل. ورغم أن وجهها كان مألوفًا فقد قاومَت جورجيا فزع أن تكون هي مَن تَخالها.

فسألتها: «مَن أنتِ؟»

فقالت الفتاة: «دعي عنكِ هذا السؤال. فأنتِ تعرفين.»

«لا أعلم. لا أعلم.»

«ها أنتِ ذي تدركين الأمر برُمته. نعم، أنتِ على حق. أنا كلير.»

كانت جورجيا قد أدركت الحقيقةَ قبل ذلك بلحظة. كان هذا استمرارًا لحُلمٍ تحوَّل إلى واقعٍ بشع: الشاب البغيض المتودد ذي الوجه المغطَّى بمساحيق التجميل.

وإذا بجورجيا تشعر بغضب شديد من ذلك الشخص المستلقي على الأريكة.

فقالت تلتقط أنفاسها: «كيف تجرؤ؟ انهض حالًا وكفَّ عن هذا التنكُّر الشنيع.»

حدَّق فيها كلير دون أن يطرِف له جَفن قبل أن يرفع صوته مناديًا.

«جوستاف.»

انفرجت ستائرُ التجويف القائم في الجدار، وخرج الكونت من حجرة المكتب يمشي الهوينى، وقد ارتدى ملابس المساء.

ناداه كلير مرةً أخرى وقال: «جوستاف. من الأفضل أن تقدمني للسيدة صديقتك.»

ضيَّق عينيه مبتسمًا ابتسامةَ تفكُّه.

وقال بثقة: «يا سيدة يو، أقدِّم لكِ الكونتيسة.»

في البدء ظنَّت جورجيا أنها ستفقد الوعي. فقد ارتعشت ركبتاها بشدة وبرَد وجهها. واحتبس داخل رأسها صخبٌ من الأصوات المتنافرة: ما بين أصواتٍ علَت بالغضب وجلبة من الأبواق، ثم تضاءلت حتى تحولت إلى صوت طفولي.

«سيدة ذات شعر أسود وكلب داكن اللون ... إنها سيدة بالطبع.»

ولما بدأت الحجرة تدور بها، مدَّت يدها تلقائيًّا، في محاولةٍ للتشبُّث بأي شيء. وفي الحال عاد كل شيء ثابتًا، وأدركت أنها كانت تنظر إلى فتاة غريبة متبرجة بمساحيق الزينة.

على الرغم من النوبة التي داهمتها للتو، فقد شعرت بالهدوء يعاودها وأنها مسيطرةٌ على نفسها. كانت تعلم أنها لا بد أن تستجمع قوَّتها، لاعتماد الطفلتَين عليها في أمر سلامتهما. وعلاوة على ذلك، فقد جابهت كلَّ هذا من قبل. فقد بدا كأنها بالأمس فقط قد تلقَّت الضربةَ المزدوجة للموت والفقر، لتُبعث إلى الحياة مرةً أخرى بتأثيرٍ من نفس الحافز.

والحافز هو ابنتاها ... هكذا كان صوتها ثابتًا وهي تتحدَّث مع الكونت.

«أرجوك أن تتخذ الاستعدادات لرحيلنا في الحال.»

فقال موضحًا موقفه: «لا. هذا مستحيل تمامًا. فأنتِ الدجاجة التي ستبيض لنا ذهبًا. ولا أقصد بقولي «دجاجة» أنكِ ساذَجة. لا، فإنكِ ذكية، ذكية حتى إنكِ ستجنين لنا مبلغًا نافعًا من المال.»

«ماذا تقصد؟»

«الكلام واضح. لقد قلتِ بنفسكِ إنكِ ستستطيعين الكتابةَ هنا في هذه الأجواء المثالية. ليس هناك شيء لتشتكي منه. ابنتاكِ بخير وسعيدتان. ولديكِ كل أسباب الرفاهية. ولا مصدر للقلق. فقط هدوء شامل.»

ارتمت جورجيا على أقربِ مقعد وغطَّت عينَيها بيدها، في محاولةٍ للتركيز.

وسألته: «هل اختطفتني؟ هل هذه مؤامرة مجنونة؟ أخبرني بكل شيء.»

فقالت كلير تنصحه: «أخبِرها الحقيقة دون تجميل. فهذا سيوفر الوقت.»

فقال الكونت موافقًا باقتضاب: «ليكن إذن. الوضع كالآتي. أنا وزملائي أعضاء في مؤسسة دولية. وشعارنا التجاري هو: «أنت تريد أفضل استثمارات، ونحن لدينا ما تريد».»

فقالت كلير: «خطأ. إنه: «أنت لديك المال، ونحن نريده».»

قرص الكونت واحدةً من أصابع قدمِها مداعبًا إياها.

ثم أقر بابتسامةٍ ساحرة وقال: «تقصد أننا نصَّابون. لكننا لا نسعى من أجل الأرباح الحقيرة. كنا مؤخرًا قد خطَّطنا للحصول على مبلغ كبير، لكن باءت خطتنا بالفشل وخرجنا منها مفلسين، بعد أن أنفقنا رأس مالنا كلَّه في الاستعدادات المبدئية. والآن لدينا فرصة لجني مبلغ كبير، بنفس الطريقة، في ريو، لكننا مفلسون لدرجةٍ لا تسمح بتمويل المشروع ... فلا بد من الوقت والصبر ورأس المال لنترك الانطباع اللازم في المشروعات الكبيرة. جوهر النجاح هو بناء الثقة.»

تذكَّرت جورجيا درجة الترف التي كانت الأسرة تعيشها في بروكسل، والبذخ الذي كان الكونت ينفق به حين التقت به. ولما كان آنذاك — حسب قصته — مفلسًا رسميًّا، بدا هذا الإنفاق من قبيل الرهان اليائس.

سألته بهدوء: «متى صرت في خطتك؟»

فأجابها الكونت: «بالمصادفة. كنت في بروكسل، أحاول جَمْع المال من أجل مشروعنا المربح هذا العام. طرقتُ سبيلًا تلو سبيل. لكن دون جدوى. وحين رأيت اسمَكِ في لائحة الفندق، أجريت الاستعلامات اللازمة بشأنِ حقوقك الفكرية بصفتك مؤلِّفة وما يعتريها من مشكلات. ثم أخبرتنا أنتِ أنكِ استثمرتِ مدخراتك في وديعة، فصرفت النظر عن الخطة برُمتها، إلى أن خطرت لفان العجوز فكرةُ أن نصير وكلاء لأعمالك الأدبية. وورثة حقوقك الأدبية.»

ضحِكت جورجيا ضحكة خفيضة. رغم أن الموقف بدا أعجب من أن تصدِّقه، فقد روَّعها كشفه عن شخصيته الإجرامية بعد إزالة الأقنعة.

قالت جورجيا: «لقد خضنا في هذا الأمر من قبل. وأوضحت لك أن قدرتي على الإبداع نضَبت. ولا يزال هذا الوضع قائمًا.»

فأفصح الكونت متحمسًا: «لكن بإمكاني أن أعطيكِ حبكة. حبكة جيدة. وسيمكنكِ أن تبثِّي فيها الحياة. لقد رسمتها تلك الليلة قبل أن أتقدَّم لخطبتك ... حسنًا؟ هل نحن متفاهمان؟»

«بدأت أفهمك. وعليك الآن أن تحاول أن تفهمني. لا شأن لي بخطتك المجنونة. ومن ناحيتي، يُفضل أن تُعِدَّ العُدة لنعود إلى إنجلترا وتوفِّر على نفسك نفقات معيشتنا.»

نظر إليها بدهشة — يخالطها إعجاب طفيف — إذ كان يتوقع أن تدخل في نوبة هيستيرية. فبدلًا من نحيب الأرملة التي احتقرها وعدَّها نكرة، وجدها تتصدى له ببأسٍ لم يتخيَّله.

فذكَّرها قائلًا: «ماذا عن المال؟»

«ما زال لديَّ مبلغٌ احتياطي. سأُرسل برقيةً لأطلب إرساله.»

«ذلك المبلغ؟ تذكَّرته. لكنه لا يكفي. حتى عوائد كتابك القادم بأكملها لن تكفي، لكنها ستتكفل بنفقاتنا حتى نجد ربحًا أكبر مع ...»

أكملت كلير جملته قائلةً بغلظة: «مغفَّلة أخرى.»

فقامت جورجيا عن كرسيها.

وقالت: «لن أنزل لتناول العشاء بالطبع. لكن سأرسل ابنتيَّ. يجب ألَّا يخالجهما أيُّ شك. هل تَعِدني بذلك؟ فإنك مَدين لي على كل حال.»

فابتسم الكونت وقال: «نعم. مَدين لكِ لقاء خسارة وهم رقيق. فقد كنتِ مُدلهة في حبي. إنهن هكذا دائمًا. لذا أعدكِ أن تبقى الصغيرتان جاهلتَين بما يجري.»

صعِدت جورجيا الطابق العلوي يحدوها أملٌ ضعيف. فقد استنتجت أن الكونت، ما دامت تعارضه، لن يستطيع إجبارها على طاعته حتى وهو يحتبسها. قد يساومها فيلحُّ في المساومة، لكن أيًّا كان السعر، فقد بدا في تلك اللحظة زهيدًا.

كانت الصغيرتان مشغولتَين، تضفر كلٌّ منهما شعرَ الأخرى بالشرائط، وقد ارتدَتا من فورهما فساتينهما البيضاء الخاصة بالحفلات.

هتفت ميرل: «أليست كلير أضحوكة؟ لقد ضحِكنا منها كثيرًا.»

فقالت لهما جورجيا: «تبدوان مثل مُهرتَين في معرض. تستحقَّان الجائزةَ الأولى كلتاكما. هيا اذهبا سريعًا إلى العشاء الآن.»

وعند ذهابهما، قرَّرت استغلال أنها وحدَها وبدأت حزمَ الأمتعة، لكنها ما إن شرعت تجمع بعضًا من الملابس الإضافية، حتى انفتح الباب وهُرعت الصغيرتان إلى الحجرة.

وفي حالةٍ من السخط الممتزج بالشفقة على الذات، طفقتا تنشجان وتحكيان ما حصل.

«لا يوجد عشاء. ونحن جائعتان جدًّا.»

سقط الحذاء من يد جورجيا، كأنها قد شُلت فجأة، ووقفت تحدق فيهما بعينَين بائستَين.

انفجرت ميفيس قائلة: «يقولون إن المؤنَ قد نفِدت. لا يمكن لشيءٍ مريعٍ كهذا أن يحدث في إنجلترا. لا يمكن.»

فسألتهما جورجيا بوهن: «ألم يتناول أي أحد العشاء؟»

«لا، لم يكن هناك أحد على الاطلاق. ولم يكن هناك عشاء، فقط ملاعق وشُوَك. فنزلنا إلى المطبخ، لكنَّ رجلًا ضخمًا بقبعة سوداء طاردنا. حاولت واندا أن توقفه، فسدَّد إليها ضربة ... وأنا جائعة جدًّا.»

وانتحبت ميرل: «وأنا أتضور جوعًا.»

شعرت جورجيا بوجهها باردًا وجامدًا، وهي تتخيَّل صغيرتَيها تحاولان اقتحام المطبخ، مثل حيوانات صغيرة جائعة.

قالت لهما: «لا تبكيا يا صغيرتَيَّ. إنه خطأ بسيط. وسأذهب لتصحيحه.»

متتبِّعةً صوت الضحك، سارعت جورجيا إلى مخدعِ الكونت. وكما توقعت، كان هو وكلير يتناولان عشاءهما معًا. كانا عند دخولها يشدان ترقوة دجاجة، لكنهما توقَّفا ينظران إليها بترقب.

قالت للكونت: «لقد وفيت بوعدك. فلم تعلم ابنتاي بشيء، ولا حتى سبب تجويعهما.»

فعقَّبت كلير قائلة: «صغيرتاكِ المسكينتان ستجوعان أكثر غدًا، إذا لعبتِ دور الأم المتقشفة ولم تطعميهما.»

تحدَّثت جورجيا إلى الكونت متجاهلة كلير.

«لقد استسلمت ... ما هي حبكتك؟»

فأجابها الكونت مستشعرًا الانتصار: «قصتك. ما يحدث لكِ الآن. هذا الموقف بحذافيره.»

وبينما هي تحدق فيه شرع يضحك.

وقال: «إنكِ تعتقدين أنني مجنون؟ تتعجَّبين كيف أجرؤ وأجعلكِ تكتبين عن الأمر، ليعلم أصدقاؤك به؟ لكنكِ نسيتِ أنكِ اشتهرتِ بتأليف روايات الإثارة. ومن الممكن أن تخبري الناس بالواقع، لكنهم سيعتقدون أنه خيال.»

الفصل الخامس عشر

الحبكة

في صباح اليوم التالي، بعد أن تناولت فطورها في حجرتها مباشرةً، قرَّرت جورجيا أن تنهيَ حالة الترقب التي وجدت نفسها فيها بطرح الأسئلة على الكونت. كانت فرصتها الأولى للتحدُّث إليه على انفراد. فبعد عودتها من الإشراف على عشاء الطفلتَين، في المساء السابق، ذهب الكونت مع كلير إلى جناحه.

إلا أن المهلة كانت في مصلحتها؛ رغم أنها لم تنَم، فقد شعرت بنفسها أكثرَ ثباتًا بعد حصولها على قسط من الراحة، وأكثر استعدادًا لمواجهة أي صدمة جديدة.

وقالت لنفسها بعزيمة: «لا بد أن أعلم الاحتمال الأسوأ. فعندئذٍ سأخطِّط لمواجهته.»

وبينما هي تسلك طريقها من خلال الحجرات المتصلة المؤدية إلى خلوةِ الكونت، شعرت بأنها تراها مجددًا لأول مرة. فمع التغيير الجذري في حالتها، رأت جمالها ورونقها غيرَ مناسبَين، مما جعلها تتساءل إن كانت وقعت ضحيةً لوهم بشع.

لكن لم تَبهت الألوان الرقيقة التي كست حجرة الاستقبال — البني المختلط بالرمادي، والبني الفاتح، وأفتح درجات الوردي المصفر — ولم تشُبْها شائبة مثلها مثل ألوان حجرة المكتب التي غطَّت جدرانها ألواح خشبية ذات لون فضي باهت، واكتسَت أرضيتها ببساطٍ أخضر فاتح، زُين بباقاتٍ من زهورٍ زرقاء يخالطها لون أرجواني فاتح. وقد شكَّلت كل نافذة وشرفة مشمسة إطارًا لصورة المحيط بلونه المائل للخضرة، والبقع الأرجوانية المتناثرة فيه — مثل بتلات طافية من شقائق النعمان — تظلله السُّحب المتسابقة.

كانت المنطقة الخاصة بالكونت هي حجرة التدخين. كانت جدرانها المكوَّنة من جذوعٍ مستديرة صُقلت وسُحِجت حتى أعطت سطحًا شديدَ اللمعة، وقد أُسِّست بقطع أثاث ضخمة من مقاعد وأرائك، مكسوة بجلدٍ ذي درجة فاتحة من اللون الوردي المحمر.

والكونت أيضًا، بدا وهو يقوم لملاقاتها مهذبًا ووقورًا كأنه رجل أعمال من الصفوة يرعى شئون مشروع مالي مهم.

نظرت إليه جورجيا وهو يدفع أحدَ المقاعد ثم ينتظرها أن تتحدث. وقد ذكَّرتها عيناه الصافيتان — بزرقتهما الملفتة مقارنةً بوجهه الذي لوَّحته الشمس — بالأمس، حين اختبرت عنفوان البحر المفتوح وبرودته. قبل أقل من ٢٤ ساعة من الآن، كان يضمها بين ذراعيه، ليحميها من بطش الأمواج. ساعتئذٍ أبهرت الشمس عينَيها، وغمرها رذاذ الماء، ونهجت من ابتلاع الماء المالح؛ أما اليوم، فلم يبقَ لديها إلا ذكرى لحظات لسعادة صافية.

قالت لنفسها غير مصدِّقة: «في مثل هذا الوقت أمس، كنت متشبثة به ... كنا نتبادل القُبلات ... هذا مستحيل.»

وهو بدوره راح يلاحظها بنظرة منتقدة، كما لو كانَت برعمًا ذابلًا أوشك أن يقتلعه من عُروة سترته. بدَت ضئيلةً للغاية، وعيناها غائرتان من قلة النوم، لكنها حين تحدثت كان صوتها ثابتًا.

«أريد أن أفهم بوضوح كل صغيرة وكبيرة.»

فقال يطمئنها: «كم هو مريح أن تتعامل مع سيدة أعمال. لا بد أن أحييكِ على ارتفاع روحك المعنوية. لا بد أن كلَّ ما جرى كان مخيبًا لآمالك إلى حدٍّ كبير، لكنكِ على ذلك لم تبكي قط. وتقبَّلته بمنتهى السرعة ... وإنني في الواقع ممتنٌّ لكِ غايةَ الامتنان لإحضاركِ ابنتَيك معكِ إلى هنا ... فإنني لم أُرِدهما، كما تتذكرين، لكنهما جعلتاك أكثرَ استجابة للعقل.»

خبَّره الألم في عينَيها بمقدار نفاذ طعنته.

سألته: «أكان ضروريًّا أن تذكِّرني؟ إن عشتُ مائة عامٍ فلن أستطيع أبدًا أن أنسى ذلك، أو أسامح نفسي عليه.»

«لنتضرَّع إذن ألَّا يمتدَّ بكِ العمر طويلًا. فهي قَطعًا مأساة أن تشيخ المرأة وتفقد سِحرها. لكن هلَّا نعود إلى موضوعنا؟ ما الذي تريدين معرفته أولًا؟»

«المبلغ الأدنى الذي تريده مني. ستكون فرصتك أفضلَ في الحصول عليه إن طلبت مبلغًا معقولًا. وتذكَّر أن هناك حدودًا حتى لدى الدجاجة التي تضع بيضًا ذهبيًّا. سوف أوقِّع لك إقرارًا بالدَّين، مع وعد شرف بتحويل المبلغ بعد عودتي إلى إنجلترا مباشرةً.»

هزَّ الكونت رأسه مبتسمًا ابتسامةً واسعة.

ثم قال موضحًا: «معذرة، لكن الشرف عملةٌ غير متداولة هنا. أنا نفسي ليس لي من الشرف نصيب.»

«هل ستسمح لي إذن أن أفوِّض أمي ووكيلي لجمع هذا المبلغ؟»

«أتقصدين أن تطلبي فدية، كأنكِ مخطوفة؟ لا بد أنكِ فقدتِ عقلكِ. ألم أوضح أن الثقة هي أساس عملنا؟ إن لقبي أصيلٌ وهو من أهم نقاط قوَّتنا. إنني معروف في أفضل الفنادق في كل العواصم الأوروبية. وأنفق بسخاء من دون احتمال طلب قرض أو استدانة. إنني من رجال المجتمع. ويجب أن أكون فوق مستوى الشبهات.»

«كيف يمكن أن تكون كذلك وأنت تحتال على الناس؟»

«لأنه لا يوجد ما يمكن أن ينسبوه إليَّ. صحيح أنني بشخصيتي أؤثِّر على صديقاتي فأسلبهن ثرواتهن بطريقة غير مباشرة. لكن العملية الفعلية دائمًا ما تكون عن طريق طرف ثالث.»

لم يبدُ على جورجيا أثرُ خيبة الأمل حين رفض عروضها. فقد قدَّمتها في محاولة واهنة للاحتيال. أما ما أرادته حقًّا فهو استيضاح الموقف.

قالت: «لنفترض أنني كتبت هذا الكتاب، كيف تنوي الاستفادة منه؟»

فأجابها الكونت قائلًا: «كما كنتِ ستفعلين تمامًا. بقبض ثمنِه مقدَّمًا، بحيث لا يتبقى سوى القليل حين يُنشر. لقد فهمت من صديقنا تورش، حين كان في مزاج مرح، أنكِ عادةً ما تحرصين على الحصول على دفعات مقدَّمًا ... وأعلم من خبراتي أن النساء كلهن ساذجات وطماعات. ولو لم يكُنَّ كذلك لبارت سلعتي. فمهما يكنَّ ثَريَّات، يُرِدن كلهن استثماراتٍ أفضل.»

«لكنني كان لديَّ سبب. فلديَّ ابنتان لا بد من وَضْع مصلحتهما في الاعتبار.»

«لا تُقدِّمي أيَّ أعذارٍ يا عزيزتي. إنني سعيدٌ أنكِ فطنتِ للأمر. رغم أنني سأدَع تورش يجمع المال، فسوف أحافظ على عادتكِ. بصفتي زوجكِ ...»

«زوجي؟»

قال الكونت مبتسمًا أمام وجهها الغاضب: «ألم تكوني تعلمين أننا تزوَّجنا؟ لقد أرسلت بالفعل أولَ تنويهٍ إلى إنجلترا، مكتوبًا تحت صورة لأسرة جميلة، لأُرِيَهم كم نبدو جميعًا سعداءَ.»

كبتت جورجيا سخطَها. فقد أدركت أنه لا جدوى من أن تنفعل عليه، فلن يكون ذلك سوى تبديدٍ لطاقتها الثمينة.

فسألته ببرود: «لماذا كذبت تلك الكذبة؟»

«لإبعاد الزوَّار. أمكِ يصيبها الدُّوار من ركوب البحار ولن تستطيع أن تأتيَ لزيارتنا متى أرادت. وأوزبرت الضئيل رجلٌ محترم ولا يمكن أن يتطفَّل علينا في شهر العسل وقد عرف الوَضْع.»

«أوزبرت ليس ضئيلًا.»

«عجبًا، لكنني دائمًا ما أراه ضئيلًا. ربما أخلِط بينه وبين أخيه.»

لاحظت جورجيا أن غَيرة الكونت سمةٌ أصيلة في طبيعته التافهة، حتى في تلك الأزمة. فهو مستاء من احتمال أن تكون معجبة برجلٍ آخر وإن لم يكن مغرمًا بها.

فقالت تذكِّره: «لكنه قد يأتي. فإننا أصدقاءُ قدامى. وهو يحمل لنا كل الود.»

قالت ذلك والدافع أن تطمئن نفسَها أكثرَ من إقناع الكونت. فهذا من شأنه أن يساعدها على الاعتقاد بأنها لم تتقطع بها السُّبل تمامًا، وهي تُواجِه خطرَ أن تفقد شجاعتها.

لكن الكونت حطَّم أملَها بالمنطق، وهو يلوِّح بالسيجارة ليعبِّر عن كلامه.

«سيجد صعوبةً شديدةً في تحديد موقع الجزيرة. سوف يأتي إلى سالتسوبدن. وهناك سيكون عليه استئجار زورقٍ بخاريٍّ ليقلَّه، لكن إلى أين؟ فلن يستطيع الإدلاء بالاتجاهات أو الموقع. ولن يُفيده أن يذكر اسمي؛ فقد استأجرنا هذه الجزيرة من الطرَف الثالث المعتاد. من الممكن أن يدوروا طَوال اليوم دون أن يصلوا إلى أي مكان، أو يصلوا إلى مكان خطأ. فهناك أكثرُ من ألف جزيرة، والعديد من المساكن الصيفية.»

وبينما هي تُنصِت إليه بانزعاجٍ متزايد، تذكَّرت كيف أنها تحدَّثت ذات مرةٍ مع أوزبرت عن العناوين ممتدحةً سِماتها السحرية.

«إنها تعويذة يا أوزبرت. مجرد بضعة خطوطٍ على الظرف، لكنها تمكِّن الغرباء في أنحاء العالم من التواصل. أليس رائعًا أنها تصل إليك؟»

وها هي ذي الآن من دون هذا الخيط الموصِّل إلى موقعها. صارت مجرد فردٍ بين سكان الأرض المتزاحمين، بلا عنوانٍ بريديٍّ مثلها مثل عامل تراحيل مجهول الهُويَّة. في تلك اللحظة شعرَت كأنها واقفةٌ على حافة تلٍّ رملي مغمورٍ تحت الماء، راح يتفتَّت سريعًا تحت قدمَيها. وسريعًا لن يبقى منه شيءٌ صلب لتقف عليه.

وإذا بها فجأةً تتذكَّر شيئًا فوجدت فيه ما يؤازرها.

فقالت له: «نسيت شيئًا، وهو أن هذه الجزيرة مميزةٌ قَطعًا. فهي بعيدةٌ عن الأخريات، ولا أعتقد أن ثمة منزلًا آخرَ مثل هذا. من الممكن رؤيته بسهولة عند التحليق بطائرة.»

فقال الكونت متفقًا معها في الرأي: «مؤكد أنه يمكن لأي شخصٍ إذا بحث عنه أن يراه من الجو. لكن ليس لدى أوزبرت وصفٌ به. فإنكِ في خطابكِ الأخيرِ إلى إنجلترا قلتِ إن الجزيرة «خلابة» وإنكِ سوف تصفينها لاحقًا.»

«كيف عرفت ذلك؟»

«لقد فتحت الخطاب. وذلك يذكِّرني بشيء. وهو أنني سأكون رقيبًا على كل خطاباتكِ، فلا تغلقي أو تختمي أيَّ شيء. إنني على استعدادٍ لمواجهة كل المراوغات. وفي المستقبل سأملي عليكِ رسائلكِ.»

«كيف ستُفسِّر إذن هذا الزواجَ المزعوم؟»

«هذا أمرٌ سهل. خوفكِ من الدعاية. لكن أول ما يجب أن تفعليه هو نقلُ رصيد أموالكِ إلى حسابي في بنك ستوكهولم. الأمر مستعجل. فإن مُؤننا انخفضَت بشدة. وإذا لم نُعِد التزودَ فستتضور ابنتاكِ جوعًا لأقصى درجة.»

فوعدَته جورجيا من فورها قائلة: «سوف أرسل الطلب حالًا.»

«اليوم. وعليكِ بعد ذلك، وبأسرعِ ما يمكن، أن ترسلي ملخَّص روايتكِ الجديدة إلى تورش، مع دفعة أولى ليحصل على حقوق نَشْرها الإنجليزية والأمريكية.»

وبينما هو يشرح لها، انبثق في قلب جورجيا وميض ضعيف من الأمل، شبيه بالشرر الناتج عن احتكاك الحجر قبل اشتعال النار.

فسألَته: «هل كنت جادًّا بشأن حبكتك؟ هل أكتب إلى هارفي ملخصًا بهذا — هذا الموقف؟»

ردَّ الكونت مؤكدًا: «إنني جاد بالتأكيد. أنا فخور ببنات أفكاري. ومع روائية بقدراتكِ، ستكون الكتابة سلسة. بإمكانكِ أن تصفي مشاعركِ كلَّها وسيوفِّر لكِ كلُّ شيءٍ هنا جوَّ بيئتك المحلية. وبذلك يأتي الكتاب أصيلًا وواقعيًّا. لن تحتاجي إلى ابتكار أي شيء؛ ومن ثَم لن تستغرق الكتابة وقتًا طويلًا. فالوقت ذو أهمية لديَّ.»

خفضت جورجيا نظرها إلى الأرضية الخشبية المجلوَّة، لتخفي اللمعة في عينَيها. وقالت في نفسها: «كل شيء.» لكنها ما إن بدأت تلمح الفرصة التي ستمنحها لها الرخصة الأدبية، حتى حطَّم الكونت آمالها.

«لا بد أن يكون هناك بعضُ الاختلافات المهمة بالطبع. عليكِ الاحتفاظ بالفكرة الأساسية، لكن يجب ألَّا يكون هناك ما يربط بينكِ وبين البطلة. فسوف تكون المؤلِّفة ذات الكتب الأكثر رواجًا في روايتكِ شابةً وفاتنةً وغير متزوجة. يستدرجها إلى الجزيرة نذلٌ جذاب، حيث يحتجزها ويجبرها على كتابة الروايات المثيرة لمصلحته. ويهدِّدها بالقتل حال رفضها. الشرير في روايتكِ سيكون شخصًا غليظًا ولا يلجأ إلى التخطيط.»

«فهمت.» كان على جورجيا أن تجاهد من أجل السيطرة على صوتها وهي تسأله سؤالًا مصيريًّا. «كيف ستنتهي الرواية؟»

مشى الكونت إلى النافذة فأمكنها أن ترى وجهه جانبيًّا على خلفية السماء الزرقاء. بدا عليه الاستغراق في التفكير حتى ضحِك من فكاهة أفكاره.

«ستزعزع البطلة ولاء أحد أفراد عصابة الكونت. لا بد أن تكون شخصيته أكثرَ إثارة من أوزبرت التافه ويشكِّل البُعدَ العاطفي في الرواية. ولكِ أن تفعلي ما تشائين بخصوص مصير الشرير.»

«أمره لا يهمني لدرجةِ الاكتراث لمصيره. ثمة أمرٌ آخر أود معرفته. وهو متى ستسمح لنا بالعودة إلى إنجلترا؟»

«بمجرد إتمام الكتاب. لكنني لن أكون هنا. فبمجرد الحصول على المال من الدفعات المقدَّمة لكتابكِ، سأرحل للعثور على ذلك المغفَّل الثري. السيدة أو الرجل الذي سيموِّل مشروعنا الجديد.»

«لقد تكبَّدت كل هذا العناء وخطفتني في سبيل أن توقِع به. تبدو المسألة أعقدَ من أن أصدِّقها.»

«بالعكس، إنها منطقية تمامًا. هل تذكرين تلك القصةَ الخيالية التي تحكي عن الأميرة المسجونة في برج؟ كان لدى منقذها حبل، لكنه لم يستطِع أن يلقيه عاليًا، وهي لم يكن لديها شيء لتدليه له سوى شعرة واحدة. هكذا ربط خيط حرير بتلك الشعرة، وسلك بالخيط، ووتر بالسلك، وحبل بالوتر. خطوات في غاية العبقرية، ونهاية سعيدة.»

أمسك الكونت عن الابتسام أثناء الشرح.

«هذا ما يحدث في حالتكِ. إن لم أستطِع الحصول على مبالغَ كبيرة، فلا بد أن أحصل على مبالغَ بسيطةٍ تساعدني في الوصول إلى المبالغ الكبيرة. ورجل بوضعي الاجتماعي المرموق وسُمعتي الطيبة لا يمكنه السطو على بنك. فإنها مخاطرة كبرى.»

«يبدو إذن أن هذا كلُّ ما في الأمر.»

حين قامت جورجيا عن مقعدها تقدَّم الكونت مسرعًا ليفتح الباب.

وقال: «فلتكوني فتاةً مطيعة وسرعان ما ستعودين إلى إنجلترا. أعدكِ وعدَ شرف.»

فقالت تذكِّره: «شرف؟ الشرف عملةٌ لا أراها مجدية هنا مثلها مثل الفرنك الفرنسي في حافلة في لندن.»

الفصل السادس عشر

بلا عودة

لَمَّا كانت جورجيا في غايةٍ من الانزعاج لدرجةٍ لا تسمح بمواجهة أي أحد، ربضت في حجرة المكتب الأنيقة بألوانها الباهتة. فقد زادت هذه المقابلة من جزعِها بدلًا من أن تُخفِّف عنها الضغط. لقد أكَّد الكونت أسبابَ ثقته في فقدان الاتصال وانقطاع السبل إلى العالَم الخارجي، لكن رغم أن إدراكها لعزلتها عن العالَم كان صادمًا، فقد كانت أسوأ الاحتمالات الواردة لا تزال يكتنفها الغموض.

بينما هي تحملق بذهول إلى رُقَع القماش المزركش بلون رمادي فاتح، المدمجةِ في الجدران المطلية بلونٍ فضي، دخلَت عليها السيدة فاندربانت من حجرة الاستقبال. تذكَّرَت جورجيا الحال التي رَأَتها عليها آخرَ مرةٍ فهبَّت واقفة، في حالةٍ من التوتر والصمت، إلا أن السيدة العجوز تحدَّثت إليها بصوتها المعتاد، كأن شيئًا لم ينكشف.

«عرفت أنكِ ستباشرين الكتابة اليوم، أليس كذلك؟ هل ستنزلين لتناول الغداء أم تفضِّلين أن يأتيَ إليكِ في حجرتكِ؟»

فأجابتها جورجيا بأسلوبٍ دفاعي: «لا. لا أريد أن أُحتَجَز بعيدًا عن ابنتيَّ.»

«لكنهما ستكونان في أمانٍ تام في غيابكِ. فسوف يُعنى برعايتهما شخص خشيةَ أن تسقطا في البحر. إن مصالحنا واحدة فيما يتعلق بهما. إلا أنني أحذركِ من اللجوء إلى الحِيَل. هل تفهمين ما أقصده؟ لقد وضعتِ في أيادينا سلاحًا في غاية الأهمية.»

«هل تقصدين أنهما رهينتان لديكِ؟»

«إنما أذكركِ بأنكِ تكتبين من أجل إطعامهما. والآن دعينا لا نتطرق إلى هذا الموضوع مرة أخرى ... إن جريتا لا تفهم الإنجليزية، لكن أرجوكِ أن تكتبي ملحوظة إن لم يكن الغداء كما تريدين. فالكونت يود أن تحصلي على كل أسباب الراحة والاهتمام.»

«شكرًا.»

كانت جورجيا تتحدَّث بآلية، وقد أذهلتها عودة السيدة فاندربانت للعب دور المضيِّفة. كان من المستحيل أن تحدِّد ما إذا كانت المرأة تأبى التخلي عن سلوكها المتصنع، بهدف المران، أم إن التكلُّف قد صار عادةً مكتسبةً لديها فعلًا. وعلى ذلك فقد انتابها الشعور المعتاد بالاستراحة من التكاليف الاجتماعية، حين غادرت السيدة فاندربانت الحجرة، تاركةً إياها بمفردها.

وبينما هي تحدِّق ببلادة في الجدار المقابل، لاحظت انعكاس صورتها على مرآة ذات إطار فضي. ومع أنها كانت حديثة ومختلفة تمامًا، فقد ذكَّرتها بالمرآة الملطَّخة القديمة في بروكسل التي اتسعت لتحتوي ضيوفَ العشاء في ذلك الحفل. منذ ذلك اليوم والزمن يمضي بلحظات الأمان الثمينة التي تفصلها عن مصيرها؛ بَيْد أنها بدلًا من التحسُّر على الفرصة الضائعة، وجدَت في الذكرى عزاءً لم تتوقعه.

فقد تحدَّثوا ساعتئذٍ عن الرجل الذي أغرق زوجاته في حوض الاستحمام؛ وهاجم الكونت الحماقة الإجرامية للقتل، معربًا أن أي قاتل لا بد أن يكون إما وحشًا أو مخبولًا.

وقد بدت كلماته صادقة؛ إذ كانت جورجيا مقتنعةً بأن حياته أغلى لديه من أن يخاطر بتعريض نفسه للاحتمال البشع أن يموت شنقًا. كانت المبادئ الأخلاقية لعملها المتخصِّص بوصفها كاتبةَ رواياتِ إثارةٍ تحتِّم أن يكون أذكى المجرمين هدفًا لفريق تحقيق لديه من القدرات الذهنية ما يضاهي قدرات هذا المجرم، إن لم تكن تفوقها. وكانت جورجيا مقتنعة بأنه على الرغم من وجود نسبة معينة من الألغاز المستعصية على الحل، فسيظل القتل حتمًا هو أخطرَ أنواع الجرائم على المجرم، بما أنه حتى فيما يُسمَّى بالجريمة الكاملة، لا يمكن التعويل على ألَّا يُكتشف بمحض صدفة غير متوقَّعة أو خطأ غير مقصود.

استقر في يقين جورجيا أن الكونت كان مجرَّد وغد ومحتال عتيد؛ ولما كانت متأكدة كذلك من أنه لا يستطيع احتجازها لأجلٍ غيرِ مسمًّى من دون إثارة الشبهات حوله، بدا أن لمحنتها زمنًا محدَّدًا.

ولمَّا راودها أملٌ ضعيف لأول مرة، شرعت تفكر في الاحتمالات المتاحة للهرب. ثمَّة أملان ضعيفان فقط لا غير. فأمامها أن تتدبَّر طريقةً تجعل بها تورش يفهم أن روايتها المقررة ما هي في الواقع إلا مأساتها؛ أو أن تأخذ بالاقتراح الساخر للكونت، وتجد حليفًا لها على الجزيرة.

قالت جورجيا: «قد تكون كلير متورطةً رغم إرادتها. لكن لن يؤدي بي هذا إلى نتيجة. سوف أكتب رسالةً إلى البنك، وأتمنى أن يكون لدى أحد الأشخاص هناك قدراتٌ خارقةٌ فيُدرك أن ثمة خطأً ما.»

حين دخلت جورجيا إلى حجرة الاستقبال، استوقفها منظر كلير، وهي جالسة في استرخاء على مقعد وثير. كانت ترتدي سروالًا، لكن مع الاحتفاظ بزينتها ورموشها المصطنعة. ولما نظرت جورجيا إلى أصابعها الرشيقة وأذنَيها الصغيرتَين، تساءلت لماذا كانت غافلةً عما بدا جليًّا لميرل منذ اللحظة الأولى.

حدَّقت الفتاة بعدوانية نحو جورجيا، كأنها تتوقَّع منها التوبيخ وتستعد له بالرد. لكن لمَّا لم تنطِق جورجيا بشيء، تابعَت كلير تفحُّص أظافرها.

ثم تذمَّرت قائلة: «تبًّا، لم أتخلَّص بعدُ من أثر مواد تحميض الصور على أظافري. لا بأس ما دامت فداءً للحب. ولكن لديَّ مجموعة رائعة من الصور لأرسلها إلى أهلكِ في إنجلترا. تَبدين سعيدة جدًّا فيها حتى إنهم سينخدعون تمامًا. نخطط لإرسال صورة شهريًّا حتى يظلوا مطَّلعين على آخرِ أخباركِ. ولا يوجد ما يمكن أن يشيَ بالموسم الذي التُقِطت فيه مع خلفية الصخور والبحر؛ لذا لن يعرفوا أن الصور كلها التُقِطَت في نفس الوقت. كما تعلمين، كان علينا التقاط نظرة الحب المتألقة في عينيكِ.»

هنا تذكَّرت جورجيا كثرةَ تغيير الملابس، وحرصَهم على التقاط الصور لها، وكيف أجبروها على ارتداء الفرو في يومٍ شديد الحرارة.

فعلَّقت بهدوء: «لقد دبرتم لكل صغيرة وكبيرة.»

«بالتأكيد. نحن نرسم تفاصيلَ كل خطة. هذا هو سرُّ نجاحنا. لكنكِ كنتِ ساذَجة إلى حد كبير.»

قالت جورجيا: «كنت كذلك.» وجلست قُبالة كلير. ثم قالت: «إنكِ على علم بموضوع الكتاب. سوف أجعلكِ واحدةً من شخصيات كتابي. فهلَّا تُعطينني بعض التفاصيل عن حياتكِ؟»

«فلتسألي.»

«كم تبلغين من العمر؟»

«اثنين وعشرين.»

«اثنين وعشرين فقط ... كيف تورَّطتِ إذن في هذه الأعمال؟»

حملقت كلير فيها بعينَين متشكِّكتَين عِدائيتَين.

ثم رضخت وأجابت بعد هنيهة: «حسنًا. ها هي ذي القصة. أنا يتيمة، نصفي كوبي، ونصفي الآخر أمريكي. ورِثت ثروة. ثم التقيت بجوستاف، فاستولى عليها. إلا أنه لم يكن بارعًا كعادته فاستطعت معرفةَ أسراره. وتملَّكني الغضب. فانقضضت عليه وتشابكنا في عِراك. يا إلهي، كانت معركة رائعة. لقد غرزت أسناني فيه وهو أصابني بالكدمات في كلتا عينيَّ. إنه يحب الجرأة. ولذلك تزوجني.»

«هل يُفترض بي أن أهنئكِ؟»

«فلتنزلي من عليائكِ. إنني شريكته في كل شيء. وأنا مولعة بكلِّ ما في الأمر، بإثارته ومجازفته. كان من الممكن أن أتزوج من أي شاب أمريكي شريف، لديه مبلغ ضخم تأمينًا على الحياة، يحترمني لدرجة بالغة فلا يقدِم على إيذائي بالضرب. لكنني كنت سأفتقد الحياة. خلاصة الأمر، إنني أفضِّل أن يلويَ جوستاف عنقي على أن أعود إلى الولايات المتحدة على متن طائرة فاخرة.»

استمعت جورجيا إليها وقد انطفأت آمالها. فقد بدَت محاولةُ استمالة هذه الفتاة المهووسة بشغفها محاولةً عقيمة. هذا إذن هو سرُّ الابتسامة التي ارتسمت على شفتي الكونت وهو يدلي بالاقتراح. لكن لمَّا كانت كلير تتحدث بلا تحفُّظ، استجمعت جورجيا شجاعتها لتُشير إلى مصيرها.

فقالت: «قلتِ إنكِ على علمٍ بكل شيء. أعتقد أنه سيُسمح لي بالعودة إلى بلادي حين أنتهي من هذا الكتاب، أليس كذلك؟»

أشاحت كلير بنظرها.

وقالت بلا مبالاة: «بالتأكيد. لقد وجدتِ رحلة المجيء سهلة، أليس كذلك؟ كذلك رحلة الرجوع، كلُّ ما هناك أن القارب سيكون في الاتجاه الآخر.»

«هذا غيرُ حقيقي. أريد معرفةَ كل شيء.»

سحبت كلير نفَسًا ثم نفثت الدخان من منخارَيها قبل أن تتكلَّم بنبرة ازدراء.

«أنتِ حمقاء وأنا لا أشفق على الحمقى. ما الذي جعلكِ تتخيَّلين أن جوستاف قد يُغرم بكِ أنتِ؟»

فأجابت جورجيا بجرأة: «ربما لأن ثمة رجلًا أفضل منه بكثير مغرَم بي.»

«أعلم. لا بد أنه ناشرٌ ما ذو نظارة كبيرة العدسات. لا يمكن أن تقارني بين جوستاف وأي رجل آخر. لقد عشت معه. أنتِ لا تفقهين شيئًا.»

«إننا لا نقصد الشيء نفسه حين نتحدَّث عن الحب.»

هذه المناوشة جعلت جورجيا تدرك أن كلير كانت لا تزال تشعر بالغَيرة منها، وأنها لا يمكن أن تتوقَّع منها رأفة. وقد كانت عينا الفتاة خاليتَين من الشفقة حين تحدَّثت أخيرًا.

«ما زلتِ بي تستفزينني. وأنا سأعطيكِ ما تريدين … إنني مهووسة بجوستاف. أحبه حبًّا مَلَك عليَّ قلبي وعقلي. لكنه في البداية لم يكن سوى الرجل الذي سلب مني ثروتي. لماذا تزوجته في اعتقادكِ؟»

«كيف لي أن أعرف ذلك؟»

«حمقاء. السبب هو أنني أردت البقاء على قيد الحياة … هل تعتقدين أنهم قد يسمحون — لأي شخص — بالعودة ليكشفَ سرَّهم؟»

«تقصدين …»

وإذا بصوت جورجيا يخذلها والحجرة تصير غائمة. ثم شعرت بحافة كأس تحتكُّ بأسنانها وهي تبتلع بعضَ البراندي تلقائيًّا قبل أن تفتح عينَيها.

وكلير تقول ساخرة: «لم تقوي على استيعاب الخبر.»

لمَّا جرحتها نبرة الازدراء في صوتها، جاهدت جورجيا لتقوم.

وقالت: «إنني بخير. كلُّ ما في الأمر أنني كنت أنتظر سماعه. وإن كنت لا أستطيع تصديق ذلك. فلا يمكنكِ إقناعي بأن الكونت يستطيع أن يرتكب جريمة قتل.»

«لن يشارك في تنفيذها أبدًا. ولن يعلمَ شيئًا عنها كذلك. فالحوادث دائمًا ما تحدث في غيابه، وهو دائمًا ما يشعر بالأسف الشديد بعدها. فان العجوز هي مَن تُدبِّرها. فهي لن تقبل أبدًا تعريضَ جوستاف للخطر. لذلك فهي تخبر البروفيسور بالخطة وساعة تنفيذها، ويقوم هو بالباقي. فهو لا يملك مخيِّلة. والقتل ليس بالشيء الجديد عليه.»

«كيف … كيف سينفِّذها؟»

«الأمر سهل، مع امتداد هذا البحر الشاسع حولنا وعدم وجود جيران. سوف يصطحبكِ في نزهةٍ بالقارب. وحين تصيران على بُعد ميل، سيشرع في تصرُّفاتٍ غير لائقة، وساعتئذٍ ستضطرين إلى القفز من القارب بالطبع.»

«لا أستطيع أن أصدِّق ذلك. حتى هم لا يمكن أن يفعلوا ذلك. فهم بشَر، وليسوا شياطين.»

«آمم. فان العجوز ليسَت بالأم الحنون. فقد شاركت في عصابةٍ للخطف في الولايات المتحدة، وكان حرصها دائمًا على سلامتها. كانت تحصُل على الفدية، لكنها لا تُعيد الرهائن إلا وهي غير قادرةٍ على إفشاء السر … فهمتِ ما أعنيه؟»

وجهُ جورجيا الذي زاد شحوبًا والهلع المُطلُّ من عينيها أخبرا كلير بأن جورجيا قد فهمت مقصدها.

سألتها جورجيا بصوت مبحوح: «وابنتاي؟»

«ستُرسلان إلى إنجلترا ما دامتا لا تعرفان شيئًا. إنني أحذركِ الآن. لا تدعيهما تشمَّان خبرًا بأي شيء قد تشيان به. فكلمة واحدة ستكون كافية لفان العجوز. إنها لا تجازف.»

أحسَّت جورجيا أن كلير تخبرها بالحقيقة. فهي لم تحاول تخفيفَ الصدمة قبل ذلك، ولم تكن لتخفي عنها أيَّ أخبارٍ كارثيةٍ كي لا تتألم. في الواقع كانت الصغيرتان بلا أهميةٍ في المنزل مثلهما مثل أي قطعة أثاث. لم يكن أحدٌ يأبه لهما إلا الخدم السويديون. لم يكن لهما أي وزن إلا فيما يتعلق بعلاقتهما بها، ولن يدوم هذا إلا مدة تأليفها الكتاب.

بشعور مؤلم بالامتنان، أدركت جورجيا أنهما من الممكن أن تدليا بشهادة مفيدة على مأساتها، إذا لُقِّنتا كل التفاصيل قبل إعادتهما إلى جَدتهما. من الممكن أن تحكيا كيف أن السيدة فاندربانت ظلت تبكي طوال الليل، وكيف أن البروفيسور غطس حتى أصابه الإعياء، على أمل العثور على جثة أمهما.

قالت لكلير: «لا علم لهما بشيء. كيف لهما ذلك؟ فحتى الأمس لم أكن أنا نفسي على علم بأي شيء. وسوف أحرص على أن تظلا جاهلتَين بالأمر. فلن أجعلهما تشكَّان في شيء.»

رغم الدفء المنبعث من الشمس، شعرت جورجيا بجمود وبرودة وهي تنزل سُلم الشرفة، ذاهبة إلى الحديقة الصغيرة. كانت كأنها قد غادرت للتو عيادةَ الطبيب الذي أخبرها بدنو أجلها، عدا أن مشاعرها الشخصية في حالتها كانت مكبوتة لاضطرارها أن تمثل دورًا.

أثناء نزولها الطريق المؤدي إلى حمام السباحة، لاحظت التفاصيل كأنها تخزنها في رأسها من أجل المستقبل، فانطبعت في ذاكرتها كل التفاصيل: ورق أشجار الصنوبر الإبرية على المسار الزلق، والبحر ولون مياهه الخضراء المختلطة بالزرقة؛ إذ يظهر من خلال جذوع الأشجار، وأصوات النورس ورائحة الصمغ. وفور أن سَمِعت جورجيا صيحات ابنتَيها حتى حملت نفسها على الدندنة بلحنٍ مرحٍ عند اقترابها من حمام السباحة.

كانت ميرل تؤدي حِيلًا مائية وتتلقَّى الثناء من الجمهور، من دون إعطاء أي اعتبارٍ للعوَّامة المطاطية التي كان لها الفضل الأكبر. وكان الجمهور هو ميفيس التي راحَت تنتقل بين التصفير والتصفيق والهتاف بهتافاتِ تشجيعٍ بالتناوب.

«امتطيه يا راعية البقر.»

فسألتهما جورجيا إذ جلست على الصخرة بجوار ميفيس: «مَن علمكِ هذه التعبيرات؟»

فأجابتها ميفيس: «الآنسة جونز.»

فلما تذكَّرت جورجيا الاهتمامَ الذي كانت ابنةُ القس تولي مفردات طلابها إياه، احتجَّت على ادعائها.

«لا يمكن أن تقول الآنسة جونز كلامًا كهذا أبدًا.»

فتوقَّفت ميرل عن الحركات التي كانت تؤديها وأفصحت تقول: «إنها تقوله أحيانًا. لكن فقط حين لا نكون مصغين.»

كانت جورجيا ستضحك لو كانت في ظروف أفضل، لكنها ذلك الصباح انتابها شعور مبهم بالجزع. مثل العديد من الكبار، كانت قد نسيت كيف أنها في صغرها كانت تستمع عرَضًا إلى محادثاتٍ لا يجوز للصغار سماعها، من دون أن تشيَ بأي دليل على معرفتها بمعلومات ممنوعة.

وبينما هي تحدِّق بارتيابٍ في وجهَي الصغيرتَين البريئَين، بدأت ميفيس تقهقه.

«هل تعلمين يا أماه ماذا خطر لنا ليلة أمس، حين لم يكن هناك عشاء ولم نستطِع العثور على أحد، وكان كل شيء غريبًا ومريبًا؟»

وتدخَّلت ميرل قائلة: «حَسْبُنا أننا قد جئنا إلى بيت عصابة شريرة. مثل تلك التي نراها في الأفلام.»

فقالت جورجيا محتدَّة: «لكنكما لم تشاهدا فيلمًا من ذلك النوع من قبل. فغير مسموح لكما إلا بدخول أفلام الأطفال.»

«تلك الأفلام سخيفة. كانت روزا تصحبنا دائمًا لأفلام الكبار. فقد كان لديها نفوذ.»

فقالت ميفيس لتفسِّر: «نعم، كانت تجعل قاطع التذاكر يُدخِلنا.»

في البدء، لم تستطِع جورجيا ربط ذلك الاسم بأي شخص، حتى تذكَّرت خادمةً حسناء المظهر لكن لم يكن أداؤها لواجباتها مُرضيًا، اشتغلت لديها مدة قصيرة، لكن كانت الفتاتان مولعتَين بها.

وكانت هذه أولَ مرة تدرك فيها الباعثَ الذي يدفع بعضَ الأمهات إلى ضرب أطفالهن لتعليمهم أن يتحاشوا الخطر. ورغم أنها استاءت من نفسها لتخويفهما، فقد تحدَّثت إليهما بصوتٍ خفيض غاضب.

«أنا مستاءة منكما. فالسيدة فاندربانت ليست مضيِّفتنا فحسب وإنما سيدة عالية المقام. وقد منحتكما الأسبابَ لقضاء وقت ممتع، وأنتما تردَّان على كرمِها بادعاء أنها عضوة في عصابة. إنه ليس بالكلام المضحك ولا الملحوظة الذكية. عِداني ألَّا تستخدما تلك الكلمةَ البغيضة «أعضاء عصابة» مرة أخرى.»

شاعرةً بالتأنيب من عينَيهما الفزِعتَين، سارت جورجيا مبتعدةً عن حمام السباحة، وقد شعرت أنها لا تستطيع الاحتمالَ أكثرَ من ذلك. مع أنها كانت تعتقد أن الصغيرتَين ستكونان في أمانٍ ما دامتا جاهلتَين بما يحدث؛ فقد كانتا في الواقع تلعبان على تلٍّ من البارود. وكلمة واحدة كانت ستشعل الشرارة. فلو كان أحدٌ سمِعهما في حديثهما عن أفراد العصابة لَشكَّ أنهما تعلمان شيئًا، وأيُّ معلومة مهما تكن صغيرة فإنها بالغة الخطورة.

الفصل السابع عشر

عينان سعيدتان

حين عاودت العواطف الطبيعية جورجيا مرةً أخرى، اندهشت قليلًا من تأقلمها التدريجي على الوضع. فقد كانت الصدمة شديدةً للغاية في البداية حتى إنها أفقدتها قدرتها على التفكير. وصار كلُّ يوم اختبارًا لقدرتها على التحمُّل، حيث كانت تحمل نفسها على الوفاء بواجباتها ولا مزيد على ذلك.

لأنها أدركت أن الخوف مدمِّر، وبإمكانه أن يبري قدراتها الذهنية ويُضعف من مقاومتها؛ فقد أبَت أن تفكر في أي شيءٍ بخلاف روايتها. وحين كانت تنعزل في حجرتها، حيث تأتيها أشعة الشمس عَبْر الجدار الزجاجي، وترى الزَّبد وهو يفور على الصخور أدناها، كانت تشعر بذلك الهروب المعتاد من واقعها.

محض تحويل قصتها إلى رواية ولَّد لديها شعورًا موازيًا بأنها في عالَم خيالي. فمع تضاؤل حدة الفزع شيئًا فشيئًا، تعذَّر على جورجيا أن تصدِّق أنها قد حُكم عليها بالموت. صار هلاكها مبهمًا مثل عمل طائش في مسرحية هزلية، ضلَّت الطريق إليها في لحظة جموح. فها هو ذا يفِر أمامها، يراوغ دون الإمساك به منجرفًا نحو مستقبل زائف، على غرار تهديد مِلكة القلوب في رواية «أليس في بلاد العجائب»: «اقطعوا رأسها».

لكن حتى إن كان السبب وراء رِباطة جأشها مرجعُه محض عدم تصديق أكثر من كونه قوةً معنوية، فقد كان ثمة روتين مستمر أرهق قدرتَها لأقصى حد. فقد كانت مضطرةً إلى تمثيل دورٍ بغيض حتى توهِم الصغيرتَين بأن الجزيرة لا تزال جنةً للعشاق.

ولحسن الحظ أنها كانت لا تقابل سائرَ سكان المنزل إلا على العشاء، حيث يواظبون على عادة الظهور بملابس المساء الرسمية والحوار المصطنَع. لم تكن هناك جرائد يومية، وإنما كان الكونت يطَّلع على الأخبار من المذياع الخاص به، فكان ذلك يمكِّنه من الحديث

عن الوضع السياسي. وكانت السيدة فاندربانت تشارك بالأخبار الاجتماعية، بينما تحاول جورجيا الاصطناعَ للإدلاء بتعليقاتها على تلك الأخبار للوفاء بنصيبها من الحوار.

أحيانًا ما كانوا يبرعون جدًّا في محاكاة عشاء الأسرة السعيدة، حتى لتسحر لبَّها فتكاد تصدِّق الخدعة، وفي أحيانٍ أخرى، كان الهلع يُنشِب أنيابه في روحها فتريد أن تقبض على الشوكة وتطعن بها الهواء وهي تفضحهم.

«أيها الغشاشون. أيها الخاطفون. لستم سوى كائناتٍ وضيعة.»

حين كانت جورجيا لا تكتب، كانت تقضي جلَّ وقتها مع ابنتيها. وعندئذٍ أدركت أنها بحاجة لشَغْل عقولهن الفارغة ببعض عوامل الجذب، لتشتيتهم عن أفراد العصابة. لم تدرِ جورجيا أيُّ الفتاتَين كانت الأخطرَ على سلامتهما، كان خداع ميرل أكثر صعوبةً، لكنها كانت فطينةً بما يكفي لتتكتَّم على المعلومات من أجل مصلحتها، أما ميفيس فكان من المؤكد أن يزلَّ لسانها بأيِّ شيءٍ تكتشفه.

كتبت جورجيا خطابًا إلى أمها، تسألها بعضَ الأعداد من مجلة «تايمز»، لتمدهما بمواد هوايتَيهما المفضَّلتَين: الأعراس وأسواق العقارات. وأثناء انتظارها هذه الأعداد، راحت تقصُّ عليهما قصصًا بها القَدْر المعقول من الإثارة، فما كان منها إلا أن أدركَت أوجه قصور قدراتها الروائية.

ومع أنها اعتادَت إرضاء جمهورٍ عريضٍ من الكبار، لكنها فشلت تمامًا في تسلية ابنتَيها. فقد شعرتا بمللٍ شديدٍ من قصصها وتبرَّمتا منها، حتى إنها اضطُرَّت إلى ابتكار شخصية السيدة بامب.

وحاولت أن ترى أثرها مع ميرل الأكثر نهمًا للإثارة بين الاثنتَين.

فسألتها: «هل تودِّين أن تسمعي حكاية أفضل مشروب ساخن شربتُه على الإطلاق حين كنتُ فتاةً صغيرة؟»

فصاحت ميرل بتلقائية قائلة: «تعالَي سريعًا يا ميفيس. فستحكي لنا أمي حكاياتٍ من الأيام الخوالي.»

وحين جاءتهما ميفيس سابحةً عَبْر حمام السباحة، أنشأت جورجيا تُقدِّم إليهما السيدة بامب.

«كانت تُعِدُّ حفلات للأطفال الذين تدعوهم إلى منزلها. اعتدنا أن نبدأها بالزنجبيل المحفوظ لفتح شهيتنا. وبعدها نجد أصنافًا شتَّى من الحلوى الساخنة الغنية بالزُّبد: كعكًا وخبزًا وفطائر محلاة وفطائر بالفاكهة.»

شرعت تصِف وليمةً فاخرة، واضعةً في الاعتبار ما تهواه الصغيرتان، وهما تبلِّلان شفتيهما باستمتاع تام. ولَّما تمثَّل بمخيِّلتها أنها أمام مائدةٍ ضخمة، حافلة بشتَّى أصناف الكعك، طاف برأسها من دون مقدماتٍ، لازمةٌ دعائيةٌ أوحى بها إليها إعلانٌ في قطار الأنفاق.

قال حيوان الفظ: «لو لدينا سبع بنات بسبعة أفواه
وظلِلن طَوال ستة شهور يأكلن منها
فهل تعتقد أنهن يستطعن
أن يأتين عليها بالكامل؟»

ومما أدهشها أنها وجدت نفسها تضحك فجأةً من دون تصنُّع لأول مرة منذ عدة أيام.

أثبتت حفلة السيدة بامب نجاحًا باهرًا، حتى إن جورجيا قرَّرت أن تجعل هذه السيدة شخصية دائمة في حكاياتها، بقَدْر ما يمكن لأي شيءٍ أن يكون دائمًا في رمال مصيرها المتحركة.

وقالت تقترح على ابنتيها: «افترِضا أنكما ستلعبان دور السيدة بامب بالتناوب، واختارا ما ستقدمانه من مشروبات. فكِّرا في شيء جديد تفاجئان به ضيوفكما.»

كانت جورجيا في مزاجٍ أكثرَ تفاؤلًا بقليل حين عادت إلى الكتابة. كانت قد ألقت شِباكها بالفعل، في صورة الملخَّص والدفعة الأولى من روايتها. ومع أن الكونت كان يراجع خطاباتها إلى أمها ووكيلها مراجعةً دقيقة؛ فقد قالت لنفسها إن تورش قَطعًا لا بد أن يربط بينها وبين بطلتها المحاصرة.

حدَّثتها نفسها قائلة: «لقد بينت له أنه شيء وارد أن يحدث. ثمة خطوة واحدة سيخطوها في الظلام، وبعدها لا بد أن يسأل نفسه: «هل هذا ما ألمَّ بها؟»»

حين تذكَّرت تعاطفه وفطنته، بدا لها أنه سيسُد هذه الفجوة ...

انقضَّ تورش على خبر الرواية الجديدة بابتهاج. لم يكن مندهشًا بالمرة؛ إذ كان يعتقد أنها قد بالغت في تقديرها لفتور إبداعها. وحين اتصل بأخيه حاول أن يكون فكِهًا ليخفي مشاعره الحقيقية.

«هلا نذهب إلى الكوخ عصر يوم الأحد؟ فلديَّ فضول بشأن هذا الزواج. وأود أن أعلم القصة الحقيقية، القصة الجورجية. لأكتشف لماذا قرَّرت فجأةً أن تفك «العقدة الجورجية».»

فوافقه أوزبرت متجهمًا: «أنا أيضًا أود معرفة ذلك. فربما حُملت على الاستعجال.»

كان الطقس حارًّا في نهاية الأسبوع وقد تألَّق البحر والسماء بزرقة صافية، حين اتجه الشقيقان بسيارتهما إلى الساحل. وحين بلغا الكوخ بدا لأوزبرت كأنه صَدَفة خاوية. كانت بعض زهور الجريسة قد نمَت في مرج المنحدر المسفوع من حرارة الشمس، أما الزهور التي في الحديقة فقد تفتَّحت وأينعت، باستثناء القليل من زهور الكبوسين.

بدَت السيدة بلفري في حالة مزاجية ممتازة، ربما لارتدادها لنمط حياة غيرِ متقيد بالتقاليد. فإنها لم تكن ترتدي سوى تنورة ووشاح عُقد حول رقبتها ووسطها، وما كان منها إلا أن ضحِكت وهي تَظهر أمامهما بهذا اللباس المكشوف.

وقالت: «إنني أحاكي حفيدتيَّ. تقول جورجيا إنهما لا ترتديان سوى ملابس السباحة. وإنهما صارتا مسمرَّتَين مثل جوزة الطيب ... يا هانا. أحضري الشاي.»

بينما هم يتناولون الشاي من دون رسميات في حجرة الطعام، ولجت المربية، الآنسة جونز، من الباب فجأةً.

وقالت بأنفاسٍ لاهثة لتورش: «رأيت سيارتك بالخارج. لذلك دخلت المنزل. قلتُ لعل لديك خبرًا جديدًا عن السيدة يو.»

فقال لها: «لا أعلم إن كان جديدًا. من الأفضل أن يدليَ كلٌّ منا بما لديه لنضاهيَ بين الأخبار.»

وقبل أن يدليَ بأي شيء، توجَّه إلى السيدة بلفري بالكلام.

«هل تفاجأتِ حين سمعتِ بزواج ابنتكِ سرًّا؟»

فأجابته: «على الإطلاق. فهكذا هي بالضبط. إنه من طبعها. وأنت تعلم كيف أنها تؤثِر التخفي دائمًا. لكن كان يجدُر بها أن تتصدر المشهد في زفافها.»

فعلَّقت الآنسة جونز: «تتصدر المشهد؟ لا، فذلك المكان محجوز للكونت دائمًا. كان من الممكن كذلك أن تحظى بعرس هادئ في القرية، لا يحضُره سوانا.»

«فلتتصوري خيبةَ أمل الصغيرتَين. إنهما تتخيلان أن أي زفاف لا بد أن يكون حدثًا اجتماعيًّا فاخرًا في كنيسة سانت مارجريت. قالت جورجيا في خطابها إليَّ إنها لمَّا وجدَت أنها مضطرة أن تخذلهما، ارتأت أنه من الأفضل أن تنتهي من أمر الزواج بالكامل دون جلبة. ولم تُواتِها الشجاعة على البوح لهما به بعد.»

سألها أوزبرت بفتور: «متى وأين تزوَّجا؟»

«لم تقُل، ولن تقول. فهكذا هي جورجيا. تعتقد أن السرية شيء رومانسي.»

قالت الآنسة جونز معترفةً: «كانت صدمة لي. كنت أرجو أن تنتهي العلاقة كما بدأت. فأنا لم أطمئن للكونت.»

قالت السيدة بلفري، وهي تربِّت على ذراعها: «إنكِ متحاملة يا عزيزتي. ماذا كتبت إليك يا هارفي؟»

حين أخبرها تورش بخبر الرواية الجديدة، تغضَّن وجهها الصغير المتجعِّد من الفرح.

«يدُل ذلك على أنها عادت إلى طبيعتها. إنها روائية بالفطرة. ولا يمكن أن تبقى سعيدة مدة طويلة من دون الكتابة.»

سألته الآنسة جونز: «عمَّ تحكي الرواية؟»

فقال تورش: «لقد أحضرت معي ملخصًا لها، لعلمي بأنها ستثير اهتمام أمها. قالت إن الجزيرة هي التي أوحت إليها بالحبكة. فقد أدركت ما قد يدور فيها من أحداث، وستستخدم في الرواية تجاربها والأجواء المحلية. أعتقد أنها تقصد استجابتها للحب، بما أن البطلة غير متزوجة. سوف أقرأ الملخص بصوتٍ عالٍ، ولكم أن تتخيلوا أنكم تسمعونها.»

وحين فرغ من قراءته، اتخذت السيدة بلفري موقفَ الناقد، بصفتها قريبة المؤلفة.

«أجل، بإمكانها أن تصنع شيئًا مميزًا من ذلك الملخَّص. ومن الجائز أن يصير عملًا ممتازًا. فلا يمكن أن نحكم عليه من هذه الخطوط العريضة. لكنني على وعي بأسلوب جورجيا ومنهجها. فقد ساعدتُ في ولادة كل رواياتها، كأنني قابلة أدبية.»

هنا قال هارفي معلِّقًا: «هل تقصدين أنها قرأته على الكلب؟»

«يا هارفي، أيها العزيز ... عجبًا؛ ماذا بكِ يا آنسة جونز؟ هل تشعرين بدُوار؟»

نظروا جميعًا إلى الفتاة التي امتُقع وجهها الشاحب. بدت عيناها متوترتَين وفزعتَين، مع أنها حاولت أن تضحك.

«إنني على ما يُرام. الأمر بالغ السذاجة. فقد شعرت أنني — أوه، لا يسعني أن أشرح ... فكرة مبهمة تمامًا. كانت فكرة فظيعة للغاية.»

فسألها تورش: «أي فكرة؟»

«لقد باغتتني على حين غِرة. إذا افترضنا أن الكونت نصَّاب حقًّا، مثل شخصية الشرير في رواية السيدة يو، فستكون هي في وضع البطلة نفسه. فهي الأخرى تعيش على جزيرة، من دون عنوان. ولا نعلم أين هي. فهم يتسلَّمون بريدَهم من سالتسوبدن. إن كانت حالها كذلك، فلن تستطيع التواصل معنا لتخبرنا.»

«فلتتأكدي أنها لا تريد التواصل معنا.» كان صوت السيدة بلفري حازمًا وهي تتحدث. واستطردت: «فقد ذكرت في خطابها أنهم لحسن الحظ لن يستقبلوا أيَّ زوار في البداية؛ ذلك لغَيرة جوستاف الشديدة. حسنًا لقد كنت أعدُّ غَيرة أبيها عليَّ من قبيل الإطراء؛ ذلك لأنني من جيل قديم، أما الأزواج في العصر الحديث فلديهم الوعي ليُدركوا أن الزيارات لن تسفرَ عن راحةٍ أو أجواء هانئة. والصراحة يا أوزبرت أنني سعيدةٌ أنك لن تستطيع زيارتهم لتهنئتهما على الزواج. المزيد من الشاي يا آنسة جونز؟»

«لا ... شكرًا.»

انتبه تورش للسيدة بلفري قبل أن تذهب إلى المكتب، حيث راحت تبحث وسط كومةٍ من الأوراق. ثم عادَت إلى المائدة بعدسة مكبِّرة وصورة مقاس أربع في ست بوصات لجورجيا، مع ابنتَيها والكونت في سالتسوبدن.

وقالت للآنسة جونز: «دائمًا ما أتفحَّص الصور بهذه العدسة. من الأفضل أن تفعلي الشيء نفسه. وتذكَّري هذا. بإمكان أي شخص أن يبتسم؛ فحسْبُه أن يبسط شفتيه ويبيِّن أسنانه. لكن لا يمكن للعينين أن تخدعا الكاميرا ... انظري جيدًا يا عزيزتي. هل هاتان العينان عينا امرأة سعيدة؟»

«نعم. إنهما كذلك.»

بينما الفتاة تتأمَّل الصورة بعناية المحب، خرق أوزبرت الصمت.

«لا يسَعني أن أرى سببًا يجعلها تكتب رواية جديدة بهذه السرعة، إلا أن تكون شاعرة بالضجر. فإن كُتُبها ليست بالأعمال الأدبية العظيمة. كنت أعتقد أنها تَعُدها وسيلةً لكسب الدخل، وليست سبيلًا للتعبير عن الذات.»

قاطعه تورش سريعًا، ليحول دون استياء السيدة بلفري، فقال: «إن أخي لمتكبرٌ. فهو لا يقرأ إلا الروايات الغالية السعر. هل ستأتي يا أوزبرت؟ فالطريق دائمًا ما يكون أطول في الرجوع.»

قالت الآنسة جونز: «سآتي معكما.»

وحين بلغوا المنحدر، تحدَّثت إلى الوكيل.

«مَن الذي طبع ذلك الجزء من رواية الآنسة يو؟»

فأجابها: «واحدة من الفتيات في مكتبي. لقد وجدت صعوبةً في إخراج نسخة منقَّحة. فقد كان الأصل مكتوبًا بالرصاص وكادت بعض الكلمات تكون غير مقروءة.»

«إنها تفكِّر سريعًا؛ لذلك تضطر إلى الكتابة بتعجُّل. لكنني أفهم خطَّها. فقد كنتُ أطبع لها كلَّ ما تكتبه. ألا ترى أنه سيكون من الأسهل إذا واصلتُ الطباعة لها؟ ولا أقصد

أن أستجدي عملًا؛ إذ لم أكن أسمح لها قط بأن تعطيني أجرًا على ذلك ... فأنا أحب هذا العمل كثيرًا.»

كان تورش أرقَّ قلبًا من أن يرُدَّ عينَيها المتوسلتَين.

فقال: «يبدو حلًّا ممتازًا. يُفضل أن تكتبي خطابًا إلى السيدة يو تطلبين منها أن ترسل النسخةَ إليكِ مباشرةً. وأنا سأؤيد الاقتراح في خطابي إليها. وأعتقد أن بإمكاني الاعتماد على أنك ستسلمينني النسخة سريعًا.»

أكَّدَت له ذلك بحزم، قبل أن تتجه إلى الشقيق الأكبر.

وقالت تقترح عليه على استحياء: «هل خطر لك يومًا أن تسافر إلى السويد لقضاء إجازتك يا سيد أوزبرت؟ فقد صار العديد من الناس يذهبون إليها، ويبدو أن الكل يستحسنونها. إنه بلد جميل جدًّا، وشديد التنوع، و...»

«لماذا عساي أذهب هناك؟»

جاء صوت أوزبرت قاطعًا مُسكِتًا حججها المترددة.

فقالت وهي تتكلَّف الجرأة: «حتى تستطيع رؤيةَ السيدة يو وتطمئن بنفسك أنها سعيدة.»

«إنني مطمئن. لقد فعلت ما أرادت أن تفعله بالضبط. وإذا كانت في عزلة عن أصدقائها؛ فإنه بمحض اختيارها. كما أنها صارت كونتيسة. وهو لقب من شأنه إسعاد أي امرأة طبيعية، وهي كسائر النساء.»

«لكن، بفرض أنه ...»

«لا نيةَ لديَّ أن أتطفَّل على أي شخص في شهر العسل.»

فقال تورش بفخر إذ نظر إلى انطباق شفتَي أخيه بثبات: «لكِ أن تعدي ردَّه هذا نهائيًّا.»

وفي ذلك المساء، شغَلت جورجيا أذهانهم جميعًا. فقد فكرت السيدة بلفري في الكونتيسة جورجيا يخالجها فخر الأم. وتساءل تورش عن سيرِ العمل في الرواية الجديدة. وظل أوزبرت يراها في أحلام يقظته، وهو يرافقها إلى الباب الأمامي في قلعته بإسبانيا عندما تتسلل داخلةً من الخلف. حتى الآنسة جونز حملت نفسها على تذكُّر العينَين السعيدتَين في الصورة ...

أما جورجيا فكانت على الجزيرة تنظر من نافذتها نحو المحيط الهائج الممتد أميالًا.

وتقول لنفسها: «إنهم يفكرون فيَّ الآن. وقريبًا، قريبًا جدًّا سيأتون ويرحلون بي.»

الفصل الثامن عشر

خيال

خلال الأيام الأولى من حبسها، لم تكن جورجيا متفائلة فحسب، وإنما مستبشرة أن يأتيها الغوث سريعًا. فقد بدا لها أن العنصر الشخصي في قصتها سيكون حتمًا واضحًا وضوح الشمس.

وقالت معتبرة بالأسباب: «يعلم هارفي أنني قد استنزفت كل أفكار الكتابة. كما أنني إذا كنت متزوجة من رجل ثري، فلن يكون بي حاجة لكسب المال. هذا لن يكون منطقيًّا.»

ظلت تتوقف عن عملها بين الفينة والأخرى، لتصعد إلى السطح المستوي المطل على المحيط إطلالةً واسعة. ولاعتقادها أن فرقة الإنقاذ ستأتي بالطائرة، فقد شخصت ببصرها، تحدِّق في السماء بعينَيها وقد ضيَّقتهما. تخيَّلت جورجيا فرحتها أول ما تراها، وهي تطنُّ مثل نحلةٍ وسط السماء، ثم وهي تكبر ليصيرَ شكلها مثل طائرٍ غريب.

كان ثمة عزاء عند تأمُّل أن القيمة الاستراتيجية لعزلتها يذللها سلاح السفر جوًّا. فالصعوبات التي ذكرها الكونت بشأن تحديد موقعها، لا تنطبق إلا على الزُّوار الذين تثنيهم العراقيل. أما مَن لديه حاجة ملحَّة لاكتشاف موقعها، فسوف يجوب السماء ويهبِط على كل جزيرة يلمح بها منزلًا صيفيًّا.

لم تشعر بخيبة أمل من التأخير؛ إذ أمكنها تقدير الصعوبات المبدئية. أولها أنها لم تعلم الموقف القانوني لتورش، وإن كانت على ثقة أنه سيتغلب على أي تفاصيل قانونية. كذلك بدا مؤكدًا أنه لا بد أن يستعين بمساعدةٍ إضافية، في حالة المقاومة.

لكن كان ثمة شيءٌ كانَت على يقينٍ منه. وهو أن أوزبرت سيكون أول المتطوعين، وأول مَن يهبط على الجزيرة، وأول مَن يعثر عليها.

وبينما هي في حالة الترقُّب والانتظار، واصلَت العمل في الدفعة الثانية من روايتها، على أملِ أن تأتيَها النجدة ويصير جهدها فيها مهدرًا. وقد ساعدت في خداع الكونت وكذلك

خفَّفت من التوتر. جعلت مسألة المهلة الزمنية من الكتابة أمرًا أسهل؛ فإنها إذا تقاعست الآن، ثم وقع أسوأ ما في الحسبان، فستُضطر إلى استئناف العمل مع تحوُّل فطرة الإبداع إلى عملٍ شاقٍّ مرير جدًّا.

وفي ظروفها تلك، لم تُعِر وصولَ البريد من إنجلترا اهتمامًا كبيرًا. ومع أنها كانت متلهفة لرؤية خطِّ أمها، فقد أدركت أن ألم سماع أخبار الوطن سيكون شديدًا جدًّا.

كما أنها لم تتوقَّع أن يحتويَ خطاب تورش على أي معلومات هامة. لأنه إذا كان ربط بينها وبين بطلتها الشقية، فسيدرك أن الكونت سيقرأ بالضرورة كلَّ ما سيكتبه؛ ومن ثَم سيكون ردُّه عاديًّا ولا يزيد عن محض كلام عابر. وقد تضمن الخط العريض للحبكة هذه الرقابة بطبيعة الحال، بما أنه لا يمكن لامرأة حبيسة أن تُمنح امتياز المراسلات الخاصة.

بدأ الكونت وكلير رحلتهما إلى البر الرئيسي في وقتٍ مبكر جدًّا من الصباح. لم تحفل جورجيا بالدرجة الكافية حتى تترقب رجوعهما. ولاحقًا، بينما هي مستغرقة في عملها، وصل القارب البخاري إلى الميناء، من دون أن تلحظ. فقط حين نازعتها عاطفة الأمومة للاطمئنان على سلامة ابنتيها، ذهبت جورجيا إلى حمَّام السباحة، فرأت أثرًا للبريد الإنجليزي وسط كومة من الجرائد والمجلات الأسبوعية المصوَّرة، متناثرة على الفرش.

كانت الصغيرتان مستلقيتَين على مرافقهما وبطونهما، تدعمان رءوسهما بأياديهما المتسخة، وهما تتمعَّنان في المنازل المعروضة للإيجار أو البيع.

نظرت ميرل لأعلى، فكانت عيناها متألقتَين بالسعادة.

وصاحت قائلة: «الكثير والكثير من الصحف. هذا أسعد يومٍ في حياتي، وأنا أسعد إنسانة في العالم.»

ومع غَيرتها من استئثار شقيقتها بالسعادة، أبَت ميفيس أن تنافسها، لكونها الأعلى مكانة.

فقالت باعتداد: «أما أنا فلن أفرح أبدًا. فإنني هالكة. أعلم أنني لا بد أن أموت صغيرة، لأنني مثل أبي. وهو ميت.»

فقالت ميرل: «لكنني لن أموت صغيرة. فالموت حزين. وأنا لا أفكر في الأشياء الحزينة. حتى إنني أتوقَّع أن أسهوَ عن الموت حين يأتي ميعاده.»

هذه المحادثة، مع أنها كانت معتادَةً وكانت من قبيل منافسة بينهما في التباهي، جعلت عينَي جورجيا تكفهران من الألم.

فسألتهما سريعًا: «أي منزل اخترتما؟»

فأشارت ميرل قائلة: «هذا. فإنه مسكن فسيح، فخم الرياش، مزود بكل المرافق الحديثة. به من ثمانٍ لتسع حجرات نوم، ومياه ساخنة وباردة، وأربعة صالونات استقبال، وثلاثة حمامات، وأنابيب مجارٍ رئيسية ...»

«إنه كبير جدًّا ولن تستطيعي إدارته يا ميرل. ابحثي عن شيء أصغر.»

تبادلت الصغيرتان النظرات بطريقةٍ عرفت منها جورجيا أنهما تنويان الحديث عن شيء أثار فضولهما.

سمحت ميرل لميفيس أن تكون هي مَن يمهِّد الطريق.

فقالت لأمها: «كنتِ مخطئة بشأن قاعدة الخادمين. فهذا أضخم بيت دخلته في حياتي، وليس لديهم طاقَم من الخدم. وإنما اثنان فقط ... والبروفيسور. هل هو خادم؟ فإنه لا يتناول العشاء معنا.»

عندئذٍ اتخذت جورجيا قرارًا سريعًا.

وعلَّقت تقول: «إنه يعمل في غرفة التدفئة المركزية والحديقة. وأعتقد أنه يتقاضى أجرًا مقابل ذلك.»

«لكن لا يمكن أن يكون خادمًا؛ لأن السيدة فاندربانت سيدة ذات مقام رفيع جدًّا وهي مضيِّفتنا وتعاملنا بكرم بالغ.» حسبت ميرل أنه من الأمان أن تدخل الحوار وهي تكرِّر محاضرة أمها بعفوية. «لا يمكن لسيدةٍ بالغة الرقي أن تستقبل خادمًا في حجرتها، ليتحدَّث معها ويدخن، أليس كذلك؟»

عاودت جورجيا مشاعرُ الذعر التي انتابتها من قبل. فها هما تان الصغيرتان مرة أخرى تغترفان من البارود ملء أياديهما، وتلهوان به بلا مبالاة.

فسألَت ميرل بصرامة: «هل كنتِ تتنصَّتين على الأبواب يا ميرل؟»

«لا. لم أتنصت بالطبع. لكنني أسمع الأشياء رُغمًا عني. فأذناي أقوى من أذنَيكِ.»

فقالت جورجيا ترتجل: «لا بد إذن أن أطلعكما على سر. البروفيسور أحد أقاربهم الفقراء، لكنه معتز بنفسه ويحب أن يكسِب قوته. إياكما أن يعلم أنني أخبرتكما، وإلا جُرحت مشاعره وإياكما أن تتحدثا بالأمر إلى أي شخص.»

فقالت ميفيس: «لن نتحدث به.»

لم يرُق لجورجيا بريقُ الذكاء والفهم الذي لمع في عينيهما. كان كأنه يقول صراحةً إنهما اتفقتا أن تسايراها.

سألتهما جورجيا: «هل ثمة أعراس في المجتمع الراقي؟»

ولم تتركهما إلا وقد حوَّلت تيار أفكارهما من الألغاز الخطيرة إلى ملابس العرس. ثم راحت تجرجر قدمَيها؛ إذ جاهدت في صعود الطريق وسط أشجار الصنوبر قاصدة البيت.

وإذا بها تجد كلير وهي تصيح بها بوقاحة من الشرفة.

«مهلًا. يا أنتِ. يقول جوستاف إنكِ ربما تريدين قراءة خطاباتكِ.»

فقالت جورجيا ببرود: «ما دامت مكتوبة لي، فربما أريد ذلك. لا بد أنه عالِم بالغيب.»

«احتفظي بكلامكِ له. فسوف يروق له. إنه في حجرة المكتب.»

نظرت جورجيا إلى الشفتَين القاسيتَين والعينَين الجامدتَين وهي تمرُّ بالفتاة. فبدا لها أنه لا أملَ مطلقًا من توقُّع الرأفة منها. فانتابها ذلك الخَدر الذي دائمًا ما يصيبها بعد أي خطر يهدد سلامة طفلتيها.

وقبل أن تدخل البيت، حدَّقت بيأس في السماء الخالية.

على عكس القرصان الذي عاد إلى الديار بعروسه وسط رذاذ البحر، كان الكونت يرتدي بذلة صباحية وقبعة أنيقة من اللَّبَد من أجل رحلته للبر الرئيسي. وكان وجهه متهللًا وابتسامته صادقة، وهو يقلِّب مظروفَ أعمالٍ كبيرًا ومظروفًا صغيرًا.

حيث قال: «إنكِ رائعة يا عزيزتي. لقد أرسلتِ إليهم عينةً صغيرة جدًّا، لكنهم على استعداد لطلب سلسلة. هذا كله لصيتك الحسن. فإنهم يعلمون أن بإمكانهم الاعتماد عليكِ. تورش في غاية السعادة وأمكِ لم تتفاجأ مطلقًا من زواجنا السري. هل تودين قراءة الخطابات؟»

«إذا كنتَ انتهيت منها تمامًا.»

قبل أن تُخرِج جورجيا محتويات المظروف الكبير، دسَّت خطاب أمها في حقيبتها، لتقرأه على انفراد. ومما أثار استياءها أنها وجدت ورقةً مطبوعة بعنوان: «السيدة الأرستقراطية»، مشبوكة بتقرير تورش.

لقد أدركت بمجرد أن لمحتها أن الوكيل قد عدَّ قصتها محضَ خيال، وأنه يريد تقديم اتفاق. لم تكن حركةً للتضليل، فقد أرسل إليها بيانًا حقيقيًّا بالشروط والأحكام. وكان الدليل الإضافي على اهتمامه أنه طلب منها أن ترسل نسختها إلى الآنسة جونز مباشرةً لتطبعها، توفيرًا للوقت.

قال الكونت مغتبطًا: «مَن كان محقًّا؟»

«أنتَ بالطبع. أنت على حق دائمًا. وستظل كذلك دومًا، إلى أن تَزِلَّ الزلةَ التي سيكون فيها هلاكك ... لكنك ستزِلُّ حتمًا.»

«وكيف سأزِلُّ؟»

«ربما ستثق بشخص يخدعك. أو ربما تحاول الإيقاعَ بشخص أذكى منك.»

«هل تقصدين كلير بالشخص الأول ونفسك بالشخص الثاني؟»

أربكها نفاذ بصيرته؛ إذ لم تكن معتادةً التعاملَ مع العقول الحادَّة الذكاء. لكنها واصلت الكلام، خاصة أنها شعرت أن التحدي آمَنُ من المعاناة في صمت.

«لا يمكنني الادِّعاء بأنني أذكى منك بعد ما حدث.»

فقال الكونت وهو يهزُّ كتفيه: «ما حدث؟ لم أفعل سوى أنني اغتنمت فرصةً سانحة. لقد لعِبت بالملك مع احتمال أن أخسر إذا وُضعت فوقه ورقة الآس. لم تكن الخطة مضمونةَ النجاح لكنني ألعب البوكر بمهارة شديدة.»

لم يكتفِ بانتصاره، إنما أراد كذلك أن تعجَب ضحيته برِباطة جأشه وجرأته. لكنها لم تتحمَّل غروره، فمضت نحو الباب، حتى أدركها بسؤال.

«هل التقيتِ بالآنسة جونز؟»

«نعم، عدة مرات. إنها معلِّمة ابنتيَّ.»

«آه، تذكرتُها. كانت ذات عينَين برَّاقتَين وصوت عذب، مثل العندليب. لكنها كانت صمَّاء ورثَّة الثياب. فتاة مسكينة، لكم رثيت لحالها. ليتني كنت أستطيع إسداء بعض المعروف إليها.»

«لقد فعلت. فقد رفضت السماح لها بأن تأتيَ إلى هذه الجزيرة.»

ضحِك الكونت ضحكةَ استحسان عند مغادرة جورجيا؛ إلا أن عينيه كانتا مستغرقتَين في التفكير؛ إذ راح يستعرض قائمة أعدائه. رغم احتمال خطورة القليل منهم، فإنه لم يخشَ أحدًا؛ لأن لديه قدرةً على استشعار الخطر ويعلم كيف يواجه كل المواقف.

إذا كان أغفل شخصًا واحدًا لم ينخدع بسحر بشخصيته؛ فهذا لأنها كانت أتفه من أن يقيم لها وزنًا، إلا بعَدِّها مثارًا للشفقة المختلطة بالازدراء.

حين خرجت جورجيا من باب حجرة المكتب، اصطدمت بكلير التي كانت جاثيةً على ركبتَيها خارجه، فقامَت دون أن يداخلها خجل.

فسألتها جورجيا: «أكنتِ تتلصصين علينا؟»

«إنني أتجسَّس بالطبع. لقد أسمَت البي بي سي مجلتها «ذا ليسنر» (مختلس السمع) تيمُّنًا بي ... مَن هي الآنسة جونز هذه؟»

«مربية ابنتيَّ، هذه المرة الثانية التي أقول فيها ذلك.»

«نعم، سمعتكِ. كيف تبدو؟»

«لا يمكنني أن أشرحَ لكِ أو حتى أن أحاول. فإننا لا نتحدث اللغةَ نفسها. أشعر كأن زمنًا طويلًا قد مضى منذ قابلت أحدًا مثلها، مهذَّبًا ومحترمًا.»

صار وجه كلير متجهمًا.

وقالت: «لديَّ الرد على كلامكِ، لكنني لن أقدِم عليه؛ لأن الكاتبة الأليفة التي يأويها جوستاف لا بد أن نعاملَها برفقٍ ولينٍ وإلا توقَّفت عن الإنتاج … لكنني سأُعطيكِ نصيحةً أخرى. إن جاءت عزيزتكِ جونز هنا يومًا، فلن تعود أبدًا.»

«لسنا بحاجة للخوض في ذلك الأمر، ما دام ليس هناك أملٌ أن تعثر عليَّ.»

كانت جورجيا تعلم أنه ليس من الحكمة أن تُثير حَنَق هذه الفتاة، لكنها كانت شاعرة ببؤسٍ بالغٍ حتى إنها لم تأبه أن تستعدي أحدًا. فالنهاية واحدة في جميع الأحوال. ورغم دفاعها عن الآنسة جونز، فقد أحسَّت بأن أصدقاءها قد خانوها وتخلوا عنها. فلم يملك أحدٌ ممن يهتمون بأمرها الشفقة أو البصيرة ليدرك أنها كانت في حاجةٍ ماسةٍ للنجدة.

وحدَّثتها نفسها بأسًى: «لست إنسانة. لست سوى كاتبة روايات إثارة.»

لكن كان ثمة شخص واحد في إنجلترا لم يكن مقتنعًا بأن جورجيا تعيش في سعادة، وإن كانت تتخبط على غير هدًى. فعلى الرغم من الأدلة، ظلت الآنسة جونز مرتابة في الكونت، مع أنها لم تستطِع تصوُّر دافع خفي لزواجه منها. وخلال موجة شهر أغسطس الحارة، قضت وقتها في الحديقة، جالسة القرفصاء على مقعد في ظل الغصون المرتفعة لنبات الفاصوليا القرمزية بخضرتها الزاهية، أو واقفة وسط أُصَص الراوند، تشاهد بذهن شارد الدعاسيق وهي تزحف على يدها.

رغم أن السيدة جونز لم تشعر بتعاطف كبير وهي ترى اهتمامَ ابنتها بامرأة أخرى، فقد أدركت أن انهيار آمالها في الغناء الأوبرالي قد أحدث فراغًا في حياتها. وتمنَّت أن تملأه ابنتها في النهاية بزوج صالح، أو بمنظمة المرأة، أو بالبستنة، ليكن أي شيء يبقيها بعيدًا عن المطبخ الذي كان بمثابة مملكتها، والإبرشية التي كان يديرها زوجها.

وفي يومٍ قائظ الحر، بينما كانوا يتناولون عشاء يوم الأحد المكوَّن من لحم ضأن مشوي وفطيرة برقوق ساخنة، وضعت ليديا فجأةً الشوكةَ والسكين.

وقالت بانفعال: «إنني أحتقر الرجال. فها هو ذا أوزبرت تورش، يسعى بين الناس متباهيًا بنبل أخلاقه. والكل يعلم أنه كان يحب السيدة يو، وسيظل يحبها دائمًا، ورغم ذلك فقد استأصلها من حياتِه كما لو كانت ورمًا خبيثًا.»

فعلَّق القس قائلًا: «إنه ليس مثل بعض أبناء أبرشيتي. فهو يعلم أنني لست مَن وضع الوصية العاشرة التي تنهى عن اشتهاء امرأةِ رجل آخر.»

«لكنه من الممكن أن يحترم الوصية العاشرة، ويظل مع ذلك إنسانًا يا أبي. فلو كنت أنت وأمي على سفينة وتحطَّمت بكما، كنت سأجوب البحار السبعة حتى أعثر عليكما.»

«لكن ماذا لو كنا وجدنا متعةً كبيرة في صحبة آكلي لحوم البشر، ولم نُرِد العودةَ إلى ديارنا؟»

«كنت سأترككما تستمتعان بأواني الطهي. كلُّ ما هنالك أنني كنت سأودُّ التأكُّد من أنكما سعيدان وبخيرٍ.»

تذوَّقت السيدة جونز الكاسترد قبل أن تصبَّه على فطيرة البرقوق، وذكرت أن مذاقه يطغى عليه ورق الغار. ثم نظرت إلى وجه ابنتها الحزين ومنه إلى العشب الذي ازدهرت فيه زهور الأقحوان، وأحاطت به جدران كساها اللبلاب.

ثم قالت: «أعتقد أنكِ بحاجة إلى إجازة يا ليديا. لماذا لا تذهبين إلى السويد؟ ولعلكِ وأنتِ هناك تزورين السيدة يو وتتحدثان سويًّا حديثًا لطيفًا.»

فقالت ابنتها وهي تتنهَّد: «لكنني لا أعلم حتى مكانها.»

«أوه، يا عزيزتي، أليس لديكِ أيُّ قدرة على التصرُّف؟ أنا كلَّما اضطررت إلى زيارة أيِّ شخصٍ في لندن، كتبت له دائمًا أولًا لسؤاله عن رقم الحافلة. حسبكِ أن تخبريها أنكِ قادمة، واطلبي منها أن تعطيكِ إرشادات لأقرب مسار.»

الفصل التاسع عشر

رعب «مفيد»

حين تلقَّت جورجيا خطاب الآنسة جونز، شعرت كأنها عادت أدراجها فجأةً إلى بُعد مفقود. فقد ذكَّرها الخطاب بأن هناك فعلًا عالمًا حيث الناس طيبة وأمينة في سلوكها العادي في الحياة.

رغم أن جورجيا كانت دائمًا دمثةَ الأخلاق وكيِّسة مع المربية، فقد جعلتها خارجَ دائرة أصدقائها المحدودة. فقد حذَّرتها أمُّها من أن إقبال الفتاة عليها قد يصير مصدرًا للإحراج، إذا شجَّعته. وفي جميع الأحوال، كانت الفتاة من وجهةِ نظر جورجيا مجردَ واحدةٍ من العوام العاديِّين الذين تمتلئ بهم الحافلات ودُور السينما؛ أشخاصٍ طيبين، لا يخطر ببالهم التهرُّب من دفع الأجرة للكمساري، أو التسلل خلسةً إلى صالة السينما، لكنهم قد يسبقونها إلى المقعد الذي ترغب فيه؛ ومن ثَم فإنهم الأعداء.

تراءت لها الآنسة جونز كما رأتها آخرَ مرة، مجردَ واحدة ممن تتجاهلهم من العوام؛ ترتدي معطفًا طويلًا من الصوف وقبعةً رياضية من اللَّبَد، لكنَّ عينيها تلمعان بوميض الأمانة. ورأتها متناقضة مع جمال كلير اللاتيني — بوجهها البيضاوي المثالي في رسمته، وحاجبَيها المتقوسَين، وشكل رأسها الخالي من كل عيبٍ — فغصَّ حلقها بألم الحنين.

فقد كانت في تلك اللحظة على استعدادٍ للتنازل عن عشر سنواتٍ من عمرها لترى الآنسة جونز، أو لتختلط بعامة الشعب الإنجليزي مرة أخرى، وهي تعيد قراءة خطابها. كانت لهجته سلسةً وطبيعية للغاية، حتى إنه جعلها تغفُل عن وقائع حالها بعض الوقت.

عزيزتي السيدة يو

حين يصلك هذا الخطاب، سأكون قد بلغت سالتسوبدن. هل تفاجأتِ أنني احتذيت خيرَ مثال وجئت إلى السويد لقضاء عطلة الصيف؟ (في الواقع، لقد

ذهب الكثير جدًّا من أصدقائي هناك مؤخرًا وأفادوني بأخبار طيبة.) إنني أحظى بوقت رائع، لكنني سأصاب بخيبةِ أمل كبيرة إن لم أفلح في رؤيتكِ. إليكِ هذا الاقتراح. في المرة القادمة حين يأتي قاربكم إلى سالتسوبدن لتسلُّم البريد أو ما شابه، هل من الممكن أن يحملني إليكِ على متنه وسط الطرود؟ لا أبالي كيف سأُصنَّف — فضلات قديمة أو مرساة — ليكن أي شيء. أما في رحلة الرجوع، فإنني مصرَّة على دفع ثَمن الوقود وأجرة السائق. فإنني مشتاقة إلى رؤيتكِ أنتِ وتلميذتيَّ مرة أخرى. أخبريهما أنني أتوقَّع سماعهما تتحدثان السويدية بطلاقة. ما عليكِ سوى أن ترسلي رسالةً قصيرة إلى هذا الفندق لتخبريني متى وأين عساي أجد قاربكِ.

نظرت جورجيا إلى الكونت وهو يطالع الخطاب حانقًا.

وسألته بضجر: «ما العذر الذي سأتحجَّج به؟»

«عذر؟ لا تمزحي. سوف نؤكد لها سرورنا نحن الاثنين باستقبالها. أخبريها، بأنني سألقاها شخصيًّا في سالتسوبدن.»

«ربما عليك التوقف عن المزاح أنت أيضًا. فإنني لا أرى الأمر مضحكًا.»

هبط الكونت إلى الأرض ودسَّ رأسه في حِضن كلير، مثل صبي غاضب.

ثم قال يحثُّها: «أخبريها أيتها الفاتنة. أخبريها بأسلوب سهل. إننا نريد جَذْب الانتباه لجزيرة شهر العسل؛ لذلك نرفض استقبال صديقة العروس القديمة التي قطعت الطريق كلَّه من إنجلترا.»

فقالت كلير ساخرة: «امرأة إنجليزية بلسان طويل، ستظل تتحدث وتتحدث. «ما الحقيقة؟ هل هناك ما يخفونه؟ ربما السيدة يو العزيزة ليست سعيدة؟ ربما تزوجت من رجل سكِّير، أو متوحش يضربها؟»»

قالت جورجيا، وقد لاح لها شعاع أمل مفاجئ: «لا حيلةَ لي في ذلك. فلست أنا مَن بدأ هذا الوضع. أنتَ مَن أقحمني فيه.»

حين حاولت أن ترى الموقف بعينَين محايدتَين، بدأت ترى الأسباب وراء قلق الكونت. فمهما يكن عذرها عن استقبال الآنسة جونز، فمن المؤكَّد أنه سيُعطي انطباعًا مزعجًا. بل وكان من المحتمل حتى أن تسلط تبعاته الضوءَ على حبكة روايتها الجديدة.

ومن ناحية أخرى، فإنهم لم يكونوا ليجرءوا على استقبالها على الجزيرة، إلا إذا كانوا لا ينوون أن ترجع.

أصغت جورجيا باهتمامٍ والكونت يناقش مع كلير الترتيبات بجملٍ مقتضبة.

«سأذهب إلى سالتسوبدن غدًا. وأمرُّ بفندقها. أعِدي العُدَّة للرحيل مبكرًا. في الساعة الخامسة صباحًا. وسنكون هنا قُرابة الساعة الحادية عشرة.»

«ماذا عني؟»

«لا بد أن تكوني موجودة.»

«كصبي أم فتاة؟»

«صبي. فمن الوارد أن يكون تورش قد أتى على ذكركِ.»

«ماذا عن الصغيرتَين؟»

«سأنبِّه عليهما أن تتواريا عن الأنظار. وأنتِ أعلمي فان والبروفيسور بالخبر.»

لم يسبق أن رأت جورجيا الكونت يومًا غاضبًا هكذا. مثل طفلٍ هائجٍ يُريد أن ينفِّس عن غضبه على أحد.

«هذا خطؤكِ. لم أظنَّكِ بهذا الانحطاط. لم أكن أعلم أنكِ من عينة النساء التي تريد أن تلازمها امرأة أخرى أينما ذهبت.»

فقالَت: «لست كذلك. لكن ما دامت ستأتي فلا بد أن أعلم ما سيحدث. هل ستسمحون لها بمغادرة الجزيرة؟»

«نعم. ستغادرها، في المساء نفسِه، على زورق بخاري، مع البروفيسور. أما مسألة أن تصل إلى سالتسوبدن، فهي متوقِّفة عليكِ بالكامل.»

«كيف؟»

«إذا حاولتِ أن تبلغيها، أو تمرِّري إليها رسالة — أو أي شيء آخر — فمن المحتَّم أن تقع حادثة في رحلة رجوعها إلى سالتسوبدن.»

«لكن تلك ستكون جريمة قتل.»

تبدَّل التعبير المتجهِّم على وجه الكونت احمرارًا من الشعور بالحَنَق.

«إنني أسميه اسمًا آخر. دفاعًا عن النفس وإخلاصًا لأصدقائي. إنني لا أتصرَّف من أجل مصالحي الخاصة وإنما من أجل ... من أجل جماعتي. فثمة فتًى عهِد إليَّ بكل مدخراته. كان محض بنك صغير في الريف، لكنه أنجز المهمة كلها وحدَه، أطلق النار على الصراف واحتجز الباقين. إنه لعملٌ شجاع. وأنا أشعر أنه تجب عليَّ حمايته، وآخرين مثله.»

فسألته جورجيا: «هل كان الصراف مسلحًا؟»

«إنكِ تمزحين في اللحظات الخطأ أحيانًا.»

ذكَّرتها نبرة التهديد في صوته بخطورة موقفها وهو يتابع كلامه.

«إذا أردنا أنا وأنتِ أن نقدِّم عرضًا مقنعًا بعد غد، فمن الأفضل أن نتعاون. فلتنظري إليَّ كأنكِ تعشقيني، وإلا ارتابت الآنسة جونز.»

«هذا أمره سهل. فإنني على الدوام أمثِّل دورًا.»

على الرغم من توكيدها المتصنِّع، كانت جورجيا مدركةً أن خداع الآنسة جونز سيكون أصعبَ من خداع الصغيرتَين. فقد تذكَّرت كيف أن الفتاة اعتادت أن تتفرَّس في وجهها حين كانت تظن أن لا أحد يلاحظها، وهو الشيء الذي كان يزعج جورجيا. فلا بد أنها الآن قادرةٌ على أن تُفسِّر التغيراتِ التي تحدُث في تعبيرات وجهها، والانفعالات والمشاعر التي تتحكَّم في هذه التغيُّرات، وقادرة على تمييز التعبيرات الحقيقية والكاذبة.

حدَّثت جورجيا نفسها يائسة: «لن أستطيع خداعها أبدًا.»

وما لبِثت أن اكتشفت أن الكونت الأكثر خبرةً منها قد نجح تمامًا في خداع الصغيرتَين. فإنها حين التقت بهما في المرة التالية وجدتهما متقدتَين غيظًا. وكانت ميفيس التي تستهويها الشكوى مستشيطة غضبًا وهي تُطلِع أمَّها على الأخبار.

«هل سمعتِ أنباءَ تلك العجوز اللئيمة جونز؟ إنها تريد أن نعود إلى إنجلترا، حتى يتسنى لها الاستمرار في التدريس لنا إلى الأبد. لذلك ستأتي هنا لترى إن كنا تدهور ... إن كنا تراجعنا، لأننا بتنا نعيش بلا نظام.»

فقالت ميرل بتهلُّل: «لكننا سنفسِد عليها خطتها. فسوف نُخيِّم عند حمام السباحة طوال اليوم، ولن نخاطبها ولو بكلمة واحدة. وبذلك لن تستطيع أن تنقل أخبارنا إلى جَدتي.»

فقالت جورجيا بوهن: «أعتقد أنها خطة جيدة نوعًا ما. هكذا سأحظى وحدي تمامًا بصحبة الآنسة جونز.»

أدركت جورجيا أن الصغيرتَين كانتا تستغلان تساهلها في الفترة الأخيرة، لكن لم يطاوعها قلبها أن تقوِّمهما؛ إذ شعرت أن الوقت المتاح لهما معًا قد يكون قصيرًا. وهنا شعرت لأول مرةٍ بإغراء المجازفة بسلامة الآنسة جونز.

فقالت لنفسها: «إنها حلقة الاتصال. ولن تتسنى لي فرصة أخرى أبدًا. لكن كيف يمكنني أن أنقل لها الرسالة؟»

تردَّدت أفكارها مع الأمواج المتكسرة على الصخور، فهي ساعة تفور في سعي محموم من أجل الحرية، وساعة أخرى تتراجع متحيرة. واتتها لحظة ذكَّرت فيها نفسها بأنها إذا

فشلَت فسوف تحمل حتمًا ذنب موت الآنسة جونز، كأنها هي مَن قتلتها، لكنها بمجرد أن أقنعَت نفسها بأن توريط الآنسة جونز سيكون من قبيل الغدر بها، فكَّرت مرةً أخرى في مسألة سلامة ابنتَيها.

ما دام عنصر البارود موجودًا، فستظل أرواحهما في خطر.

حاولت جورجيا أن تجد بعض الوسائل المضمونة للتواصل، لكن أعيتها صفات الآنسة جونز. فقد كانت مخلصة وشجاعة، لكنها لم تكن سريعة البديهة، وكانت أكثرَ صدقًا وصراحةً من أن تتحمل الدور الذي سيُطلب منها أن تؤديه. سيكون من المحتَّم أن تفضح نفسها بسؤال أو نظرة.

إن أقلَّ تردد، أو سوء تفاهم، أو قصور عن التقاط كل كلمة سينجم عنها هلاكهن. رُوعت جورجيا من الصعوبات التي تواجهها. كانت قصتها أكثرَ تعقيدًا من أن توجزها في كلمتَين أو ثلاث. فلم يكن عليها أن تُوضِّح الخطر والحاجة الماسَّة لتكليف تورش بالنجدة فحسب، وإنما كان عليها كذلك أن تبلغ الرسول بالخطر الذي سيحيق به إذا ارتيب في علمه بالأمر.

كان الموقف سيرهق حتى تورش بسرعة فَهْمه وسَعة حيلته، لو كان هو مَن زارها، وحين تذكَّرت صممَ الآنسة جونز، أدركت أنه لا أمل.

ثم خطر لها خاطر، فقالت لنفسها: «بإمكاني أن أكتب رسالة. ليس من المحتَمل إطلاقًا أن تتاح لي الفرصة لأعطيها لها. لكن كل شيء جائز. فقد يغفُلون عن شيءٍ وهو واضح.»

كانت جورجيا في حاجةٍ إلى العزلة، فنزلَت إلى غورٍ في الصخور، واستلقَت منكمشةً على نفسها بداخله. كانَت في مكانٍ منخفضٍ جدًّا حتى بدا كأن البحر قائمٌ فوقها مثل جدارٍ أخضر متصل. وهو ما أسبغ وهمًا بأن الجزيرة غدَت بلا جذورٍ وقد حملتها موجةٌ هائجة؛ فقد بدا المحيط هادئًا، في حين راحت جورجيا تهتزُّ في حركةٍ مستمرَّة.

وما لبِثت أن بدأت الحركة المستمرة تثير فيها القلق. وتاقت نفسها إلى إيقافها، كما يستطيع المرء التلاعب بآلية الساعة. كانت المرة الأولى التي تمرُّ فيها بهذا الشعور، وقد أدركت خطورةَ السماح له بالتأثير على رابطة جأشها.

ثم قالت بعزم: «يجب ألا توهِن الجزيرة من عزيمتي.»

وأغمضت عينَيها بإحكام، محاولة حلَّ مشكلة الرسالة. سيكون عليها أن تخفيها هي أولًا قبل أن تحاول نقلها إلى الآنسة جونز. والحِيَل على غِرار دسِّها في حقيبة أو

جيب كانت بدائية جدًّا، أما الحِيَل الأذكى والأعقد فلم تكن آمنة، بما أنها كانت عُرضة أن يلاحظها أحد ويكتشفها قبل الأوان.

بعد استبعاد أغلب الخطط التي استخدمتها في حبكات رواياتها، نهضت جورجيا وفركت ساقَيها المصابتَين بتشنُّج عضلي.

ثم قالت وقد قرَّرت ما ستفعله: «سوف أكتب الرسالة الآن. فربما لا يعطونني فرصةً لكتابتها إن انتظرت إلى آخر لحظة.»

ثم اتخذت مسارًا منحرفًا وهي تعتلي الصخورَ الزلِقة، فمرَّت برقعة الخضراوات والزهور المزروعة في منحدر محجوب لكنه وعر، ووصلت إلى الشرفة الوسطى سالكةً الطريق الخلفي للشَّجيرة.

رفعت السيدة فاندربانت عينَيها عن الجريدة التي كانت تقرؤها بنظارةٍ يدوية، وتحدَّثت بأسلوبها الرسمي المعهود.

«إذا كنتِ ستعودين إلى عملكِ يا سيدة يو، فلديَّ رسالة من الكونت. فإنه يرى أنكِ ستكتبين بأسلوب أفضل بعد استراحة قصيرة.»

لمَّا حُذِّرت مما ينتظرها، شرعت جورجيا تصعد السلالم القصيرة سريعًا. فوصلت إلى حجرتها ووقفت تلهث وهي تحدِّق نحو مكتبها.

كانت كل لوازم الكتابة قد اختفت. فقد سمحت لأعدائها أن يسبقوها وهي تضيِّع وقتها على الصخور. وكانت لا تزال تؤنِّب نفسها حين ظهرت كلير في الشرفة. وقد استندت إلى الجدار، واضعةً يديها في جيوب بُرْنسها المصنوع من قماش وبري أبيض في برتقالي.

سألت كلير جورجيا: «ما رأيكِ فيما فعلت؟»

فقالت جورجيا بمرارة: «ثابتة على مستواكِ من الإتقان. أرى أنه اهتمام زائد بالتفاصيل.»

«إنه مجرد إجراء تمهيدي لإبعادك عن الإغراءات. لن تعثري على قلم حبر أو رصاص في أي مكان، فلا حاجة بكِ للبحث. لكن بعد غد، سنكون مدقِّقين حقًّا.»

«إنني أتطلع إليه إذن. فعندئذٍ سألقى امرأة محترمة مرة أخرى.»

ساور جورجيا شعورٌ فطري خافت بالرضا لإدراكها أنه رغم أن السيدة فاندربانت كانت حصينة ومنيعة، فقد كان من الممكن الحط من احترام الكونت وكلير لنفسيهما. فقد نظرت إليها الفتاة شزرًا، لكنها لم تنطِق بكلمةٍ أخرى في خروجها من الحجرة منحنيةَ القامة.

راحَت جورجيا تذرع حجرتها جَيئةً وذهابًا، غير قادرة على الوصول إلى قرار. ولم تزل كذلك حين دخلت عليها الصغيرتان، وهما في طريقهما لتغيير ملابسهما من أجل العشاء.

فقالت ميفيس: «قضينا وقتًا ممتعًا. فقد سمعنا قصصًا مرعبة.»

ثم شرعت ميرل تشرح لأمها عندما لاحظت استياءها.

فقالت: «إنه رعب مفيد، لأنه يحذِّرنا. يجب ألا ننزل المياه ونحن منقطعات الأنفاس، وإلا غرِقنا وهبطنا أكثرَ فأكثر، فلا نطفو مرة أخرى أبدًا.»

ثم قاطعتها ميفيس قائلة: «هذا ما أخبرنا جوستاف به. إنها حقيقة. فقد كان هناك سيدة مسكينة خرجت في قارب بخاري، وحين بدأ يهتزُّ بها أصابها الذعر وقبضَت على عجلة القيادة، لكن السائق أبى ذلك فتحامقت، وظلت تحاول حتى أفلتت العجلة من يد الرجل ودارت، فأصابتها في صدرها، وأوقعتها لتسقط في البحر و...»

تدخَّلت ميرل وقد ظلَّت منتظرةً أن تصمت أختها لالتقاط أنفاسها، فأتمَّت القصة بقولها: «ولم تطفُ قط.»

وبينما كانت جورجيا تُصغي إليهما، شعرت برجفةٍ توجسًا مما هو آتٍ. فقد أدركت أن القصة قد اختُلِقت حتى تسمعها، وأن ما كان كذبًا في الماضي من الجائز أن يصبح حقيقةً في المستقبل، إذا حاولت أن تُعلِم الآنسة جونز.

الفصل العشرون

الرسالة

لم تنَم جورجيا إلا قليلًا في الليلة السابقة لزيارة الآنسة جونز. فقد بقيت ساعاتٍ ساهدةً من الانفعال، وحين أغمضت عينَيها أخيرًا أيقظها صوتُ البحر.

كانت معتادةً عليه تمامًا؛ إذ كانت تعيش على الساحل، حتى إنها لم تنتبه له من قبل، إلا باعتباره موسيقى مصاحبةً للفكر. من ثَم فقد كان شعورها بأن صوت البحر دخيل عليها هو شعور جديد منذر بسوء. فمجرد قدْرته على أن يقلِق راحتها يدُل على أنها بصدد فقدان سيطرتها على نفسها.

لم يكن ذلك الهدير البطيء الرتيب الذي اعتادَته. فما جعل أعصابها تضطرب أن الضوضاء كانَت متقطعةً ومتفرقةً؛ نظرًا لعدم تساوي الصخور التي تكسَّرت عليها أمواج المحيط. فكان يأتيها أحيانًا زئير مدوٍّ لأمواجٍ متكسرة يتبعه صوت قعقعة الموج في انحساره، ثم أصوات القرقرة الغليظة الناتجة عن تدفُّق الماء وسط الشعاب المرجانية مستكشفًا شقوقها. وأخيرًا يسود الهدوء مدةً وجيزةً قبل الهجوم التالي.

خبرت جورجيا نفسها بأن هذه الأصوات ستظل تتردد في أذنَيها إلى الأبد. ولا تملك هي أن توقفها. فإذا سمحت لها باختراق حاجز هدوئها فستجلِب لنفسها انهيارًا عصبيًّا، حيث من الممكن لخيالاتها المروعة أن تتنامى في مراحلَ متصاعدة من الهستيريا، حتى تبلغ ذروة الجنون.

ثم قالت تُحاجُّ نفسَها: «إن البحَّارة وخفر السواحل هم ناس عقلاء وراشدون. ويشتاقون إلى صوت البحر إذا اضطُروا إلى العيش بعيدًا عن الشاطئ. فهو يبعث على الاسترخاء. لكنني تركته يُوتِّرني. سأفكِّر بدلًا من ذلك في الآنسة جونز. الآنسة جونز العزيزة.»

بدا غريبًا أن تحافظ على الرسميات بأن تذكر لقبَها في تلك الأزمة، لكنها لم يسبق أن نادتها باسمها الأول قط.

حدَّثت نفسها قائلة: «إنها حجر عثرة في سبيلهم. بدَا لهم خطة مضمونة أن يخفوني في هذا المكان المهجور. وظننتُ أنني هلكت. لكنها عثرت عليَّ بمنتهى السهولة. إنني متأكدة أنهم مذعورون الآن.»

كان من المطمئن استنتاجُ أنهم ما داموا اختطفوها في سعيٍ يائسٍ للاستيلاء على مالٍ ضروري، وليس بخطةٍ محكمة، فربما يكون هناك الكثير من الثغرات. فلم يكن مختطِفوها يعلمون ما سيُواجهونه، أو كيف يتحاشون تطورًا غيرَ متوقَّع.

لكنها عندئذٍ تذكَّرت أن الناس وهي مذعورةٌ تغدو خطيرة؛ لأن اليأس ينتابُها. ربما يندمون على إقدامهم على هذا الأمر، بما أن عائده غير متناسبٍ مع مخاطره، لكن ما داموا قد بدءوه، فلا بد أن يتمُّوه بأي ثمنٍ بما يضمن سلامتهم.

شاعرة أنها لا بد أن تكتم على الأقل صوتَ البحر، خرجت جورجيا من الفراش لتبحث عن قطن. وبعد أن سدَّت أذنَيها، لبثت عند النافذة، تطلُّ على طبقات الزَّبد الكثيفة وهي تتراكم على الصخور المتوارية.

قالت جورجيا لنفسها: «بإمكاني أن أتركَ نورَ حجرتي مضاءً طوال الليل. لكن ليس هناك أحدٌ ليقول: «ثمة شخص مستيقظ في ذلك المنزل.» فلا توجد سفينة ولا قارب.»

وما هي إلا لحظة حتى ابتهجَت جورجيا أنها لم تُنسَ؛ فقد تبيَّنت أن ثمة طريقةً لتتواصل بها مع الآنسة جونز. فقد تركت الصغيرتان إحدى جرائدهما القديمة على كرسيها. بإمكانها أن تقتطع منها الحروف وتلصقها معًا لتكوِّن رسالة قصيرة.

ومن دون أن تعطيَ نفسها الوقت لمزيدٍ من التفكير، بدأَت تؤلِّف رسالتها. كان لا بد أن تكون موجزة، بحيث تستطيع الآنسة جونز أن تقرأها بلمحة عين، إلا أنها لم تُقدِم على حذف أي كلمات قد يلتبس المعنى في غيابها.

وسرعان ما تمكَّنت من قص الكلمات اللازمة، وتجميع القصاصات على المساحة الفارغة لعمود آخر خبر، بمساعدة زجاجة الغِراء.

> خطر. لا تحدِّثيني حين تقرئينها. فهم يراقبوننا. تصرَّفي على طبيعتكِ. ارحلي على القارب. أخبري تورش أن حبكة الرواية هي قصتي أنا. إنها تحدُث لي الآن. لا تتركي أحدًا هنا يخمِّن أنكِ تعلمين. خطر عليكِ. اتركي كل شيء لتورش ليتصرَّف.

أزعجها أن تضع شرحًا كثيرًا هكذا، لكنها لن تجازف أن تعتمد كثيرًا على ذكاء الآنسة جونز. وبعد أن فرغت من الرسالة، دسَّتها تحت وسادتها واستغرقت في النوم.

واستيقظت متفائلة يحدوها أملٌ جديد.

فقالت لنفسها وهي تعيد قراءة رسالتها: «انتهى النصف الأول. والآن عليَّ أن أخفيَها في مكان آمن وأتدبَّر طريقةً ما لأعرضها عليها.»

في البداية لم تكن حيلتها مكافِئة للمجهود الذي بذلته. إذ لم توحِ لها إلا بإخفائها داخل كتاب، وهي طريقة أحمق وأخطر من أن تتبعها.

استنتجت قائلة: «سيظلون يراقبوننا طوال الوقت. هذا بجانب أنها مسألة بديهية جدًّا. فلن يسهوا عن احتمال أن أكون قد تدبَّرت كتابة رسالة، بطريقةٍ ما. وسيفتِّشون حجرتي قبل أن تأتيَ وسيفتشونني. فلا يجب أن أضعها في المنزل وإلا عثروا عليها ... لا بد أن تكون خارجه.»

تذكَّرت جورجيا كتلةً كبيرة من الطحالب البحرية تدلَّت من مسمار في الجدار أسفل نافذتها. كانت ابنتاها قد علَّقتاها هناك لتعرفا منها حالة الطقس، لكنهما نسيتا أن تتحسَّساها بعد بضعة أيام. وقد بدَت لجورجيا مكانًا مثاليًّا للإخفاء؛ إذ ثبَّتت الرسالة بالمسمار واضعةً إياها أسفل الطحالب.

وقالت لنفسها: «أرجو ألَّا يخطر لأحدٍ البحث هنا. لكن حتى لو فعلوا، فلن يروا شيئًا، إلا إذا فتَّشوا في الطحالب.»

كان يومًا وضَّاءً بسماءٍ تلوَّنت بالأبيض والأزرق وبحر هادئ الأمواج، بَيْد أن جورجيا بالكاد استطاعت أن تتحمَّل إثارةَ انتظار رجوع القارب البخاري. وقبيل الساعة الحادية عشرة، لمَحَته كلير من موقعٍ لها للمراقبة على السطح. وكانت تبدو كعضو في جوقة مسرحية من الذكور، بزيِّها المكوَّن من سروال وسترة حين انضمَّت إلى جورجيا على رصيف النزول.

قالت كلير تأمرها: «قفي ثابتةً بينما أفتِّشكِ.»

كانت جورجيا ترتدي ملابسَ خفيفةً جدًّا، حتى إن أقلَّ صوتٍ يصدر من الورقة كان سيشي بمخبئها. وقد امتنَّت كثيرًا أنها لم تحاول إخفاء الرسالة معها، حتى إنها لم تشعر بالإهانة وكلير تمعن في إهانتها.

انقضَّت كلير على حقيبة جورجيا بعد ذلك، فبحثت في أقسامها وتحسَّست البِطانة.

فسألتها جورجيا بعد أن فرغت: «أهو مجرد إجراء شكلي آخر؟»

«بالضبط. فإنني لم أحسبك حمقاء بالقَدْر الذي يجعلك تحملين شيئًا محظورًا.»

لم تكن جورجيا مصغيةً إليها إذ تتطلع نحو القارب البخاري، وهو ينطلق مضطربًا وسط الزَّبد. استطاعت التعرُّف إلى الجسد الضخم المتكئ على جانب القارب يلوِّح بيده، واعتقدت أن الآنسة جونز قد استعدَّت لطقسٍ قاسٍ. ولدى رؤيتها، تلاشى منها رَوعها من محبسها، ولم تخالجها إلا الحماسة الطبيعية للترحيب بصديقة.

لكنها جفَلت حين قبضَت كلير على ذراعها.

حيث قالت لها بنبرةٍ قاسية: «كفِّي عن الابتسام. وأصغي إليَّ. إياكِ أن تحاولي الهمس لصديقتكِ. فإننا أربعة، وستجديننا في كل مكان، طوال الوقت. لن تنفردي بها أبدًا. سنظلُّ نراقبكما ونتنصَّت عليكما.»

تذكَّرت جورجيا تجربتها الخاصَّة حين تسلَّلت من الشرفة الأرضية، وفاجأَت السيدة فاندربانت والبروفيسور في خلوتهما. من الجائز أن يكون المنزل قد بُني خصيصَى لتيسير التنصُّت، لقد صُمِّم بحيث يدخل الهواء والشمس والضوء، لكن شرفاته المتصلة، وخِزاناته المدمجة في البناء، والحجرات المزوَّدة ببابَين كلها تتحوَّل إلى أذنٍ ضخمة.

بعدئذٍ تفكَّرت جورجيا في خطتها وقد تجدَّد أملها. فإن تفتيش كلير لها يدُل على أن رسالتها لم تُكتشف. فهي لا تزال معلَّقة خارج الجدار في الجزء المواجه للريح من الجزيرة، فلا يرى خفقان الورقة البيضاء إلا النورس.

إذا ظلَّ الحظ حليفَها، فسيمكنها التواصل مع الآنسة جونز، حتى في وجود العيون المتطفلة. عليها فقط أن تدعوها إلى مشاهدة البحر في انكساره على الصخور من حجرتها، ثم تَفرِد رسالتها حاملةً إياها تحت النافذة، بحيث لا يراها أيُّ شخص داخل الحجرة.

ولحسن الحظ أن الآنسة جونز كانت بعيدةَ النظر ويمكن أن تقرأها بلمحة، بينما تقبِض هي على معصمها لتؤكد على خطورتها. وبمجرد أن تتأكَّد من أن المربية قد أدركت رسالتها، ستترك دليلَ الإدانة ليسقط في اضطراب الأمواج.

كلُّ ما سيتسنى للمشاهد أن يراه هو امرأتان تُطلَّان من نافذةٍ مدةَ دقيقة، تشاهدان رذاذَ البحر، قبل انصرافِهما متأبطتَين، وهما لا تزالان تعبِّران عن روعة المشهد.

لم تستطِع جورجيا أن ترى عيبًا في خطتها، ما دام لا يوجد ما يربط بينها وبين مؤامرة مضادة. فقد حرصت على تكوير الجريدة الممزَّقة بإحكام وإلقائها في البحر، قبل أن تذهب إلى الفراش؛ وحين أطلَّت من النافذة في الصباح، كان قد اختفى كلُّ ما لها من أثر.

لكن ما أرهب جورجيا هو أن كل شيء كان مرهونًا بشجاعة الآنسة جونز وقدرتِها على أداء دورها. فإذا كانت حمقاء أو أخفقت، فستكون جورجيا مسئولة مسئوليةً مباشرة عن موتها.

وإذا بهمس كلير المبحوح يعيدها إلى اللحظة الراهنة.

«خذي. ارتدي هذا، وبدِّلي مكانكِ معي. عليكِ اللعنة.»

وخلعت من أصبعها خاتمَ زواج من البلاتين المرصَّع بالكامل بأحجار الألماس، وشاهدت جورجيا بعينَين غيورتَين وهي تلفُّه فوق خاتمها الذهبي البسيط.

كان القارب البخاري قد اقترب جدًّا، حتى إنها استطاعت أن ترى وجهَ الآنسة جونز المعبِّر متوهجًا. كانَت ترتدي بذلةً من التويد الوردي الباهت، ومعطفًا طويلًا ومعطفًا للمطر متماشيَين معها. وقد تطاير شعرها خصلاتٍ تحت قبَّعتها المنسوجة من اللَّبَد، واحمرَّ أنفها من الرياح، إلا أن عينَيها كانتا تشعَّان بالود الصادق، حتى إن جورجيا كادَت تبكي.

فها هي ذي إنسانةٌ على استعدادٍ أن تجودَ بنفسها بإخلاص حتى النهاية، دون أن تسأل على ذلك أجرًا. وقد اضطُرت جورجيا أن تكبح رغبتها في الاندفاع نحو ذراعَيها، عندما كادت الآنسة جونز تسقط عند نزولها من القارب.

كانت المربية على استعدادٍ للمصافحة؛ لذلك فقد ابتهجَت بترحيب جورجيا الحميم غير المتوقَّع.

قالت جورجيا: «من الرائع رؤيتكِ مرةً أخرى.»

فتدخَّل الكونت قائلًا: «ألم أكن أنا المقصود بتلك القُبلة؟»

لمَّا ذُكِّرت جورجيا بأنها عروس صورية، تأبَّطت ذراعه طائعةً.

وقالت: «مرحبًا بك يا آنسة جونز على جزيرتنا. كلانا نرحِّب بكِ.»

فقالت الآنسة جونز مبتهِجة: «إنها أجمل مما تخيلت. لكن أين الصغيرتان؟»

«في حمام السباحة. فكأنهما تعيشان هناك. حتى إننا نتوقع أن تنموَ لهما زعانف ... تعالي لتريهما.»

رافقهما الكونت وهما تنزلان السلالمَ الوعرة المشقوقة في الصخور.

سألتها جورجيا بحنين: «هل رأيتِ أمي مؤخرًا؟»

«لا، لقد وصلنا أبكرَ مما توقَّعنا.»

حين أعادت جورجيا عليها سؤالها، ضحكت الآنسة جونز على خطئها.

وقالت: «لقد صرت صماء بحق اليوم. لذلك سيكون عليكِ أن تصيحي. هذا نتيجة الانطلاق في البحر، وهبوب الريح على أذنَيَّ. فها أنا ذي أشعر بهما مسدودتَين تمامًا.»

فعلَّق الكونت قائلًا: «لن تستطيعا الهمس بأسرارٍ إذن. يا للخسارة!»

وحين وصلوا إلى حمام السباحة، خرجت منه الصغيرتان وألقيتا بذراعَيهما حول المربية، متعمدتَين أن تغدقا عليها كميةً وفيرةً من المياه، وفقًا للخطة.

وقالت ميفيس وهي تقبِّلها مرة أخرى: «هذا «وداعٌ» أيضًا. فلن ترينا مرة ثانية أبدًا.»

سريعًا ما قالت جورجيا لتوضح لها: «سوف تتناولان وجباتهما هنا. فإنني أريد الاستئثار بكِ لنفسي.»

فعلَّقت ميفيس برزانة: «علينا أن ننمي قوانا.»

فضحِكت المربية من عبارتها غير المناسبة.

وقالت: «إنكما تبدوان مثل زوج من المصارعين الصغار.»

فقالت ميرل مذكِّرة إياها: «لكن الناس الضخام دائمًا ما يكونون ضعافًا، مثل جالوت المسكين.»

فاغتبطت ميفيس التي جعلها شغفها الجارف بالحيوانات تعافُ اللحم، وقالت: «أجل، لقد هزمه داود لأنه يأكل البقول الصحية بدلًا من اللحم الضار.»

فقالت المربية تصوِّب لها: «بل إنه دانيال. سوف أُضطر إلى إعطائكما درسًا آخرَ في الكتاب المقدس.»

هنا ذُعرت الفتاتان من الوعيد، فهُرعتا إلى حمام السباحة مثل زوجٍ من جرذان الماء يطاردهما كلب.

الفصل الحادي والعشرون

الحظ الضائع

تحدَّثت الآنسة جونز إلى جورجيا وهي تبتعد عن حمام السباحة.

«هل أنتِ على خير ما يرام، أم فقدتِ وزنًا، مثل الصغيرتَين؟ أعتقد أنني لست بحاجةٍ لسؤال عروس إن كانت سعيدةً أم لا.»

فقالت جورجيا: «انظري إليَّ.»

حدَّقت فيها المربية تتفرَّسها بإمعان كما لو كانت ستطلع على قلبها، ثم هزَّت رأسها.

«إنكِ مسمرَّة جدًّا؛ لذا لن أستطيع أن أعرف حقًّا. لكن لا بد أن تكوني سعيدة. فكل شيء مثالي. إنها المرة الأولى التي أحسُد فيها أحدًا غير المنشدين المحترفين.»

تصنَّعت الآنسة جونز الشغفَ بدافع التكفير عن شكوكها السابقة. وقد قضى الكونت على ريبتها بقيامه برحلة ذهاب وعودة لإحضارها إلى الجزيرة. حيث بدت لها بادرة كريمة من حسن الاستقبال، حتى إنها وجدَت نفسها مجبرةً على شعور مجمل بالإعجاب.

كانت ترى الجزيرة في أحسن حالاتها، حيث اجتمعت عناصر الطبيعة لتضفي عليها بهاءً. كان هناك الحركة واللون في تدافع الأمواج وارتجاف أشجار الصنوبر والنسيم يداعبها. وكان البحر بالغ الزرقة من انعكاس السماء، لكنه يكتسب لونًا أخضرَ عند الظلال، ولونًا أرجوانيًّا فوق الصخور المغمورة. وقد ساد الجو في العموم الإثارة والترقب، مع روح العطلة التي حملتها معها والتي أثَّرت على الآخرين دون قصد.

كانت الصغيرتان متحمستَين لأنهما قد رتَّبتا لتمرُّد صغير ضد السلطة. فقد توقَّعتا أن تقضيَ المربية اليوم تحاول تلقينهما الدروس بالحيلة، وقرَّرتا ألَّا يستدرجهما شيء من حصنهما المائي.

الكونت هو الآخر كان مسرورًا؛ إذ أدرك الفوائد التي قد تترتَّب على زيارة الآنسة جونز. حيث إنهم من الوارد أن يأمَنوا حدوثَ استقصاء في المستقبل، إذا عاد المرسال ليفيد بأن كل شيء على ما يرام.

أما جورجيا فقد استسلمت لأجواء الدَّعة، حين استدعاها الماضي فارتدَّت إلى ملاذٍ آمنٍ من الذكريات والتداعيات. بدا من الطبيعي جدًّا أن ترى المربية مرةً أخرى وتعيد الوصال القديم، حتى إنها وجدت أن من المستحيل تصديقَ أنها في الواقع صارت ضحيةً لمجرمين. فمع شعورها بضغط ذراع الآنسة جونز وسماعها صوتها العذب، بدا كأنها قد بلغت بعدًا رابعًا، حيث تجاوز الزمن تقسيماته المحدَّدة وامتد في تيار مستوٍ متدفِّق.

فتلاشى الحاضر البغيض متهافتًا، يرتجف أمام الواقع الصامد للصداقة وأمان الماضي. وإذ فجأةً تذكَّرت جورجيا رسالتها، وهي ترفرف، بعيدًا عن الأعين، فشعرت بسعادة وحماسة. وهكذا آملة في حل سريع لكل المِحَن التي ابتُليت بها، اصطحبت جورجيا الآنسة جونز صاعدتَين المسارَ الممتد بين الأشجار.

وقالت لها بلهفة حقيقية: «أتُوق أن أريكِ المنزل.»

وعلَّق الكونت قائلًا: «أحسنتِ. إنكِ تبلين بلاءً حسنًا.»

كان صوت الكونت خفيضًا وهو يتبعهما، حاملًا معطفَ الآنسة جونز ومعطفها الواقي من الماء، لكن جورجيا حدَّقت بشدة في المربية، لتتبيَّن ما إذا كانت سمِعته.

لكن بدا وجهها جاهلًا وهي تنظر بتمعُّن بدورها إلى جورجيا.

قالت الآنسة جونز: «تبدو عيناكِ متعبتَين.»

«لم أستطِع النوم ليلة أمس. فقد كنت في حماسةٍ شديدةٍ وأنا أفكر فيكِ.»

قالت الفتاة وقد تألَّق وجهها: «فيَّ أنا؟ لا أصدِّق. لقد خشيت أنكِ قد ترين أنه تصرُّف مزعج مني أن آتيَ دون دعوة هكذا. فأنا لم أعطِكِ الفرصة لتستمهليني بلباقة. حتى إن الكونت ظل يسخر من شجاعتي حتى أتطفل على عروسَين في شهر عسل.»

فقالت جورجيا تقرُّ كلامها: «أعتقد أنكِ كنتِ جريئة بعض الجراءة. لكنني أسامحكِ على ذلك.»

فقال الكونت مشجعًا جورجيا من الخلف: «جيد. استمري على هذا المنوال.»

بدا لجورجيا أنه يقدِم على مجازفات لا ضرورة لها، بنفس الروح المتهورة التي قطف بها الزهور في الحديقة، على مرأًى ومسمع من الحارس. إنه محض خواء بلا جوهر، مثل خيال مآتة مطلي بالذهب، تهزُّه عواصف أهوائه غير المسئولة.

وعلى حين غِرة تساءلت جورجيا إن كانت الآنسة جونز في غفلةٍ كما تبدو أم لا. فربما جاءت في مهمة إنقاذ، لاستكشاف الوضع، وقد اصطنعت هذا الصممَ الزائد. فهي عادةً ما تسمع جيدًا، ما دام الناس يتحدثون بنبرة طبيعية واضحة.

وهنا طار الأمل عاليًا بجورجيا مرة أخرى. حتى إنه انعكس في ارتعاش صوتها وهي تشير إلى المنزل.

«ها هو ذا. ما رأيكِ؟»

«إنه مثالي. قصر.»

ثم تطلَّعت المربية متوجسةً نحو السيدة فاندربانت بطلتها المهيبة؛ إذ كانت واقفة بشموخ أعلى درجات السلم.

وقالت: «لا بد أن مظهري يبدو غير لائق. فقد ظننت أنني آتية إلى البراري. لم أتوقَّع قط شيئًا بهذه الفخامة.»

فقال لها الكونت: «لا بد أن تتذكري أن تصفيه لهم حين تعودين. فسيكون لديهم رغبة لمعرفة معلومات عن منزل جورجيا.»

مع أنها لم تُرِد إفساد الانطباع الجيد الذي تركته في نفس الضيفة بالذهاب لملاقاتها، فقد اتسم استقبال السيدة فاندربانت لها بالوقار وشابه الودُّ عِلاوة على ذلك.

فقد قالت: «لا بد أنكِ جائعة من بعد السفر مبكرًا. لذلك سنتناول الغداء في الحال. فلن نكون رسميين معكِ.»

فتدخَّل الكونت قائلًا: «إنها مشغولة بشأن إصلاح هندامها.»

«سأصطحبها إذن إلى دورةِ مياه الطابق الأرضي. فسيوفر هذا عليها صعود السلم.»

وقبل أن يمكن لجورجيا التطوُّع لمرافقتها، رافقت السيدة فاندربانت الآنسة جونز إلى دورة المياه. وبقيت معها لتتأكد من ذوقها في مستحضرات التجميل، وتطمئن أن كلَّ شيءٍ على ما يرام قبل أن تغلق الباب وراءها بإحكام، وتنضم إلى جورجيا في البهو.

وأثناء انتظارهما جعلت المرأتان تنظران كلٌّ منهما إلى الأخرى. لم تتحدثا، لكن الأكبر سنًّا حققت الانتصار الأول. كان على جورجيا أن تقر لنفسها بأن المنزل كان عدوًّا لها. فسوف يحرمها من أي فرصة للانفراد بضيفتها، ما دام كل باب يخفي خلفه جاسوسًا.

بعد قليل توقَّف صوت تناثر الماء، وخرجت الآنسة جونز من دورة المياه وهي تبدو في غاية النظافة والهندمة. قادتهم السيدة فاندربانت إلى حجرة الطعام، حيث أُعدت مائدة فاخرة من المشهيات. وبعد أن اغترفوا لأنفسهم وجلسوا مرةً أخرى، دخلت عليهم جريتا بالطبق التالي.

كانت ترتدي تنورةً من قماش أسود سادة، وصدرية من مُخمل أخضر موشاة بزهور زاهية، ومئزرًا مخططًا باللون الأحمر والأسود والأبيض. وقد ثبَّتت في شعرها الأصفر بأنشوطة من الخلف قبعة مخروطية الشكل بحوافٍّ مخططة. وجاء خلفها البروفيسور، يرتدي هو الآخر زيًّا شعبيًّا ويحمل كومة من الصحون.

مما أزعج جورجيا أن العصابة كانت قد أعدت العُدة للموقف. فقد قام الكونت والسيدة فاندربانت بدور السجَّانَين، تحت مسمَّى حسن الضيافة، في حين أُسندت إلى كلير مهمةُ المخابرات السرية.

وقد أجالت الآنسة جونز النظرَ في أنحاء المائدة وعلَّقت على غيابه.

«هُيِّئ لي أن ثمة صبيًّا يقيم معكم هنا. وأنا متأكدة من أنني رأيته واقفًا عند رصيف النزول.»

فهتف الكونت قائلًا: «ابن أخي. إنه خجول جدًّا ... سمِعت أنكِ ستطبعين روايةَ زوجتي على الآلة الكاتبة، هل هذا صحيح؟»

«نعم، إنني أتطلع إلى ذلك. كما كان الأمر في الأيام الخوالي.»

«أرجو أن تلقى إعجابكِ. هل عرفتِ أنني المسئول عنها؟ فأنا مَن اقترح الحبكة. لكن على جورجيا أن تخلق روايةً كاملة من الخطوط العريضة التي اقترحتها عليها.»

ضحِكت الآنسة جونز وهي تهزُّ رأسها.

وسألته: «هل تخادعني؟ فالسيدة يو — عفوًا، الكونتيسة — كانت دائمًا ما تتلقى حبكات من اقتراحات القراء. لكنها كانت دائمًا ما ترفضها. فلا بد أن يكون كل كتاب عملًا أصيلًا من إبداعها.»

حين رفعت جورجيا عينَيها لاحظت أن عينَي البروفيسور السوداوَين اللامعتَين كانتا مثبَّتتَين على المربية. فذكَّرها في تلك اللحظة بمنفِّذ حُكم الإعدام وهو يقيِّم في ذهنه وزنَ مَن سينفِّذ فيه الحكمَ.

قالت جورجيا في التو: «هذا صحيح تمامًا. كانت الجزيرة تصيح ليُنسج حولها رواية، لكن ذهني كان خاويًا. لذلك اقترح جوستاف هذا الموقف.»

قال الكونت مقاطعًا إياها: «لقد واتتني الآن فكرةٌ أخرى. وسأخبر الآنسة جونز بها الآن بحيث تقر حتمًا بأنني مَن جئت بها حين تقرؤها لاحقًا.»

والتفَت نحو جورجيا.

«ألا تستطيعين أن تُدخلي زيارةَ الآنسة جونز في حبكتكِ؟ عليكِ بالطبع أن تحوِّليها إلى شاب. ولا بد أن تحاول البطلة أن تعطيَه رسالةً تشرح فيها أنها حبيسة. ألا تعتقدين أنها ستكون عنصرًا مثيرًا؟ إنه قريب جدًّا منها، لكنها غير قادرة على التواصل معه.»

فاحتجَّت الآنسة جونز قائلة: «لماذا لا تستطيع إخباره؟»

«إنها تلتزم الصمتَ لحمايته. إن عَرف، فلن يغادر الجزيرة حيًّا.»

«غير معقول. فسوف يقاوم العصابةَ ويهزِمها. فشخصية البطل تُؤلَّف خصيصَى بحيث تقاوم الصدمات. ولا يمكن أن تقتل واحدًا منهم.»

مرةً أخرى لاحظت جورجيا أن البروفيسور كان يراقب الآنسةَ جونز باهتمام خاص.

ثم قالت: «سيكون عليكما أن تتركا التفاصيلَ للمؤلِّفة. سأعمل بفكرتك يا جوستاف. أعتقد أنها ستتطور إلى شيء مثير.»

فقال الكونت معلقًا: «لكن الآنسة جونز لا تزال عابسة.»

فقالت المربية للتبرير: «إنه أمرٌ شخصي جدًّا، ولا يمكنني إخبارك به.»

«لا. لا. يمكنك إخبارنا ولا يوجد إزعاج. فنحن جميعًا في غاية السعادة والانسجام، ولا نريد أن يكون هناك ما يعكِّر صفونا. هاتي ما عندكِ أرجوكِ.»

«سأحكي إذن. الأمر وما فيه أنني لا أستطيع أن أستوعب لماذا السيدة ... أقصد الكونتيسة بدأت في كتابٍ آخرَ بهذه السرعة.» ثم التفَتت الآنسة جونز نحو جورجيا. «لقد اعتدتِ الشكوى من عملكِ والقول بأنكِ إنما تؤدينه من أجل المال. لكنكِ ثرية الآن، وبدأتِ التوَّة شهرَ العسل.»

فقال الكونت بلهفة: «دعيني أفسِّر لكِ الأمر. أخشى أنكِ عالمة نفسانية ضعيفة. ألا تعلمين أن المرأة ما إن تعتاد كسْبَ قُوتها، حتى لا تستطيع التوقف؟ إذ يصير الاستقلال في دمها. لا بد أن تلجأ إلى رجل من أجل مصروفاتها، لكنها تريد أن تحقِّق إنجازات أيضًا. هل أخبركِ بالسر وراء رغبة زوجتي في كسبِ مالها الخاص سريعًا؟»

«إذا كانت لا تمانع.»

«ليكن إذن، ما حدَث أنني قد استثمرت مبلغًا من المال في منجم في ألاسكا. احتمالات خسارة أموالي أعلى بدرجة بسيطة جدًّا، لكنني إن وُفقت، فسوف أخرج بثروةٍ صغيرةٍ من الصفقة. من ثَم فإن زوجتي تريد أن تشاركني فيه منذ البداية بمالها الخاص. لكنني حذَّرتها من أنها قد تخسره.»

كادت جورجيا تصدِّق التمثيلية وهي تستمع إلى صوته المسترسِل. وخطر لها أنه ارتجالٌ ذكي لتبرير ضياع أموالها حين يستفسر أقاربها عن ترِكتها، بعد الحادثة.

مع أن الكونت ظل يتلاعب بأعصابها طوال الغداء، فقد تمنَّت أن تمهِّد قسوتُه الطريقَ لإدراك الآنسة جونز الحقيقةَ حين تُريها الرسالة. توجَّست جورجيا خيفةً من لحظة المكاشفة، حتى إنها بالكاد استطاعت أن تطيق انتظارها. وفي غمرة القلق من استعجال اللحظة، تمنَّت جورجيا أن ينتهيَ الغداء، حتى يمكن لها اقتراح أن تُري ضيفتها المنزل.

لكن بينما هم يحتسون القهوة أخيرًا في الشرفة المشمسة، أدركت جورجيا أنها لا بد أن تترك السيدة فاندربانت تتخذ هي الخطوةَ الأولى. وكانت السيدة دَمِثة الأخلاق على نحوٍ غير مألوفٍ وهي تناقش ميعادَ رحلة رجوع المربية.

«سيبدو كلامي مجافيًا لآداب الضيافة، لكن لا بد أن نفكِّر في مصلحتكِ. فليس من المناسب أن تعودي إلى الفندق بعد منتصف الليل، إذا كنتِ ستجدين صعوبةً في الدخول. أعتقد أنكِ لا بد أن ترحلي في الساعة الخامسة، بعد أن نتناول الشاي مباشرةً ... أما الآن، فما رأيكِ أن تشاهدي المنزل؟»

قاموا جميعًا بجولةٍ في الطابق الأرضي — تصحبهم تعليقات حماسية من الآنسة جونز — وبعدها قادت السيدة فاندربانت الجماعةَ عائدين إلى حجرة الاستقبال.

وقالت السيدة فاندربانت: «ستريكِ جورجيا الحجرةَ التي تكتب فيها فيما بعد. فهذا سيتيح لكما الفرصة لتتحدَّثا على انفراد. أرجو أن تسامحينا على الاستئثار بك، لكننا قلما يسرُّنا بالزيارة شخصٌ بإمكانه الغناء.»

فقاطعها الكونت قائلًا: «بل وغناؤها جميل أيضًا. سوف نستغلك بلا هوادة.»

وقد نفَّذ تهديده، حاملًا الفتاة على غناء أغنية إثرَ أغنية. ولم تكن حماسته تكلفًا وقد استجابت هي لإعجابه بغنائها. فقد توهَّج وجهها البريء سرورًا مؤكدةً له أنها تشاركه الاستمتاع.

ومن خلال النافذة المفتوحة أمكن لجورجيا أن ترى البحر وهو يتكسَّر على الجزيرة. كان المدُّ عاليًا، حيث أخفت الأمواجُ بجيشانها ولونها الأبيض المخضر الصخورَ البارزة. فبدَت مثل أرضية من الرخام المعرَّق — صلبة حتى ليمكنك الرقص فوقها — باستثناء حين تنحسر عنها الأمواج لتكشفَ عن حواف سوداء حادة وقاسية.

وإذا بحادثةٍ تافهة تخلُّ بانسجام مجلس الغناء. فقد طلب الكونت من الآنسة جونز أن تدوِّن تفاصيلَ أغنيةٍ ما، ثم تذكَّر أن كلير كانت قد جمعت كلَّ أدوات الكتابة وأخفتها. فلم يدرك زلته إلا بعد أن مضى إلى المكتب الخاوي، تتبعه الفتاة.

فقال وهو يهزُّ كتفيه: «مكتب فخم من دون ورقة واحدة. أليس هذا المعتاد في منازل الروائيين؟»

فقالت الآنسة جونز تذكِّره: «لا بد أن هناك بعضَ الأوراق في حجرة المكتب.»

وقبل أن تذهب إلى الباب، جعلها تلتفت.

قائلًا بصرامة: «لا. لا تضيِّعي الوقت وهو أساسًا قصير جدًّا.»

وفي غضون دقيقة، كانت الآنسة جونز قد جلست مجددًا أمام البيانو.

وقد اضطربت جورجيا من هذه الحادثة اضطرابًا شديدًا. فلم يَرُق لها الأسلوب الماكر الذي اتبعه الكونت والسيدة فاندربانت في مراقبة الآنسة جونز. فقد أدركت أنهما كانا متوثِّبين مثل خيولٍ بلا حدوات تطأ على مخلفات زرع محترق، بعد اشتعال النار في البراري، وأنهما سيندفعان في ذعر إذا ما بدا على وجه الآنسة جونز أقلُّ ظلٍّ من الشك.

وقد استبد بها التوتر الحاد حين نظرت السيدة فاندربانت نظرةً خاطفة إلى الساعة.

قالت السيدة فاندربانت: «سيُقدَّم الشاي بعد قليل. لا بد أن الآنسة جونز تودُّ أن ترى حجرتكِ يا جورجيا.»

هبَّت جورجيا واقفةً وصعِدت السُّلم جريًا تستبق المربية؛ مخافةَ أن تأخذ بذراعها فتلاحظ أنها كانت ترتجف. وحين بلغت حجرتها، اضطُرت إلى أن تبذل مجهودًا لتفتح الباب. فقد كان ضغط الرياح شديدًا جدًّا حتى لَيخيَّل إليها أن ثمة شخصًا يحاول منعها من الدخول.

بعد إطلاقها صيحات الإعجاب أولًا، مضت الآنسة جونز سريعًا إلى منضدة الكتابة.

وسألتها: «أين الكتاب الثمين؟»

فأجابتها جورجيا: «مقفول عليه.»

«خسارة. فلتعيريني قلمًا وورقة، رجاءً. فإنني أودُّ كتابةَ أسماء تلك الأغاني من أجل الكونت ... لا يسَعني أن أصِف لكِ كم أشعر بالإطراء لمجيئه من أجل إحضاري. فقد جعلني أشعر بأنني موضع ترحيب.»

تظاهرت جورجيا بأنها تبحث في دُرج خاوٍ.

ثم قالت: «كأن آفةً أصابت البيت. يبدو أن الصغيرتَين قد استنزفتا ما لديَّ من أوراق ... لكن هيا تعالي هنا لترِي رغوة البحر في اندفاعها. إنها تكاد تبلغ الزجاج.»

وأثناء حديثها، كانت واعية تمامًا أن ثمة جمهورًا غيرَ مرئي. فقد كانت على دراية بأن كلير كانت مختبئة في إحدى الخزانات، تشاهد كلَّ حركة وتستمع لكل كلمة. اجتذبت

جورجيا المربيةَ نحو التجويف، وفتحت النافذة، وكان الهواء قد أغلقها التوَّة، مُحدثًا ضجة.

وحين فتحتها، اكتشفت أن احتكاك الريح بالورقة قد انتزعها من المسمار. فانسلَّت حتى كادَت تصل إلى آخر حُزمة الطحالب، لكنها كانت لا تزال معلَّقةً بالجدار ترتعش — مثل فراشةٍ مثبتةٍ بدبوس — لا يبقيها في مكانها سوى قبضة النسيم.

اندفعت جورجيا نحو الورقة في هلع، تحاول أن تصل إليها، لكن منعها سوارها الخشبي الذي علِق في المسمار. ولما حاولت تخليصه، انقطع الرباط المطاطي وسقطت الخرزات الخشبية المكونة للسوار في الزَّبد الفائر، وفي الوقت نفسه طارت الورقة بعيدًا.

شاهدتها جورجيا وهي تتهاوى في البحر، في حين صدرت من الآنسة جونز صيحةُ استياء.

«يا ويحي. لقد فقدت تميمة حظك.»

الفصل الثاني والعشرون

السجينة

أصاب جورجيا الذهول من هول خيبةِ أملها، حتى إنها نسيت أنه لا يزال عليها الاطمئنان على سلامة الآنسة جونز. حتى ذُكرت بانقضاء لحظة صمت محفوفة بالمخاطر، حين خاطبتها المربية بصوت خفيض مرتبك.

«ما الخطْب؟»

فاستجمعت جورجيا شتاتَ نفسِها لتتحدَّث بعدم اكتراث.

«كلُّ ما في الأمر أنني ما زلت مؤمنةً بالطِّيرة. كان أوزبرت مَن أعطاني سوار الحظ ذلك. فلا تخبريه بهذه الحادثة.»

فقالت الآنسة جونز مقتربة منها: «لن أفعل. إنني مسرورة جدًّا أننا صرنا بمفردنا أخيرًا. فلدي سؤال أود أن أسألكِ إياه. هل لديكِ رسالة شخصية تودين إرسالها إلى الديار؟ فإنهم يريدون أن يتأكدوا من أنكِ سعيدة حقًّا.»

لَمَّا تذكَّرت جورجيا أن ثمة جاسوسًا كان يستمع لكل كلمة، أدركت لماذا دُبِّرت هذه الفرصة. إذ إن الاستحسان الذي أبدته الآنسة جونز — مهما بدا صادقًا — كان هو رأيها المعلن الذي ستقوله لأي شخص. وكانت مهمة كلير أن تكتشف انطباعاتها الحقيقية في المجمل.

إن حياة شخص متوقفة على ما ستدلي به.

دبَّت الحياة في أوصال جورجيا من جديد؛ إذ تذكَّرت أن عليها أن تلعب دورها، وبذلت قصارى جهدها لتؤديه جيدًا.

فقالت: «إنني سعيدة بالطبع. كل شيء مثالي.»

«أكثر من مثالي. كل شيء ممتاز: الأشخاص والأشياء. لكن ثمَّة ما يقلقني. وهو أنكِ وحيدة.»

«وحيدة؟ مع ابنتيَّ وزوجي؟»

«لكنه غريب عنكِ.»

بينما المربية تتحدث، انتاب جورجيا شعورٌ بائس بأن الموقف على وشْك الخروج عن سيطرتها. فقد راح ينمو سريعًا مثل شجرة خبيثة حاملًا احتمالات خطيرة، حيث كل كلمة مثل عقدة منتفخة، تنذر بخروج نبتة جامحة سامة. لا بد من إسكات الفتاة مهما يكلف الأمر، حتى إن كان بتحطيم حبها وإخلاصها النادر المنزَّه عن الأغراض.

فقالت ببرود: «آنسة جونز، هلا تتوقفين عن خيالك رجاءً وتجيبين على سؤال محدَّد. هل أهلي قلقون عليَّ؟»

ونظرت إلى الوجه الذي احمرَّ ألمًا وعرفت أنها ستسمع منها الحقيقة. كانت في تلك اللحظة الموحشة تسيطر عليها رغبةٌ مجنونة لمعرفة أن ضوء حجرتها الوامض في لياليها الساهدة، قد امتد عبْر أميال من البحر الخالي، ورآه نَظَّارة في ساحل وطنها، كأنه نجمة وسط الظلام.

وقبل أن يمكن لجورجيا أن تذكِّر نفسَها بأن هذا الشعور المطمئن إنما سيسفر عن مأساة، هزَّت الآنسة جونز رأسها نافية.

«لأكون صادقة تمامًا، لا. فأمكِ مسرورة بزواجكِ، وهارفي مسرور بروايتكِ الجديدة. وأوزبرت مسرور لسعادتكِ. والكل مسرور عداي أنا ... في الواقع إن ما يثير جزعي هو الموقف الذي تحكيه روايتكِ. فلا أملِك التغلب على الشعور بأنه ربما يحدث لكِ.»

«حسنًا، هذه فرصتي لأخبركِ بنفسي.»

نظرت جورجيا في العينَين الوفيتَين بإشفاقٍ حقيقي. ومع أنها كان عليها أن تقضيَ على أي شك، فقد شعرت بعزاء لمعرفة أنه كان هناك شخصٌ واحد لديه القدرة على الشعور بالآخرين ليدري بحالها.

استأنفت جورجيا قائلة: «أخشى يا عزيزتي أنكِ أكثرتِ من قراءة روايات الإثارة التي تكتبها جورجيا يو.»

فقالت الآنسة جونز مؤكِّدة لها: «بل لم أسمع بها من قبل. هل هذا الجرس لاستدعائنا؟»

مع تصاعُد رنين الجرس النحاسي من البهو، أخذت جورجيا ذراع ضيفتها، وقد انتابها شعورٌ يائس بالنهاية. تمامًا مثلما تسجِّل أسطوانات الشمع الدوَّارة الصوت، لا يمكن إلغاء ما دُوِّن من هذا الحديث. ويتوقف كل شيء الآن على تقدير كلير ومستوى الشك لديها.

ولحسن الحظ فهي لم تكن ذات دهاء بالغ، وإنما كانت ساذَجة وطائشة، ذات حِيَل تقليدية مثل مفرداتها. وإذا بجورجيا تتشجَّع وتحاول الإيعاز بتلميح في آخرِ لحظة.

فقالت: «حان ميعاد تناول الشاي. أخشى أننا بلغنا نهايةَ هذا اليوم الرائع. أو على الأقل كان سيصير رائعًا لولا إصابتك بالصمم لسوء الحظ.»

وبينما جورجيا تتساءل ما إذا كانت الفتاة ستفهم قصدها، لاحظت أن الآنسة جونز راحت ترنو سريعًا نحو باب الخزانة، ومن دورة المياه المغلقة إلى حجرة الصغيرتَين.

قالت الآنسة جونز: «صحيح، إنني آسفة لاضطرارِكِ إلى الصياح. أرجوكِ أن تسامحيني إذا كنت تصرَّفت بحماقة شديدة. أرجو ألَّا تعتقدي أنني استغللت حسن ضيافة الكونت. سوف يكون لديَّ أشياء رائعة لأخبرهم بها حين أعود إلى الوطن.»

جاءت السيدة فاندربانت لملاقاتهما بمجرد نزولهما السُّلم، متشابكتَي الأذرع، بحيث لا يغيب صوت جورجيا عن مرمى سمعِهم مطلقًا. إلا أن الكونت ظل متغيبًا خلال الدقائق الأولى من تناول الشاي. أدركت جورجيا أنه صعِد إلى الطابق العلوي، من طريق آخر، لسماع تقرير التجسُّس من كلير. وحين ظهر رمقته بنظرة متفحصة، لكنها لم تستطِع الوقوف على شيء من ابتسامة الندم الصريحة على وجهه.

قال الكونت للآنسة جونز: «انتهى اليوم. لن أستمتع بالمزيد من الغناء الرائع. يا للخسارة!»

تناولوا الشاي في شرفةٍ مطلةٍ على البحر الذي اصطبغ حينئذٍ بزرقةٍ داكنة، واكتسى بخطوطٍ متداخلةٍ من الزَّبد بفعل الرياح. وقد تردَّد صفير الرياح في الهواء، منذرًا برحلةٍ صعبةٍ للبر الرئيسي.

ولأنها خشيت من إجابته، لم تُقدِم جورجيا على سؤال الكونت عما إذا كان سيقود القارب البخاري. فإنه إذا ذهب بنفسه، فستضمن بذلك سلامةَ الآنسة جونز. وفي اندفاع طائشٍ للقضاء على الشكوك، جلست جورجيا على ذراع كرسيه، واقتطعت جزءًا صغيرًا من الكعك من صحنه، كأنها بذلك تستعرض السعادة الأسرية وتأثيرها النافذ.

لكن حذَّرها عبوسه من أنها كانت تبالغ في تصنُّعها.

قال الكونت: «الكل معجب بوقارك يا عزيزتي. هكذا ستعتقد الآنسة جونز أنني المسئول عن مثل تلك الهفوة المؤسفة.»

هنا سألته المربية سريعًا: «هل ستعود معي؟»

«لا. لا بد أنكِ ستسامحينني على ذلك. فأنا عريس. وسوف أتعرَّض للتوبيخ إن بتُّ خارج المنزل ليلتَين متعاقبتَين. لذلك سيوصلك تشارلز. إنه الرجل الضخم الذي تولَّى إنزال الطعام وتقديمه على المائدة.»

«مرحى. لقد راقت لي عيناه في بريقهما وهو ينظر إليَّ. هل هو ظريف؟»

«إن لديه حسًّا فكاهيًّا قويًّا مع السيدات. وأنتِ أثرتِ إعجابه.» ثم نظر إلى ساعته وأضاف: «حان ميعاد الذهاب. إنني في غاية الأسف.»

اصطحب الكونت وجورجيا ضيفتهما إلى رصيف النزول. وفي طريقهم إلى هناك زاروا حمَّام سباحة. سبحت الصغيرتان اللتان شعرتا بخيبة الأمل لعدم حدوث مشاكسات نحوهم يحدوهما الأمل في إثارتها.

خاطبتهما الآنسة جونز بلا مبالاة، توبيخًا لهما على تجاهلها: «كيف حالكما الآن؟»

فأجابتها ميفيس بعتاب: «نزداد بللًا مع كل دقيقة.»

«ستجدان المكان جافًّا إذا خرجتما. وداعًا.»

صاحت ميرل، التي طالما تفوَّقت على شقيقتها: «في مرة من المرات أُصيبت ميفيس بنزلة برد. كانت في خطر وكانت تصدر عنها أصوات مقززة جدًّا.»

فقالت ميفيس توافقها: «نعم، كنت مقززة وخطيرة جدًّا.»

ثم تغيَّر صوتها وهي تهتف بالمربية وتقول: «فلتبلغي سلامي إلى السيدة بلاكي والسيد جيمس رجاءً.»

فقالت الآنسة جونز للكونت مفسِّرة: «تقصد قطتنا وكلبنا.»

فقال معلقًا: «إنها في غاية التهذيب.»

«مع الحيوانات. أما أبي فتناديه «إليجا العجوز».»

«هل يُثير ذلك حَنَقه؟»

«بالطبع لا. فليس من الصواب أن تلقي بالًا لِما لا يُفترض بك سماعه.»

«مع ذلك فإنني لن أسمح بأن تهينني طفلة.»

وبينما هو يردُّ على ميفيس بنظرة غاضبة، مترقبًا وقاحتها، أحست جورجيا بجفاءٍ متبادَل. وللأسف، كانت ميفيس مثل أبيها، الذي كان لديه شغفٌ بالدعاوى القضائية التي لم يملِك فيها حجَّة قانونية. فهي لم تكن تستمتع بالمشاكسة فحسب، وإنما سخطت كذلك من تفضيل الكونت الملحوظ لشقيقتها الأكثر جاذبية.

بدا القادم قاتمًا وبائسًا بعد انطلاق القارب البخاري وسط الزَّبد الكثيف. وقفت جورجيا تلوِّح للآنسة جونز حتى لم يَعُد بوسعها رؤيةُ منديل المربية وهو يخفق في

الهواء. ثم تجمَّعت الدموع غير المألوفة في عينَيها، حين أدركت أنها ربما تكون قد نطقت بـ «الوداع الأخير» لصديقةٍ مخلصة.

كان عليها السيطرة على انفعالاتها من أجل ابنتيها، لكنها مع انقضاء المساء باتت فريسةً للترقُّب المؤلم. وقد فطِنت إلى أنه لا جدوى من سؤال أي شخص عن مصير المربية، لأنها لن تجني بذلك إلا الأكاذيب.

اتخذت جورجيا مجلسَها على مائدة العشاء ذلك المساء، بينما يُخالجها شعورٌ بالنهاية وبرتابة خانقة. فنظرَت إلى السيدة فاندربانت على الجهة المقابلة من المائدة. رغم أن السيدة نادرًا ما تتحدَّث، فقد انتابها شعور جارف بأن سطوتها المرعبة تسيطر على المنزل. لمَّا حدقت جورجيا في الوجه النحيل الصارم، وجدت من المستحيل أن تجد شبَهًا بين ذلك الطائر الجارح القابض على غنيمته، وبين تلك المرأة المتهتكة التي كانت تحتسي الشراب مع نديمها، اللذين رأتهما في المرتَين اللتَين اختلست فيهما النظر.

والآن وهي تنظر إلى قِناع وجهها الأبيض الشاحب، ارتجفت جورجيا اشمئزازًا. وتذكَّرت حفل العشاء في بروكسل حين أعماها الأمل في مستقبل باهر.

وقالت لنفسها: «ها قد تحقَّق ما خطر لي. وصار وجهها مألوفًا لي عند تناول الطعام. بل وحُكم عليَّ أن أجلس قُبالة هذا الوجه على العشاء دومًا، ما دمتُ حية.»

ثم تساءلت عما كان يحدث للمربية في تلك اللحظة، وما إذا كان البروفيسور قد مازحها بتسديد ضربة إلى صدرها أفقدتها الوعي. ورأت في مخيِّلتها عينَي الآنسة جونز تشعان وفاءً ومودة، ثم ... ثم رأت وجهها يشرع في الهبوط أكثرَ فأكثر في المياه المعتمة، ولا يطفو ثانيةً أبدًا.

حتى لو لم يُصِب الفتاةَ ضرر، فقد ذكَّرت جورجيا نفسها بأن أملَها في النجدة قد طار بعيدًا في الرياح مع قصاصة الورق. ولا يمكن للمربية أن تعود إلا بشكٍّ ملتبس لن يلبث أن يتلاشى حين يتعرَّض لضوء النهار، مثل الصور الفوتوغرافية السلبية.

صعِدت جورجيا إلى حجرتها، لما وجدت نفسها غيرَ قادرةٍ على الصبر على الجلوس في سكون. كانت أدوات الكتابة قد أُعيدت إلى المنضدة، لكنها كانت أشدَّ اضطرابًا من أن تستطيع العمل. وأثناء انتظارها مجيء الصغيرتَين إلى الفراش، سرَحت خارج المنزل ونظرت إلى رصيف النزول.

فرأت آخرَ شعاع أحمر من الشمس الغاربة قد انعكس على صفوفٍ ممتدةٍ من الأمواج الرمادية المتحركة نحو الأفق. راحت الأمواج تمضي إلى الأمام في موكبٍ متواصل،

بينما جورجيا واقفة تتفرج على المشهد الكئيب للمياه وهي تذهب هدرًا. لا بصيصَ أمل. هلاك لا مفر منه. إنها سجينة ...

في تلك الليلة هبَّت عاصفةٌ في أنحاء الجزيرة، حيث بدا البحر وكأنه سينتزع قمم الصخور، واستحال النوم مع هدير الأمواج الصاخب. وفي الصباح كانت السماء لا تزال تُمطر بغزارة، وإن كانَت الرياح قد هدأت. أطلَّت جورجيا من الجدار الزجاجي في الحجرة، فرأت الأمواج بلونها الأبيض المشوب بلونٍ رمادي وهي تعلو وتهبط، محمَّلة بطحالب طافية. ولما لم تستطِع الصغيرتان زيارةَ حمام السباحة، مكثتا في شرفة حجرتهما وراحتا تناقشان المزايا التي تنافست بها البيوت المعلن عنها في الصحف.

وإذا بجورجيا يخطر لها أنه رغم أنهما ظلَّتا على التزامهما بلعبة اختيار المنازل، فقد فقدتا اهتمامهما بحفلات الزفاف.

فنادتهما قائلة: «مَن آخرُ عرائس المجتمع؟»

فتمتمت ميفيس قائلة: «لا نعلم ولم نَعُد نأبه. فحفلات الزفاف ممتعة لوصيفات العروس، لكنها مملة للفتيات المنعزلات عن المجتمع.»

التفسير جعل جورجيا تدرك أن الفتاتَين، لسببٍ ما خاصٍّ بهما، لم تعودا واثقتَين من إقامة العرس الفاخر الذي خطَّطتا له بحماسة. وكان ثمة احتمال آخر مزعج وهو أنهما لا تريدانها أن تتزوج الكونت.

في أيٍّ من الحالتَين، يكون قد قُضي تمامًا على ترقُّبهما لحفل الزفاف، وهو ما أشار على ما يبدو إلى أنها لم توفَّق توفيقًا حقيقيًّا في خداعهما.

بينما جورجيا تحدِّق متأملةً من خلال سيل الأمطار الغزيرة وهي تخترق البحر، تحدَّثت ميفيس بنبرةٍ عَفْوية.

«منزل بجدار مشترك. ليس بالمنزل الراقي ... لقد وجدت المناسب لي تمامًا في جريدة «صانداي تايمز»، بتاريخ الرابع من يوليو. ماذا فعلتِ يا أمي بتلك الصفحة بعد أن قصصتِ منها الكلمات؟»

شعرت جورجيا بالدماء تتجمَّد في عروقها إذ استمعت إليها. فبما أنها كانت قد تخلَّصت من الصفحة الممزَّقة، فلا يمكن أن تعلم الصغيران بما فعلته ليلًا إلا إذا كانتا شاهدتاها من خلال شقٍّ في بابهما، وهي تنسِّق الحروف وتلصقها.

كانت كلتاهما فضولية مثل القردة؛ ومن ثَم فإنهما إذا كانتا تجسَّستا عليها لذلك الحد، فإنهما كانتا ستمضيان في تحرياتهما إلى حدٍّ أبعدَ من ذلك. فقد بدا شبه مؤكَّدٍ أنهما

قد رأتاها وهي تثبت الورقة في المسمار خارج نافذتها، وفي تلك الحالة كانتا ستنتهزان أولَ فرصة لقراءتها حين تخرج من الحجرة.

غامت ذاكرتها حين حاولت تذكُّر النص الحرفي لرسالتها. كانت تعلم أن بها عبارة «أخبري تورش» وتمنَّت أن تبدوَ لهما مشفَّرة مثل البرقيات. وإذ فجأةً تذكَّرت كلمة «خطر» المشئومة.

نظرت جورجيا إلى ابنتَيها، لكن إنما لتأخذها الحيرةُ من البراءة المحضة في عيونهما. إنهما تعلمان شيئًا، لكنها لم تجرؤ على تكدير غفلتهما الظاهرية لتحذرهما؛ مخافةَ أن توقظ بذلك خوفهما.

فإنهما الآن مستمتعتان بغموض الاحتفاظ بسرٍّ بمأمن من معرفة الكبار. ومما أثبت ذلك بدرجة كبيرة أن ميفيس لم تكرِّر سؤالها بعد أن أدركت أنه خطأ استراتيجي.

بدا لجورجيا أن سلامتهما تكمُن في اليقين من عدم إفشاء الأسرار التي تطَّلعان عليها، حتى لها. لكن يظل الخطر الحقيقي قائمًا وهو أنهما قد تبوحان بمعلوماتهما الخطيرة في لحظة عفوية.

وبينما تحدق جورجيا بعينين ملؤهما الالتياع في الزجاج الملطَّخ، لاحظت بشرود أن ميفيس كانت تسعُل. وبمجرد أن لاحظت ميفيس أن أمها سمِعت سُعالها كرَّرته مصطنعة إياه.

فقالت جورجيا بفتور: «أرجو ألَّا تكوني أُصبتِ ببرد. لقد تغيَّر الجو، ومن الأفضل أن أبحث عن ملابسَ صوفية.»

بدافع أن تشغَل نفسها بقَدْر ما هو بدافع قلق الأم، أخرجت جورجيا حقيبةَ سفر غير مفرَّغة من الخزانة. كانت الحقيبة التي أخذتها في عطلة بروكسل وقد شقَّ عليها مجرد رؤية البطاقات الملصقة بها. من الجلي أنها كانت قد أعيد حَزْمها على عُجالة من أجل رحلتها الثانية؛ إذ كان لا يزال بها ياقة صغيرة من الدانتيلا وبطاقة بريدية مصورة لم تكن قد أخرجتها من الجيب الجانبي.

وحين نظرت إلى الصورة تذكَّرت ظروف ابتياعها. كان تورش قد اشتراها لها، بعد رؤيتهما للوحة الأصلية في كنيسة في بروج. كانت تُسمَّى «سجود الرعاة»، وكان قد أخبرها بطُرفة عن الفنان الذي رسمها، بيير بوربو.

لكنها كانت آنذاك في حالةٍ بالغة من البؤس حتى إنها لم تتأثر بها كثيرًا. فلم يكن بإمكانها ساعتئذٍ أن تتخيَّل حياتها بعيدًا عن الكونت، أما الآن فهي تبذل قصارى جهدها

للفِرار منه. كانت لديها رسالة يائسة — استغاثة جزِعة — وكانت تجتهد لتحرِّر نفسها من قبضة رقابة الكونت، لكن كل الطرق مسدودة دونها.

وبينما هي تتأمل القدَر بما يشوبه من مظاهرِ الاضطراب والعبث، طرأت فكرةٌ على ذهنها ... حين تتعطل إحدى الحواس، تنشط أخرى. فحين تتوقَّف العينان عن الرؤية، تنشط حاسَّتا اللمس والسمع.

وقد يكون ما زال هناك طريقة لتتواصل بها مع أصدقائها، فقط إذا استطاع شخص واحد أن يفهم.

الفصل الثالث والعشرون

دخول السيدة بيتس

مكثت جورجيا في حجرتها ما تبقَّى من اليوم، تعمل في الدفعة الجديدة من روايتها. فأخذت تخطُّ الكلمات بسرعةٍ محمومة، لعلمها أن الآنسة جونز ستفك شفرةَ حتى أكثر الخطوط استعصاءً على القراءة ... هذا بالطبع على فرضِ أن الآنسة جونز ما تزال حية ... لكن لا بد من إتمام الرواية في جميع الأحوال؛ نظرًا لأنها قد باعَت حقوقَ النشر الأولى للسلسلة في السوق الأمريكية والبريطانية، ولأنها لم تخرِق عَقدًا من قبل.

كانت الأمطار لا تزال تنهمر بغزارة، وهبَّت الرياح مرة أخرى تسوق نحو نافذتها زخَّات ثقيلة من الأمطار التي حجبت عنها الرؤية، حتى إنها لم تستطِع رؤيةَ البحر إلا كلون رمادي مضطرب. كانت كأنها بداخل كرة بلورية خيالية، تحيط بها جدران من الزجاج تتدفَّق عليها المياه، وهناك توصَّلت إلى حيلة ضعيفة وواهية ربما تصل بهن إلى بر الأمان.

تحمَّست من شعورها بهذا البصيص الخافت من الأمل، بعد أن وطَّنت نفسها على قبول مصيرها بتَجَلُّد واهن، مع أن الثقة في جدوى هذا الأمل تكاد تكون منعدمة. إلا أن وجنتيها تخضَّبتا بحُمرة التوتر وهي تكتب الورقة على عُجالة وتعيد قراءتها. وفي لحظة من اللحظات أوشكت فعلًا على شطب جزء منها لكنها عدَلت عن رأيها.

قالت لنفسها: «لا، لا بد أن تكون صريحة. إن لم تكن الإشارة واضحة فلن تكون ذات جدوى ... عِلاوة على ذلك، ما الجدوى من أي شيء الآن؟»

ثم التقطت البطاقةَ البريدية المصوَّرة، وأمعنت النظر فيها وهي تتساءل إن كانت سترفِقها أم لا. ثمَّة شخص واحد باستطاعته فهْم رسالتها، وهو هارفي تورش، لكنها شكَّت أن يكون هو نفسه بمقدوره فَهْم مغزاها من دون إشارةٍ تساعده. وحدَها هذه النسخة من «سجود الرعاة» بإمكانها إنعاش ذاكرته.

لهذا السبب كانت البطاقة بالغةَ الأهمية، حتى إنها هابَت المجازفةَ بإرسالها قبل اللحظة الحاسمة. كان من الأسلم أن تتحمَّل مدةً أطول من العذاب والترقُّب، بينما تمهِّد الطريق لها بدفعات أخرى من الرواية. وهي ترجو أن يكون فضوله قد ثار بدرجةٍ كافية بحلول نهاية تلك المدة حتى يفهم المغزى من البطاقة البريدية المصورة.

صحيح أن تورش لا يقرأ أعمال عملائه مطلقًا حتى تصير مطبوعةً إلا إذا كان الوضع استثنائيًّا. إلا أن الآنسة جونز حين طبعتها لم تستطِع أن تُغفِل التشابه بين قصَّتها وبين أحداث الرواية، وإن لم تستطِع أن تفطن إلى مغزاها.

كانت آمال جورجيا في الحياة والحرية متوقِّفة على سلامة المربية. وقد تذكَّرت العاصفة التي هبَّت في الليلة السابقة؛ إذ نظرت إلى الزجاج المبلل بقطرات المطر. فإن كانت أي حادثةٍ قد وقعت — سواء بتدبير من شخص أو قضاء وقدَر — فستكون ابنتاها بذلك قد هلكتا معها.

انتظرت جورجيا رجوعَ البروفيسور وهي فريسة لجزعٍ بالغ. وكلما سمِعت أصواتًا مرتفعة أو وقْع نِعال الصغيرتَين وهما ترمحان في أنحاء المنزل، تساءلت عما إذا كان القادمون يحملون لها أنباءَ مأساة. ولما كانت حينئذٍ غير قادرة على البقاء دون عمل يشغلها، راحت جورجيا تجمع الأوراق لتقديمها إلى الكونت ليراجعها.

وعند مرورها بحجرة المكتب، التقت بالبروفيسور. كان قد عاد أبكرَ مما توقَّعت ولا يزال يرتدي ملابسَ من المشمَّع مبتلة. ومن دون أن يخلع غطاء رأسه، رنا نحوها بعينين سوداوين لامعتين وأشار بإبهامه نحو حجرة التدخين.

لم يكن جزَع جورجيا بالغًا فحسب، بل بلغ بها الهلع لوجود البروفيسور أقصاه. فقد بدا كأنه منفِّذ حكم الإعدام. ومع ذلك فقد أدركت أنها لو كانت التقت به في رداء قسيس لصدَّقت صلاته دون شكٍّ في تقواه، بناءً على ما يبدو من هدوئه الحميد.

لاحظ الكونت المظروفَ الكبير الذي كانت تحمله بمجرد أن دخلت حجرته، ومدَّ يده ليأخذه.

سألها: «جزء آخر؟ أحسنتِ. إنكِ لا تضيِّعين وقتًا. إن كنتِ لا تمانعين الانتظار، فإنني سألقي عليه لمحة سريعة، في حالِ كان به شيء بحاجة للشطب.»

ملأتها كلماته بالراحة؛ فقد أدركت أنه كان سيوافيها بأي خبر عن وقوع حادثة رسمية للآنسة جونز.

فسألته: «في أي ساعة بلغا سالتسوبدن؟»

«بعد الساعة الواحدة. فقد كانت رحلة عسيرة. اصطحب البروفيسور السيدة صديقتك، للتأكد من دخولها إلى الفندق. وبدلًا من إعطائه إكرامية، صافحته. أخشى أن هذه المجاملة لم تَرُق له ... هل تريدين سيجارة؟»

غاصت جورجيا في المقعد المكسوِّ بجلد وردي اللون، حابسة أنفاسها وهو يقلِّب في صفحات مخطوطها. بدا لها أن حيلتها لا بد أن تنكشف نظرًا لمخالفتها لمبادئها الخاصة. لكنه كان دليلًا على مدى قلة معرفته بشخصيتها الحقيقية حين رفع عينيه عن المخطوط بابتسامة جسورة.

علَّق الكونت قائلًا: «إن السيدة ييتس شخصية جذابة. حتى إنني أود أن ألقاها في الحياة الواقعية. إنها ممن يروق للمرء التعرُّف إليهم.»

أخبرتها كلماته بما تمنَّت معرفته، لكن وجهها غدا قرمزيًّا وهي تدافع عن نفسها.

«لقد نبَّهتك إلى أن قدرتي على الإبداع قد نضبت. فلا يمكنني خلْق شخصيات هامشية حسب الطلب.»

«وما الداعي لذلك وبإمكانكِ استخدام هذه السيدة اللطيفة البسيطة، ببغضها للدعاية وتاريخها الرومانسي؟ سوف يعشقها قراؤك.»

«لا يهمني رأي الناس فيها ما دامت ستزيد من مبيعات الرواية ... هل لديك بطاقة بريدية؟ لا بد أن أخبر هارفي تورش بأنني سأرسل جزءًا آخرَ إلى الآنسة جونز.»

«سوف نكتب له. لستِ بحاجة للكتابة إلى أمكِ إلا إذا كنتِ تريدين ذلك. سوف أرسل إليها صورة أخرى لتعلم كم نحن سعداء. هل تودين رؤيةَ الصورة؟»

بالكاد لمحت الصورةَ لكن أمكنها أن تجرحها رغم ذلك؛ لأن الكاميرا كانت قد التقطت لحظة ذهبية.

سألت جورجيا الكونت: «متى سترسلها؟»

«غدًا. سوف أذهب لإرسالها في الصباح.»

شاعرةً بأنها قد أرست سابقةَ وجوب أن يصاحب كل دفعة من نصوص الطباعة تُرسل إلى الآنسة جونز، بطاقة بريدية تحمل توصية لتورش، قنعت جورجيا بانتظارِ ما سيطرأ من تطوُّرات. وممَّا سرَّها أن الأحداث تطوَّرت سريعًا؛ فقد عاد الكونت من سالتسوبدن بخطابٍ من الآنسة جونز وخبر بأنها قد عادت إلى إنجلترا.

في الواقع لقد توقَّفت المربية في رحلتها لترى ستوكهولم، حتى إنها لمَّا عادت إلى ديارها، في وقتٍ متأخر من ليلة السبت، كان مظروف جورجيا الضخم ينتظرها في بيت

أبيها القس. لكنها لم تجِد الوقت لتنظر فيه، سواء آنذاك أو خلال الجزء الأول من يوم الأحد، حيث إنها عزفت الموسيقى في الكنيسة وحضرت بعد ذلك درسًا في مدرسة يوم الأحد. وحين عادت كان الهاتف يرن.

كانت السيدة بلفري التي حدَّثتها قائلة: «لقد جاء السيد تورش وشقيقه مرة أخرى لرؤيتي. لكنني أعتقد أنكِ مَن يريدان رؤيتها. فإنهما يريدان سماعَ أخبار «الكونتيسة» من المصدر.»

قادت الآنسة جونز دراجتَها متجهةً إلى الكوخ تخامرها سعادة أنها باتت في دائرة الاهتمام في منطقتها. وأثناء تناولهم الشاي، حكَت عن زيارتها التي بدت حين استعادتها في ذاكرتها أكثرَ جاذبيةً الآن حتى مما كانت عليه وقت انتهائها.

وقد حكت عن الجزيرة فأجزلت المدح لرغبتها في إدخال البهجة على السيدة بلفري.

«منزل خلاب، مبني على الطراز الأوروبي الحديث، أبرزُ ما فيه الزجاج. لا بد أن الكونت فاحشُ الثراء. فالسيدة يو — لا أستطيع أن أدعوها «الكونتيسة» — لديها حجرةٌ للكتابة، فوق البحر مباشرةً.»

فسألها أوزبرت: «كيف حال جورجيا؟»

«روعة. في غاية السعادة. إنه زواج مثالي عن حب. لكم أن تتخيلوا أن الكونت جاء هو نفسه قاطعًا كل هذه المسافة لإحضاري. إنها تقريبًا مثل المسافة بين جيرنزي ووايموث.»

فسألتها السيدة بلفري: «وحفيدتاي؟»

«ليستا في أحسن حال. فقد خرجتا عن السيطرة وتكادان لا تبرحان الماء. لكن ميرل صارت جميلة جدًّا. اكتسبت لونًا بديعًا، مثل غروب الشمس.»

حاول تورش أن يداريَ تثاؤبه. ولم يتهلل إلا حين أخبرته الآنسة جونز بطرد المخطوط الذي كان ينتظرها في بيت أبيها.

فسألها بلهفة: «هل من الخطأ الطباعة يوم الأحد؟ فالوقت ذو أهمية.»

فعلَّقت الآنسة جونز: «العمل من أجل السيدة يو لا يمكن أبدًا أن يكون خطأً. كما أنه ليس سوى جزء قصير أُنجز على عُجالة. والمرة القادمة سترسل جزءًا كبيرًا. إذا كان بإمكانك الانتظار ساعة، فسوف أنجزه لك سريعًا.»

إما أن الآنسة جونز ذات مهارة استثنائية في الطباعة على الآلة الكاتبة أو أن الجزء كان صغيرًا للغاية؛ إذ عادت إلى الكوخ خلال ستين دقيقة. وكان وجهها محمرًّا من انفعالٍ أقوى من الاستعجال، ويداها ترتعشان وهي تُخرِج الصفحات المطبوعة من غلافها.

قالت الآنسة جونز: «استمِعوا إلى هذا الوصف لشخصية هامشية. اسمها جيرترود ييتس — جي واي — أرملة وأم لطفلتين، ماري ومارجريت ... إم وإم ... تزوجت وهي طالبة في المدرسة، لكنها أضحت أرملةً في ظروف تراجيدية. ولكي تعيل أسرتها، تصير روائية ناجحة ... مَن تكون إذن؟»

أجابها تورش: «جورجيا يو. لكن ما المغزى من ذلك؟»

فقالت السيدة بلفري بتحدٍّ: «مغزاه أنها عادت إلى صوابها أخيرًا.»

فدوَّى صوتُ الآنسة جونز قائلة: «لكنه أسلوب رخيص وصريح للغاية. السيدة جيرترود ييتس هذه ضئيلة ورقيقة وتبدو صغيرة جدًّا على أن تكون أمًّا لطفلتيها. إنها خجولة خجلًا غير عادي وتكره أي نوع من الدعاية كرهًا بالغًا. وهي ليس من طِباعها أن تعلن عن صفاتها. فما معنى هذا؟»

فقال أوزبرت بمرارة: «لقد شرحت السيدة بلفري التوة معناه. إن جورجيا ترى الكونتيسة أرفع شأنًا من السيدة يو.»

«حتى إن كانت كذلك، فإنها ما كانت ستقحم نفسَها في الرواية بهذه الركاكة. حتى إن كانت قد تخلَّصت من عقدة الدونية، فإنها كانت ستصور نفسها بأسلوبٍ أكثرَ إبداعًا. لا بد أن السيد تورش سيقر بذلك.»

فعلَّق الوكيل قائلًا: «ربما هذا التغيير ناتج عن تأثير الكونت. فالزواج يبدِّل حال الناس. فقد انحدر ذوقي لدرجةٍ شديدة حتى إنني بتُّ أتقبَّل ذوق زوجتي في السيجار.»

فأردف أوزبرت قائلًا: «إنه الكونت بالإضافة إلى ازدهار أحوالها. إن أي امرأة لا بد أن تتغير تغييرًا جذريًّا إذا عاشت في قصرٍ من دون أي جدران، وصار لديها دورة المياه التي أوحت للآنسة جونز أن تحكي لنا عن العمل الفذ الذي أنجزه مهندس المرافق الصحية.»

علا صوت المربية وهي تقول: «لكنني متأكدة أن ثمَّة شيئًا خطأً. وإنني لم أخبركم بكل شيء. هناك أشياء تقبَّلتها رغم عدم اقتناعي بها. لكنني لم أعُد قادرة على التظاهر. فالموقف خطير، وهناك خطأ ما.»

عندئذٍ انقبض وجه السيدة بلفري الصغير المجعَّد استياءً.

وسألتها: «ما شكواكِ إذن؟»

كان على الآنسة جونز أن تستجمع كلَّ ما لديها من عزمٍ قبل أن تتحدَّث. فقد ساورها شعور بائس بأنها أقلية تدعو إلى قضيةٍ مرفوضة. ولأنها سليمة العقل وصافية الذهن،

فقد هاجت كبرياؤها لمَّا أدركت أن تعلُّقها بامرأة أخرى من الممكن أن يعتبره آخرون دليلًا على كبتٍ هستيري.

لكنها قالت لنفسها: «كنت سأفعل ذلك لأي شخص. لو لزمتُ الصمت سيكون مثل التظاهر بعدم رؤية شخص وهو يغرَق بالبطيء في رمال متحركة. وأنا الوحيدة التي رأته.»

ثم قالت بنبرة مجرَّدة من أي انفعال: «لا بد أن تقرُّوا بما سأقوله أولًا. وهو أن السيدة يو إذا كانت وقعت فعلًا ضحيةً لمؤامرة، فإن كل شيء كان سيبدو مقبولًا في الظاهر، تمامًا كما كان أثناء زيارتي.»

فقالت السيدة بلفري تذكِّرها: «عدا أن واحدة من أصدقائها كانت في المنزل فعليًّا. فمن المؤكد أنها كانت ستستطيع تدبُّر طريقة لإخبارِك.»

«هذا ما أثار قلقي. إنها لم تستطِع. لم تستطِع أن تهمس لي لأنني كنت مصابةً بصممٍ بالغ ذلك اليوم، ولم تستطِع أن تكتب إليَّ رسالةً لأنه لم يكن هناك أدوات للكتابة. فقد طلبت منها مرتَين ورقة وقلمًا لأكتب إلى الكونت اسمَ أغنية، لكن لم يكن هناك أيٌّ منهما لا في حجرة الاستقبال ولا في الحجرة التي تعمل فيها.»

لاحظت الآنسة جونز إذ تتحدَّث أنه بينما كان الرجلان يستمعان باهتمامٍ محايد، ازدادت السيدة بلفري عدوانيةً.

فقد قالت السيدة بلفري: «إذا طلبتِ مني ورقةً الآن فسأحضِر إليكِ الكراريس التي أستخدمها في المطبخ. أرجو ألَّا يكون هذا دليلًا على خططي الإجرامية. عِلاوة على ذلك، فإن ابنتي لو كانت تريد توصيل رسالةٍ لفعلت ذلك. فطالما اندهشت أنا حتى بحيلتها. فإن بمقدورها إخراج شخصياتها من أي مأزق.»

«لكن لو كانت هي نفسها شخصيةً لاحتاجت إلى أحدٍ من الخارج لينقذَها ... وثمة شيء آخر. طوال الوقت وأنا هناك لم نُترك وحدنا مطلقًا، عدا خمس دقائق حين اصطحبتني السيدة يو إلى حجرتها بالطابق العلوي. بل إن السيدة فاندربانت كانَت هي مَن أخذَتْني إلى دورة المياه؛ وهي سيدةٌ ذات مقامٍ رفيعٍ جدًّا، من النوع الذي دائمًا ما يستدعي الخدَم بالجرس.»

«لكنكِ تقرِّين بأنكِ انفردتِ بها. ومن الممكن قولُ الكثير خلال خمس دقائق.»

«إن لم يكن هناك مَن يسترقُ السمع ... لكن الحجرة كان لها أربعة أبواب، بما في ذلك باب الخزانة. وكانت مغلقةً كلها. وكان على السيدة يو الصياح لأسمعها. حتى إنها ذكرت أن العطلة لم تكن مثالية تمامًا؛ ذلك لأنني كنت مصابةً بصممٍ شديد.»

ارتعش صوت المربية بنبرة اقتناعٍ وهي تضيف: «لقد فكَّرت مرارًا في كلامها. وأدركت أنه ليس من طبعها أن تعلِّق على إصابتي بالصمم باعتبارها شيئًا مزعجًا. فإنها ستخشى أن تجرح مشاعري. إنه تصرُّف بعيدٌ كلَّ البُعد عنها، تمامًا مثلما هو تصرُّف بعيدٌ كلَّ البُعد عنها أن تضع نفسها في أحد كتبها. ألا يمكنكم أن تروا أن الوضع مغلوطٌ تمامًا؟»

بينما ظل الأخوان صامتَين، هبَّت السيدة بلفري من مقعدها وهُرعت نحو حجرة المكتب. كانت مكدَّسةً بأكوامٍ مرتفعةٍ من الأوراق والخطابات القديمة، انتقَت السيدة بلفري من بينها واحدًا عليه طابع بريد سويدي.

وقالت بنبرة انتصار: «لم يكتب جوستاف غيرَ سطور قليلة في رسالته الأخيرة. لكنه أرسل هذه الصورة له هو وجورجيا. لستِ بحاجة إلى نظارة لتري كم هي في سعادة غامرة ... وإذا نظرتِ إلى التاريخ، فستلاحظين أنها التُقطت بعد رجوعكِ إلى إنجلترا.»

احمرَّ وجه الآنسة جونز خجلًا حين رفعت الصورةَ التي بدت فيها جورجيا برداء حفلات رسمية من الشيفون المنقوش بالزهور. لكنها لمَّا تمعَّنت في الصورة جفَلت ثم قرَّبتها من عينيها.

وسألت أوزبرت: «أليست ترتدي سوار الحظ الخشبي الذي أعطيتَها إياه؟»

فأجابها: «بلى.»

«لكن ذلك مستحيل. لقد وقع منها في البحر قبل التقاط هذه الصورة.»

أتمَّت قصتَها ونظرت إليهم بترقُّب، غير أنها وجدتهم غير مقتنعين. وجدت نفسها في مواجهة تحاملٍ جماعي متراكم — لا التحامل الناتج عن وجاهة الالتحاق بالمدارس العامة، ولا المرتبط بالمعايير الذكورية التقليدية فحسب، وإنما كذلك إجمالي التحامل الذي تضمره كلُّ أم منذ حواء؛ إذ غُبنت في حياتها وتبغي أن تعيشها مجددًا من خلال ابنتها.

فقالت السيدة بلفري مفسِّرة: «كلُّ هذا إنما يثبت أن جوستاف وضع تاريخًا حديثًا على صورة قديمة، ليجعلها تبدو أحدث. لا أريد أن أبدوَ فظة لكنني أشعر بأنكِ شغوفة جدًّا بابنتي حتى إنكِ تَغارين عليها من أي علاقة أكثر حميمية.»

قال أوزبرت: «وأنا أوافقك. لا يجب أن نختلق قصةً لمجرد أن نثبت لأنفسنا أن جورجيا لا يمكن أن تكون سعيدة وهي بعيدة عنَّا.»

عرف تورش وهو ينظر إلى أخيه أنه كان يحاول إقناعَ نفسه، ليكبت اختلاج قلبه. فقد كان تعيسًا وساخطًا، يود لو يتسلَّق قمةَ إيفرست. وبدوره خاطبَ تورش المربية بتهكم مشوب بترفُّق.

«هل فكرتِ يومًا أن تكتبي قصصًا أنتِ الأخرى؟»

فأجابته: «كثيرًا. لكنني لم أستطِع ابتداع أي شيء، حتى ينقذني.»

الفصل الرابع والعشرون

رحلة بحرية

مرَّ يومٌ إثرَ يوم من دون أي تدخُّل من العالَم الواقع خارج الجزيرة. كدَّت جورجيا في العمل في روايتها، تسابق الزمن حتى ترسل الدفعة الطويلة الموعودة، التي احتوت كذلك على إشارة موجزة لكن ذات مغزًى لكاتبة روايات الإثارة البوليسية، السيدة جيرترود ييتس.

وقد أفاد تورش بتسلُّمها برسالة قصيرة، ذكر فيها أخبارًا عامة، لكن كان واضحًا من خطاب الآنسة جونز أنها وقفت على الأصل.

فقد كاتبتها قائلة: «رغم أنها مجرد شخصية هامشية، فإن السيدة ييتس لاذعة مثل المسطردة. إنها تجعل عينيَّ تدمعان، لكنكِ دائمًا أدرى بالصواب في رواياتكِ.»

جعلت تلك الملحوظة جورجيا تتساءل حزينةً عما إذا كانت المربية قد انزعجت من تخليها عن تحفُّظها، وأنها — بدافع الولاء — ستُحجِم عن لفت نظر وكيلها إلى ذلك. ومع غياب أي محاولة لنجدتها، اضطُرت جورجيا إلى استنتاج أن إشاراتها قد فُسِّرت على أنها سقطة في أسلوبها الأدبي؛ ومن ثَم فقد خشيت من إهدار فرصتها الأخيرة بأن ترسل إلى تورش البطاقةَ البريدية التي اشترياها من بروج قبل الأوان.

خوَّفتها مسئولية البت في الأمر حين تذكَّرت تجربتها في لعب البريدج. كانت خبرتها باللعبة قليلة، فكانت غالبًا ما ترتكب خطأ الاحتفاظ بالورقة الرابحة وقتًا طويلًا دون أن تلعب بها … وهي إن احتفظت بالورقة الرابحة أطولَ من اللازم، فمن الوارد أن تصبح بلا فائدة. لا بد أن تلعب بها في اللحظة الحاسمة، إلا أنها لا تملِك سوى أن تتصرف جزافًا، ما دام أصدقاؤها صامتين.

حاولت الاقتناعَ بأنهم إذا كانوا فهِموا الوضع فسيدركون أن هناك رقابة؛ ومن ثَم لن يستطيعوا التواصل معها. لكنها شعرت في قرارة نفسها أنهم سيثقون أنها بالذكاء

لتفهم حتى أدقَّ التلميحات. لا بد أن يكون ثمة شيء يعرفونه جميعًا – ويجهله الكونت – ليشعل أولَ شرارة، فيبشِّرها بأن الجهود جارية لنجدتها.

وبينما هي تنتظر كانت تَجِدُ خلاصها في العمل. كانت قد ظنَّت في بداية محنتها أنها لن تستطيع تحمُّل وطأة العيش تحت تهديد حكم الإعدام، لكنها مع توالي الصدمات الواحدة تلو الأخرى أدركت قدرتها على التحمُّل ولم تَعُد تخشى مطلقًا من انهيارها. لكن ها هي ذي مرةً أخرى بدأ ينتابها الخوف من احتمال أن تنهار قوَّتها. فقد تهافتت شجاعتها رويدًا رويدًا تحت الضغط المتراكم. ولم يَعُد بمقدورها تحسُّس الأرض تحت قدمَيها؛ إذ راحت تغوص أعمقَ يومًا بعد يوم.

أدركت جورجيا الخطر المحدِق بها مع تنامي التهديد الذي فرضته قيود الجزيرة. فقد بدأت تتقلَّص متجاوزةً مساحةَ الأمان. وكان يُخيَّل إليها أحيانًا وهي ترقد مستيقظةً أنها قد خرجت منها، وتراها على الخريطة نقطةً سوداء في مساحةٍ واسعة من اللون الأزرق.

حتى إنها قالَت لنفسها: «إنها لا تتسع ليُقام عليها بيتُ كلب، لكنها اتسعت لمنزل كامل.»

أما وقد توقَّفت الأمطار الآن، فقد بات الجو خانقًا وغائمًا، والبحر يفيض بأمواج متلاحقة ذات لون أخضر مصفر. لكنها بدلًا من التحطُّم متناثرةً على الصخور، ظلَّت الأمواج تتتابع طبقةً فوق طبقة، متراكمةً في مرتفعات عالية. في أوقاتٍ بدا المحيط فائضًا بمائه حتى إن جورجيا استسلمت لفكرة مروعة؛ حيث تخيَّلت أنه سيرتفع في الحال ويغرِق الجزيرةَ لو أن أحدًا دبَّ يديه الاثنتَين فيه.

كان ملاذها الوحيد حجرتها ذات الجدار الزجاجي؛ حيث استطاعت الهروبَ إلى روايتها وفقدان هويتها في عالَم وهمي من نسْج خيالها. وبقدْر ما تاقت إلى رُفقة ابنتيها، فقد كانتا غير معتادتين رقابةَ الكبار فشعرت أنهما، على شغفهما بها، ستنفران من أي قيد على حريتهما.

مع أنه كان عليها تركهما يفعلان ما يروق لهما، فقد انتبهت شيئًا فشيئًا لأنهما قد صارتا مرتبطتَين بعلاقاتٍ ودِّيةٍ لا مع الخدم القرويين فحسب بل مع البروفيسور أيضًا. ومع أنها لم تُرِد إثارةَ شكوكهما بمنعهما من التحدُّث معه، فقد نفرت من فكرة تواصلهما مع هذا الوحش البشري. ولا سيما ميرل، التي كانت مراوغةً ولا تهدأ مثل قطرة من الزئبق. فكان من المستحيل أن تعلم أين ذهبت أو ماذا فعلت.

وذات مساء، جاءت ميفيس إلى العشاء بجَفنَين أحمرَين ووجه يعلوه التجهُّم. وقد اتضح الباعث عليهما حين حذَّرت ميرل أمَّها ألَّا تأكل من الدجاج المشوي مطلقًا.

حيث قالت معلِّلةً بصوتٍ مرتاع: «إنها دجاجة خاصة.»

فضحِكت كلير بغلظةٍ وقالت: «إنها إحدى صديقات ميفيس. فلتأكلي منها يا ميفيس. فلحمُها طيب وطريٌّ.»

رمقتها ميفيس بنظراتٍ غاضبةٍ يعتريها حَنَق عاجز.

وقالت: «تقول الآنسة جونز إن الدول الأجنبية كلها تعامل الحيوانات بوحشية. وهذا غير مسموح به في إنجلترا. فهناك الجمعية الملَكية للرفق بالحيوان، وقد قامت بأبحاث عن خمسة وثلاثين ألف حالة السنة الماضية. الملكة فكتوريا كانت أول مَن أسَّس للرفق بالحيوان.»

فقاطعتها ميرل التي كانت قد شاهدت فيلمًا عن قصةِ حياة الملكة فيكتوريا قائلة: «حين كانت ملكة، وليس حين كانت بطلة سينمائية.»

أمعنت ميفيس في حديثها عن الموضوع بأشدِّ نبراتها صخبًا، بينما تحاول التغلُّب على رجفة شفتَيها. فنظرَت إليها ميرل ثم ازدردَت ريقَها معبِّرةً عن مواساتها إياها.

وقالت: «أمرت البروفيسور أن يقتلها برفق بالغ. فوعدني أنه سيستخدم الكلوروفورم وسيحرص على أن يكون سريعًا جدًّا.»

فقالت كلير مؤكدة: «من المؤكد أنه سيكون سريعًا. فله الكثير من التجارب في ليِّ الأعناق. فلم تكن خليلته الأخيرة أولَ مَن تركها بعنقٍ ملوي للأبد.»

عندئذٍ تساءلت ميرل: «ما معنى خليلة؟»

فقال الكونت على الفور: «إنها دميةٌ من القماش. كفِّي يا كلير.»

مع أن جورجيا تمنَّت أن تستغرق الفتاة في هوايتها المعتادة بمحاولة ترويعهن، فقد شعرت بالامتنان حين أقدمت سيدة الحِيَل — السيدة فاندربانت — على تغيير الموضوع بإحدى ملحوظاتها المعهودة عن موسم أنشطة المجتمع الراقي في لندن. ولحسن الحظ فقد بدا لها أن الصغيرتَين لم تفهما الحوار؛ إذ تظاهرتا بالفهم والثقة بدلًا من التظاهر بالبراءة التي تخفيان بها معرفتهما بالأمور.

قضت جورجيا ليلةً ليلاء، مهمومة بشأن مستقبلهن، وتحاول سدَّ أذنَيها دون الصوت الممسوخ المدوي الذي حاول أن يفصح عن انتصاره كلما ارتطمَت الأمواج بالصخور. لكن على الرغم من بؤس تلك الليلة، فقد تبيَّن أنها كانت مقدِّمةً ليوم مفعمٍ بالأمل. حيث

شعرت جورجيا مع حلول العصر بتكاسُلٍ ورطوبةٍ شديدَين، حتى إنها سمحَت لميرل باستدراجها للذَّهاب إلى السباحة.

وأثناء نزولهما الطريق المؤدِّي إلى حمَّام السباحة، مرَّتا بميفيس والخادمة السويدية، جريتا، اللتَين كانتا جالستَين تحت شجرة صنوبر تطالعان مجلةً أمريكية مصوَّرة. كانت المجلة مفتوحةً على إعلان ملونٍ لمطبخ نموذجي، وطاهٍ حسن المظهر وهو يُعِدُّ طبقًا مثيرًا للشهية من أحد أصناف الأرز المنتفخ.

كانت ميفيس تُشير نحو التفاصيل المختلفة في الصورة ذاكرةً اسمَ كلٍّ منها بالإنجليزية بنبرة مثقفةٍ قَدْر استطاعتها.

«هاند (وتعني بالعربية يدًا). هيد (وتعني رأسًا). هام (لحمًا). هابل (تقصد تفاحة لكنها نطقتها بالإنجليزية بزيادة حرف إتش). هيج (تقصد بيضةً لكنها نطقتها بالإنجليزية بزيادة حرف إتش).»

وحين بدأت جريتا تكرِّر الكلمات طائعةً، شعرت جورجيا أنها لا بد أن تعترض.

فقالت ميفيس معلِّلة: «لكنني أعلِّمها الإنجليزية وهي تبدو أفخمَ مع إضافة حرف إتش.»

جعلت ميرل تقلِّد جريتا، بينما هما تسعيان هابطتَين في المسار المحفوف بالجذور على نحوٍ خطِر.

حيث قالت وهي تكبِت ضحكها: «هيج.»

فقالت جورجيا: «أتوقَّع أن تتحدَّث جريتا الإنجليزية في النهاية أفضلَ من بعض الإنجليز. إنه من السخافة أن تضحكي عليها وأنتِ لا تعلمين أيَّ كلمة باللغة بالسويدية.»

«بل أعلم بالطبع. الكثير.»

«بإمكانكِ إذن أن تخبري جريتا أن الدرس انتهى؛ إذ نريد من ميفيس أن تسبح. أودُّ سماع عينةٍ من اللغة السويدية التي تتحدثينها.»

ضحِكت جورجيا وهي تخاطبها، لكن تشكُّكها تحوَّل إلى ذهول حين نظرت ميرل وراءها، وخاطبَت جريتا بلا مبالاةٍ متحدِّثةً بطلاقةٍ بلغةٍ غير مفهومة. إلا أنه بدا واضحًا أن المرأة السويدية قد فهمتها؛ إذ ابتسمت ابتسامةَ ارتياحٍ وسارت عائدةً إلى المنزل، حاملة المجلة.

رغم أن ميرل نظرَت إليها بترقُّب — أشبه بجروٍ يستجدي قطعةً من البسكويت بعد أن أدَّى حيلة — فقد كانت جورجيا في حالةٍ شديدةٍ من الذهول منعَتْها من أن تُعبِّر

عن استحسانها. وتذكَّرت كيف أعربت الآنسة جونز ذات مرة عن أن ميرل تتمتَّع بأذنٍ موسيقيةٍ رائعة؛ حيث أرادت أن تعلِّمها العزف على الكمان، وأنها استهزأت بالفكرة على أساس افتقارها هي إلى الحس الموسيقي.

وقالَت تُذكِّر نفسها: «كنت دائمًا أقيدهما بالقيود الخاصة بي، وأنسى أن لهما أبًا ورِثتا منه مواهبَ أخرى.»

كانَت مبتهِجةً للغاية حتى إنها لم تشعر بندمٍ أو نقص. فقد حدَثت معجزة دون مقدمات وبدأت تتبيَّن ملامحَ باب مفتوح. كانت تظن أن السُّبل قد انقطعت بها تمامًا عن البشر، لوجود عائق اللغة، مع أن الخدَم السويديين بدَوا صادقين وطيبين.

فقالت: «رائع يا عزيزتي. إنني فخورة جدًّا بكِ ... هل يعلم أحدٌ أن باستطاعتكِ تحدُّث السويدية وفَهْمها؟ هل يعلم جوستاف ذلك؟»

هزَّت ميرل رأسها وهي تبتسم ابتسامتها الشديدة الشقاوة، وتنظر إليها نظرةً ذات معنًى. كان من سِماتها أن تجمع المعلومات سرًّا؛ حيث كانت تتمتَّع بالذكاء والقدرة على التقليد مثل القردة، أما ميفيس فكانَت على عكسها مُحبةً للاستعراض بامتياز. كبتَت جورجيا حماستها المتأججة وخاطبت الصغيرتَين بنبرة عادية.

«أين الآخرون؟»

فأجابتها ميفيس: «كلهم بالداخل.»

فقالت جورجيا: «لنا إذن أن نذهب في نزهةٍ بحريةٍ يا ميرل، فلتذهبي وتسألي هنري» استخدمت الصورةَ الإنجليزية لاسم الخادم «أن ينضم إلينا في الحال عند المرفأ. وليس عليه أن يزعج أحدًا بأن يطلب منه الإذن.»

هُرعت جورجيا إلى المنزل دون أن تحدِث صوتًا، وهي تخطو بحذائها المطاطي حيث صعِدت إلى مخدعها، فلم تبقَ إلا بما سمح لها بالتقاط معاطف دافئة والحقيبة التي حملت نقودها. وعندئذٍ شعرت بامتنان على الشروط الخاصة لحبسها؛ فقد حضَّت على وجوب معاملتها معاملةَ ضيفةٍ مكرَّمة، حتى يمكن استغلال موهبتها.

كانت جورجيا قد وقَّعت عدةَ شيكات بمبالغَ كبيرة، حتى يصرفها الكونت منذ أن حوَّلت حسابها البنكي على ستوكهولم، إلا أنه لم يُقدِم على الاستيلاء على حُزَم الأوراق النقدية التي كانت قد أحضرتها من أجل رحلتها، والتي وفَّرها لها لأنه كان يدفع كلَّ نفقاتها. لكنها كانت محض لفتة؛ إذ كان يعلم أنه ليس بمقدورها إنفاقها على الجزيرة، وأنها ستئول إليه في النهاية.

ولم تكن ذات نفع لها في ظروفِ حبسها على الجزيرة. فتركتها ملقاةً في حجرتها، وكان الخدم السويد في غاية الأمانة فلم يسرقوها. لكن ها قد تبيَّن أنها مئونة حفظتها لها العناية الإلهية.

تسلَّلت جورجيا السُّلم نزولًا بحذر، وهي تضم النقودَ إليها، بينما قلبها يخفِق بشدة وهي تحبس أنفاسها توجسًا. كانت كلُّ دقيقة حاسمة في هذا السعي اليائس للحرية، إلا أنها لم تجرؤ على الجري؛ إذ كان لا بد ألا تُحدِث ضجةً في انسحابها. وبينما هي تقطع حديقةَ الزهور الصغيرة، شعرت كأن كل نافذة بمثابة عينٍ تشاهد محاولةَ هروبها شامتةً من عدم جدواها؛ وظلَّت تنظر وراءها وهي تركض في الغابة، لترى ما إذا كان أحدٌ في إثرها.

كان الثلاثة الآخرون ينتظرونها على رصيف النزول الصغير. قبضت ميرل على ذراع الرجل السويدي الضخم وراحَت تبتسم له، في محاولةٍ لاكتساب ودِّه. كانت قسماته حادة غليظة وشعره أشقر، ذا درجةٍ شاحبة جدًّا حتى إنه لَيبدو أبيض. وقد اكتسى وجهه بتعبير بالبلادة ولم يبدُ عليه لا الذكاء ولا سرعة الاستجابة.

قالت جورجيا سريعًا: «هيا يا ميرل. بأقصى سرعة. اسأليه إن كان باستطاعته قيادة القارب البخاري. فإن كان يستطيع فقولي له إننا نريد الذهابَ إلى سالتسوبدن. وسأكافئه بهذه النقود.»

ونزعت الغطاء عن حَفنة من الأوراق النقدية، وحملتها أمام عينَيه لترشوَه من دون أن تنبِس بكلمة، بينما راحت ميرل تترجم له. إما أن مفرداتها المحدودة لم تكن على مستوى ضغط الموقف، أو أنه كان بطيء الفهم لدرجةٍ بالغة؛ إذ لم يتكرَّر التوفيق الذي حقَّقته سابقًا. وانتظرت جورجيا بجزعٍ محموم بينما ميرل تشرح له. توقَّعت جورجيا في أي لحظة أن تسمع احتكاك الحصى على المسار الصخري، أو صوتًا يناديهم من غياهب الغابة.

وبالكاد أمكنها أن تصدِّق حُسنَ حظِّهن حين أومأ برأسه أخيرًا ليبرهن على أنه فهِم.

فقالت له مجددًا لتتأكد أنه ليس ثمة خطأ: «سالتسوبدن.»

فقال بالإنجليزية ليريهن أنه يعرف كلمةً باللغة الإنجليزية: «ييس (وتعني بالعربية أجل).»

وبحركاتٍ بطيئة متأنية ركب القارب وبدأ تشغيل المحرك. لكنه إذا كان ذا شخصية متأنية — لا يمكن استعجاله — فلديه عقلٌ خامل ليجاريها؛ إذ لم يخالجه أيُّ شك بشأن جواز هذه الرحلة.

أدركت جورجيا أن الكونت لم يتصوَّر قط احتمالَ أن تتحدث أيٌّ منهن السويدية؛ ولذلك لم يعطِ الخدم أي تعليمات بوجوب معاملة زائرته معاملةَ السجينات.

حين اكتظَّ القارب بهم جميعًا، حدَّثت جورجيا نفسها قائلة: «إنه يرانا كأننا إنجليزٌ أثرياء مدلَّلون.» شعرت بالقارب ينتفِض كأنه كائن حي، قبل أن يمضيَ منطلقًا، ليمخر عبابَ البحر مخلفًا وراءه خطًّا من الزَّبد الملتفِّ.

كانت اللحظة ذات نشوة غير معقولة حتى ليكاد المرء يعجز عن تحمُّلها. بعد أن كانت مشدودة الوِثاق في موقعها، تحرَّرت جورجيا منطلقةً نحو الأفق. فقد تركت الجزيرة بتداعياتها وذكرياتها الشنيعة ... فامتدَّت ياردات من المياه البيضاء المخضرة بين القارب والمرفأ الصغير. وظلت المسافة بينهما تتسع مع كل لحظة. وجعلت الأمواج الصغيرة ترتطم بجوانب القارب، وشعرت جورجيا بأول لسعةٍ من الريح.

وما لبِثت الريح أن اشتدت في هبوبها عليهم، وانطمست الملامح الجلية للجزيرة أكثرَ فأكثر. كأن ستارًا غيرَ ملحوظٍ قد أُسدل عليها، فاختفَت تدريجيًّا وغاصَت في بحرٍ من الضبابية المطلقة. لم تَعُد سوى ظلٍّ طافٍ فوق الماء، إلا أن جورجيا ظل باستطاعتها رؤيةُ المنزل الأبيض رؤيةً مشوَّشة.

كان في أحد أطرافه حجرة ذات جدران زجاجية، قائمة فوق البحر. شعرت جورجيا أنها لا تزال محتفظةً بسجينتها — امرأة منكبَّة على دفتر كتابة، تصبُّ في الصفحات عذابَها — تذيع مأساتها على عالَمٍ لن يصدِّقها.

نبذت جورجيا عنها ذلك الخيالَ البشِع.

«كلا، أنا حرة. لقد هربت. ونحن في أمان.»

وأغمضت عينيها بعزم، مستقبلةً اندفاع الرياح وهي تداعب جفونها، كأنها تُسبِغ عليها البركة. وحين فتحتهما مرة أخرى، لم يبدُ أثرٌ للجزيرة أو المنزل.

ابتسمت جورجيا لهنري، الذي حدَّق نحوها بدوره، إلا أنها لم تجد في قلبها موضعًا لشك.

وقالت متعهدة: «لن أعود إلى هناك مهما يحدث. إذا لم يكن يعرف كيف يوجِّه القارب، فسوف نرسو به في أي مكان. وإذا نفد الوقود، فسننتظر حتى تأخذنا أيُّ سفينة. سوف نجرِّب حظنا.»

تلاصقت الصغيرتان تنشدان الدفء، لكنهما لم تعلِّقا ولم تطرحا أيَّ أسئلة. فجعلها صمتهما تتساءل إن كانتا تفهمان الوضع أم لا. فحين كانتا على الجزيرة، كانتا تبدوان في غاية السعادة، ولا تحرصان إلا على ألَّا تعودا إلى إنجلترا ودروسهما.

كان من المستحيل أن تخمِّن ما يدور بذهنهما، ولم تجرؤ على تقصِّيه؛ إذ كانت تعلم نفورَ الأطفال من الخروج عن المألوف.

والآن لا يوجد سوى أميال من البحر الخالي. ولم يكن هناك أيُّ مركبة أخرى ولم يكونوا قد وصلوا إلى أيٍّ من الجزر الصغيرة: التكوين الصخري للأرخبيل. ملأت الريح عينَي جورجيا بالمِلح حتى التصقتا. وكلما فتحتهما بصعوبة، أمكنها بالكاد رؤيةُ الرذاذ يرتفع في أشكال بيضاء مهتزة، مثل ملائكة حارسة.

ضمَّت جورجيا ابنتَيها أكثر، وبدأت تخطِّط. سيكون الوقت متأخرًا حين يصلون إلى البَر الرئيسي، لكن الطريق إلى ستوكهولم لن يستغرق سوى رحلةٍ قصيرةٍ بالقطار. وإذا لم تتمكَّن من استقلال الباخرة هناك، فستركب القطار إلى جوتنبرج. فلن تشعر بالأمان حقًّا إلا حين تصير على الأرض المحايدة للباخرة السويدية لويد.

ثم بدأت تغفو، وفقدت كلَّ إحساسها بالاتجاهات أو المكان حتى أيقظتها ميرل.

«لقد اقتربنا يا أمَّاه.»

فتحت عينيها فرأت الجزيرةَ بشكلها المألوف على خلفية ذهبية من غروب الشمس.

فقالت بحِدة: «لقد قلت سالتسوبدن.»

فشرحت لها ميرل قائلة: «لكن هنري لم يجِد وقودًا كافيًا للذهاب إلى هناك. فطلبت منه العودةَ في الحال، وإلا تأخَّرنا على العشاء.»

فكرَّرت جورجيا كلامها قائلة: «لم يجِد وقودًا كافيًا. هذه هي الخطة إذن.»

أدركت أنها كانت قد استخفَّت باحتياطات الكونت. فلن يكون في المحرِّك الوقود الكافي للذهاب في رحلة إلى البر الرئيسي أبدًا وهو يحتفظ بمفتاح المخزن.

كانت ابتسامته مرحة وهو يلاقيهم على المرفأ.

حيث سأل جورجيا: «أكانت رحلة سعيدة؟»

لكنها لم ترُدَّ؛ إذ أوهنتها خيبةُ الرجاء التي كانت بالغةً حتى قضت على قدرتها على التمرد. فتحول نحو ميرل، وتحدَّث إليها بالسويدية، فوقعت في فخِّه وأجابته باللغة نفسِها.

قال الكونت معلقًا، وهو يلاحقها بنظرته وهي تهرول بعيدًا: «إنها ماهرة في إتقان اللغات. يا لها من فتاةٍ صغيرةٍ ماكرة! لكنها جميلة كفاية لتنجوَ بأفعالها ... لكن يجب ألَّا يحدث هذا مرة ثانيةً أبدًا يا عزيزتي. فقد كنتِ في وضعٍ شديد الخطورة. فهنري

ليس ميكانيكيًّا ماهرًا ولا يستطيع الإبحارَ على نحوٍ سليم. ثمَّة شخصٌ واحد فقط غيري بإمكاني أن أثقَ فيه إذا خرج بكِ في القارب.»

عرفت جورجيا اسم هذا الشخص المميَّز. إنه البروفيسور.

الفصل الخامس والعشرون

الجلَّاد

رغم أنها كانت نادرًا ما تراه فقد ظلَّت رهبةُ جورجيا من البروفيسور تزداد. لم يكن يُحدِّثها متى تَصادف والتقيا، لكن نظرةً من عينَيه الصغيرتَين الثاقبتَين كانت قادرةً على أن تجعلها تجفل.

مع أنه لم يكن يفعل شيئًا ليذكِّرها بأمر محدَّد، فلم يكن بوسعها أن تنسى أنه الجلاد.

ظل البروفيسور لغزًا، تمامًا مثلما كان وضعه غامضًا. كانت تعلم أنه حافظ أسرار السيدة فاندربانت؛ إذ إنها كانت تسمع صوتَ المرأة العجوز المزعج وهي تحدِّثه في حجرتها، وإن كان هو يلتزم الصمت عادةً، لكن بخلاف أنه كان طوعًا لها، لم تعلم جورجيا شيئًا عن العلاقة بينهما.

كان البروفيسور، مثل الكونت، يحافظ على لياقته بالعمل في الحديقة، وفي غرفة التدفئة المركزية، بل ويقوم بإطعام المَعْز والطيور. وكان كثيرًا ما ينزل البحر، فيسبح ضاربًا المياهَ بقوةٍ ليغوص عميقًا، حتى إن رأسه المغمور دائمًا في الماء بانحناء خفي كان يذكِّرها بسمكة قرش تلاحق فريسة.

ولما استقوت شكوكها أنه لم يكن غريبًا على ميرل، استجمعت شجاعتها لتتقصى الأمر. كانت تعلم أنها ستثير فضولًا خطيرًا بحظر أي صداقة، وكذلك أنه من المستحيل أن تسيطر على حركات ميرل. من الجلي أنها كانت الرفيقة الدائمة لشقيقتها، لكن بما أن حتى أدق أُذنٍ لا يمكنها تعلُّم اللغة السويدية بين ليلة وضحاها، فهذا دليل على أنها كثيرًا ما تتسلل لتقضي حاجاتٍ خاصة بها.

ذات مساء، تشجَّعت جورجيا وسألتها سؤالًا.

قالت بنبرة طبيعية بينما كانت ميرل مستلقيةً تتشمَّس بجانب حمام السباحة: «أرى أنكِ تهوين البروفيسور.»

فأجابت بلا مبالاة: «إمممم. إنه رجل طيب جدًّا. لقد قتل كثيرًا، لكن كله بدافع الرحمة.»

سيطرَت جورجيا على ارتجافها لدى تذكُّرها فجأةً أنها قد تصير فعلًا من ضحايا هذه القِتْلة الرحيمة.

«هل يشعر بالأسف عليهم؟»

زلَّ لسانها رُغمًا عنها.

فأجابتها ميرل: «لا. إنه لا يشعر بالأسف أبدًا؛ لأنه أرقُّ من أن يؤلمهم. إنه سريع جدًّا جدًّا.»

«حسنًا، لكنه لا يجدُر به أن يخبركِ بمثل تلك الأكاذيب السخيفة، ولا يجدُر بكِ سماعه.»

«لكنه لا بد أن يسليني.»

«ليس بقصصٍ كريهة غير حقيقية. فلتتذكَّرا أنتما الاثنتين أنه لا يجب تصديقُ كلِّ ما تسمعانه.»

«إننا لا نصدِّق. أليس كذلك يا ميفيس؟»

بينما تبادلت الصغيرتان نظراتِ الشعور بالذنب، شعرت جورجيا بأن حملتها اليائسة لإبقائهما في جهالة قد باءت بالفشل. فقد كان واضحًا أنهما تتشاركان سرًّا أرادتا البوح به، لكنهما تشكَّان إن كان من الحكمة أن تفعلا ذلك أم لا.

لكن سريعًا ما تحوَّل قلق جورجيا إلى شعور سارٍّ بالراحة، حين أدلت ميرل باعترافها. إذ قالت: «إنني غير مؤمنة بالإنجيل. فقد قلت كذبة ولم أخرَّ صريعة.»

وأضافت ميفيس بأسلوب مؤثِّر: «وأنا أمرت جبلًا أن يتحرك. لكنني لم أستطِع أن أحمله على أن يطيعني. ولم يفعل أيَّ شيء.»

عندئذٍ أخذت بيدِ ميرل الممتدة طلبًا للطمأنينة، فيما نظرت الصغيرتان حولهما بعينَين مرعوبتَين بعض الشيء، كما لو كانتا تتوقَّعان أن يعلوَ البحر ويجتاحهما من فوق الجزيرة.

وحين لم يحدُث شيء، انفجرتا في صيحاتٍ من الضحك وأخذتا تصارع إحداهما الأخرى على الأرض. وقد بدَتا طفلتَين طليقتَين في غايةٍ من السرور والصحة؛ إذ لوَّحتهما الشمس بلون ذهبي، حتى إن جورجيا لم تطاوعها نفسُها على توبيخهما.

قالت جورجيا: «الإنجيل صحيح. حين تعودان إلى إنجلترا لا بد أن تخبرا الآنسة جونز بما لا يمكنكما فهمه، وهي ستشرح لكما كل شيء.»

وسارت سريعًا مبتعدةً عنهما، بغضب مضطرم من احتمال إطفاء شعلتَين متقدتَين من الجمال والمرح. أعمتها الدموع التي تجمَّعت في عينيها، فحادت عن المسار، لا تعلم ولا تكترث أين تهيم، إلى أن اكتشفت أنها ضلَّت الطريق إلى الحوض المزروع بالخضراوات على الجانب المغطَّى من الجزيرة.

وجدت البروفيسور يكاد يسدُّ الطريق أمامها؛ إذ كان شارد الذهن يربِّت على عنزة وهي تأكل من يده. وكالعادة لم يلقِ لها بالًا إلا بلمحة سريعة.

وإذا بها تجد بداخلها رغبةً في الحديث معه.

فسألته: «هل تحب الحيوانات؟»

فأجابها بعد السكوت طويلًا: «إنها تحبني.»

جاز في تلك اللحظة وهو بملابسه المتسخة بالوحل أن تظنه فلاحًا لا يجيد الكلام. وبدا مستحيلًا أنها في أول لقاء بينهما في بروكسل قد صدَّقت أن هذا الرجل الضخم حائزٌ درجاتٍ أكاديمية، وأنها قد هابت أن تتحدَّث مخافةَ أن تفضح جهلها. وتذكَّرت ملابسه الغالية، وأزرار قميصه المصنوعة من اللؤلؤ الأسود، والخير والإحسان اللذَين يشعَّان من سيمائه التي بدا أنه قد خلعها مع نظارته.

لكن في حين أنه آنذاك أرهبها بشخصيته، فإنها الآن تشعر بأنها مهزومة بقوة أكبرَ بكثير من الغباء وحدَه؛ كأن حجرًا ثقيلًا قد هوى فوقها.

تابعت كلامها، تحاول بصعوبة أن تتغلَّب على نفورها وأن توقظ بداخله جذوةً من العطف: «تعتقد ميرل أنك صديقها. إنها فتاة كبيرة بالنسبة إلى سنِّها. لكنها لا تعدو السابعة. وهي منطلقة دائمًا في سعادة بالغة ... أنا لا أكترث كثيرًا لما قد يحدُث لي، لكن لا يبدو من العدل ...»

لمَّا خذلها صوتُها تشجَّعت وتطلَّعت إلى الوجه الجسيم الأحمر. كانت عيناه تراقبان باهتمامٍ سيرَ حشرة راحت تجول في فراء العنزة. وإذا بأصابعه الضخمة تهبِط عليها فجأةً لينتزعها بأظافره.

إما أنه لم يُصغِ إلى رجائها، أو أنه كان يبرهن على أن التقاط البرغوث كان ذا أهميةٍ أكبر. شعرَت جورجيا بالهزيمة وخيبةِ الأمل، فأسرعَت مبتعدةً عنه وهي تحادث ميفيس في مخيِّلتها بسذاجة.

وقالت: «إنكِ على حق يا عزيزتي. لا أحد يسعه أن يحرِّك جبلًا.»

وحين وصلت إلى حجرتها، وقفت لدى النافذة، تشاهد الأمواج في تدافعها متقدِّمة نحو الأفق.

ثم فكَّرت: «لا يمكن لإنسان أن يكون شريرًا شرًّا محضًا. لا بد أن تكون به نقطة خير.»

ثم أدركت فجأةً أنها كانت تفكر في الشخصيات في رواياتها. كانت رواياتها مناقِضة لِما تشهد به قصص الجرائم في الصحف اليومية. كانت تصرِف ذهنها مرتعدة عن تقارير الجرائم البشعة التي يرتكبها وحوشٌ بشريُّون، بَيْد أنها كانَت واقعية.

لكنها وإن كانت أدركت أنه لا رجاءَ من استعطاف السيدة فاندربانت أو الكونت، فقد بدا ثمَّة أمل ضعيف في اكتسابِ عطف كلير من أجل الصغيرتَين، في حالِ لم يفهم أصدقاؤها الإشارات التي أرسلتها إليهم.

وقالت لنفسها تذكِّرها: «إنها ليست مجرمة. فهي نفسها واحدة من ضحايا الكونت. وكل هذه القسوة مجرد تكلُّف.»

وجدت جورجيا كلير في حجرة الاستقبال، مستلقيةً على الأريكة، تدخِّن سيجارةً كعادتها. بدت الفتاة كبقعة شاذة من الألوان الزاهية وسط الدرجات الباهتة المحيطة بها. فقد كانت ترتدي ثوبًا منزليًّا ورديًّا منقوشًا بزهور خشخاش زرقاء، وقد لوَّنت شفتيها بلون أحمر أرجواني وجفنيها بلون أزرق فاقع. وكان رأسها معصوبًا بمنديل من الشيفون بدت مستاءة منه.

بادرت بمخاطبة جورجيا بعدوانية كأنها شكَّت أنها ستوجِّه إليها نقدًا سلبيًّا.

«هيا. فلتضحكي. كان شَعري أفضل من شَعرك. كان طويلًا حتى ليمكنني الجلوس عليه. أليس رائعًا أن يكون شَعركِ قصيرًا مثل المساجين؟»

أدركت جورجيا لأول مرة وهي تصغي إليها أن كلير تَغار من شَعرها الأشقر الطويل. كانت بئس المقدِّمة لما أرادت أن تلتمسه منها، لكنها حاولت استرضاءَ الفتاة العدوانية.

فقالت لها: «بل إنه شيء رومانسي. فإنكِ تذكرينني بسيدةٍ من العصور القديمة قصَّت شعرها، وارتدت ملابس الغلمان، حتى ترافق سيدها في حملته.»

«بئس الحملات. حيث نُجري التجارب على الفئران ... ماذا تريدين؟»

«أريد أن أطلب منكِ معروفًا.»

«إنه مرفوض.»

«لماذا تكرهينني؟ إنه شيء لا يسعني فهمُه. فليس لديكِ دافع للحَنق عليَّ.»

«إننا امرأتان لرجل واحد. هذا كلُّ ما في الأمر.»

«هذا كلام سخيف. فلا يمكنكِ أن تغاري مني. أنت تعلمين أن الكونت لا يكنُّ لي مشاعر.»

«وأنتِ لا تكنين له مشاعر. وهذا ما يكدِّره. فهو ليس معتادًا ذلك. وسينتهي بكِ الحال بإثارة عواطفه.»

نظرت جورجيا إلى الفتاة المُتيَّمة، وهي تكاد تشعر بالأسف عليها. فهي حبيسة مثل نبتة في أصيص، غير قادرة على الازدهار والتمتُّع بخيرات الحياة؛ فقد اقتُلِعت وأُجبرت على أن تنموَ نموًّا غير طبيعي بفعل لهيب العاطفة الحارق.

قالت جورجيا بحدة: «هذه أوهام. إنما يشغلني شيء واحد. وهو ابنتاي.»

«إنهما مشكلتكِ.»

«أعلم ذلك … لكن لو حدث لي شيء، هلا تحرصين على أن تعود ميرل وميفيس إلى إنجلترا مباشرةً؟»

«لماذا؟ هذا لا يعنيني في شيء.»

«لكن يا كلير، إنهما مجرد طفلتَين.»

ضحِكت كلير بقسوة وهي تنفض الرمادَ عن سيجارتها.

ثم قالت: «وهذا هو السبب. أنا أكره الأطفال. طالما كرهتهم. وسأظل دائمًا … حين كنت في الخامسة، وُلد طفل جديد. كنت ملكةً صغيرة حتى ذاك الوقت، لكنه خلعني من عرشي. فكرهت ذلك الوليد. هل تعلمين ما الذي خطَّطت للقيام به. خطَّطت لإشعال النار في ناموسيةِ مهدِه ذات يوم. لكنه مات قبل ذلك، إلا أنني ما زلت أكره الأطفال … ولن أنجب أطفالًا أبدًا، ولا أريد واحدًا. فلا يمكنني المرض أو الراحة أو الابتعاد عن جوستاف أبدًا، وإلا خسِرته. لا شيء يهمني. ما دمت معه، فهو كلُّ ما أريد. وإذا لم نَعُد معًا فسوف أموت.»

بينما تستمع جورجيا إلى سيل الكلمات، أدركت أنه لا رجاء من الاستمرار في التضرُّع إليها. وهكذا انسحبت بعيدًا عن الأريكة، وهي تبوح بالأسى المختزَن في قلبها.

قالت: «على الرغم من كل شيء، فإنني لن أرضى أن أكون مكانكِ … بل إنني أشفق عليكِ.»

صاحت كلير بصوتٍ مختنق من الغضب: «كيف تجرئين؟ اخرجي من حجرتي … يا جوستاف.»

ما كاد صوتها يعلو، حتى دخل الكونت الحجرةَ يمشي الهوينى. كان يرتدي بذلةً من الحرير بلون كريمي، وفي عروتها زهرة خشخاش أيسلندية برتقالية ذابلة. وبدا واضحًا من ابتسامة الرضا على وجهه أنه يعرف أنه سببُ الخلاف.

وفجأةً صار وجهه أكثرَ صرامة ونظر سريعًا نحو الشرفة.

وقال يأمرهما: «الزما الصمت. فهذه ساعة الطفلتين. ثمَّة مَن يسترقُ السمع.»

تتبَّعت جورجيا اتجاه عينيه لتطالع الظل الطويل الملقى على الأرضية البيضاء للشرفة، ليفضح المستمع غير المرئي. حدَّثتها نفسها بكارثةٍ وشيكةٍ فتجمَّدت أوصالها؛ إذ تساءلت منذ متى والطفلة واقفةٌ بالخارج وما الذي فهمته.

شاعرة أنه ما زال من الممكن إنقاذ الموقف بالفطنة، حدَّثت نفسها تقول: «أرجو أن تكون ميرل.»

وكأنه خمَّن ما يدور بخَلَدها بادر الكونت يتحدث.

«فلتدخلي يا سيدتي الصغيرة. هل هي الأعزُّ على قلبي؟ ... لا، إنما هي ميفيس.»

وبمجرد أن رأت جورجيا أي الطفلتين هي، سقط قلبها في قدمها. كان وجه ميفيس أحمرَ وبغيضًا والمخاط يسيل من أنفها. ورمقت الكونت بنظرة كراهية، وهُرعت نحو أمها مجتذبة ذراعها.

وقالت: «هيا بنا يا أماه. لا بد أن نعود جميعًا إلى بيتنا.»

فسألها الكونت بنبرة حادة: «ولماذا يجب أن ترحلن؟»

حاولت جورجيا إسكاتَ الصغيرة المنفعلة، وإن كانت أدركت أن الأمور قد خرجت عن سيطرتها. انتابها شعورُ العجز الذي يساور شخصًا خرج بالسفينة في البحر قبل الأوان. هي وحدَها أحسَّت باهتزازها الطفيف الأول، لكنها عرفت أنه لا شيء يستطيع منعها من الغرق. فبمجرد أن تبدأ، ستستمر في الهبوط، مكتسبةً الزخم مع كل قدم نحو الأسفل، حتى تغوص في الأعماق.

انتزع الكونت ميفيس بعيدًا عن أمِّها وسألها مرة أخرى: «لماذا؟»

فقالت الطفلة وهي تشير نحو كلير: «إنها تحرق الرضَّع.»

ثم ضربت الكونت لتتحرر من قبضته محاولةً الوصول إلى جورجيا.

وقالت ترجوها: «هيا بنا نرحل يا أماه. إنها عصابة. وهذا منزل عصابة بغيض.»

استُقبِلت الكلمات بصمت لم يخرقه إلا الكونت.

وهو يقول: «يا للخسارة ... كانت ميرل جميلة.»

الفصل السادس والعشرون

بطاقة بريد من بروج

رغم أن فورة ميفيس لم تلقَ المزيد من الاهتمام، فقد أدركت جورجيا أن الموقفَ قد تجاوز مرحلة السيطرة المعتدِلة ووصل إلى اتخاذ إجراء حاسم. فقد كانت عقلية الكونت مشابهةً لعقلية الناظرة العجوز في مدرسة أمِّها، التي أخلت نفسها من المسئولية، حين نأت بنفسها عن المعرفة بمأساة القطة.

فقد قالت في ملحوظة من ملحوظاتها: «إن تابي مزعجة شديدة الإزعاج. وقد نبَّهت على الخدم بضرورة ألَّا أجدها في المدرسة عند عودتي من العطلة، على ألَّا يخبروني بالتفاصيل.»

فكان الكونت بأسلوب مماثل بمأمن من تهمة القتل، على أساس أنه مجرَّد عامل سلبي. أما السيدة فاندربانت فقد كانت القوةَ الفاعلة في المخطَّط اليائس، بصفتها مَن بدأه، وهو المخطَّط غير المدروس بالمرة، حتى إنها احتاجت إلى ضحايا جدد للتخلُّص من أخطائها.

بدأَت جورجيا تفهم كيف من الممكن أن تؤدي جريمةٌ إلى أخرى، حين أدركَت أنه — ما دام أن وقوع حادثةٍ لها كان شيئًا حتميًّا — فمن الممكن تدبُّر مأساةٍ ثلاثية بقَدْر أكبر قليلًا من المجازفة، بما أن وفاة ابنتَيها ستؤدي إلى فرص جديدة للربح.

فمع عدم وجود وصية، سيتمكن زوجها من المطالبة بأموال الوديعة. لقد اكتسب مسبقًا ثقةَ أمِّها، وبما أنه سوف يصرُّ على صرفِ دخلٍ لها، فلن يكون لديها دافع للشك أو الشكوى. أما فيما يتعلق بالأوراق اللازمة لدعم مؤامرة الاحتيال، فبإمكانه شراءُ خدمات موظف سجلات عديم الضمير وبحاجة للمال، ليزوِّر له كلَّ التقييدات والوثائق.

رغم أن الصغيرتَين كانتا في أمانٍ إلى أن ينقطع الرجاء من انتزاع المزيد من الروايات من رأسها، فقد شعرت أنه ينبغي لها محاولةُ التواصل مع أصدقائها، قبل أن يطرأ أي شيء فيفوت الأوان على ذلك.

هكذا ظلَّت أغلب الليل ساهرة، تنهي دفعةً أخرى من الرواية — لتكون مبرِّرًا لبطاقة البريد التي ستُرفق بها — ثم أدركت أن الكونت وإن كان قد لا يفهمها، فمن الوارد أن تثيرَ الصورة التي اشترتها من بروج شكَّه.

ثم قالت لنفسها وقد حسمت الأمر: «لا بد أن أجعل ابنتيَّ تشخبطان على كل البطاقات الفارغة.»

كان عليها الانتظار إلى يومٍ ممطر، حتى تتسنى لها فرصة اقتراح لعبة جديدة على الصغيرتَين الحبيستَين في المنزل، اللتَين ملَّتا اختيارَ المنازل في الجرائد.

فخاطبتهما سائلة: «لماذا لا تفتتحان متجرَ ملابس؟ بإمكانكما استخدام كل أغراضي. ضعا سعرًا على كل شيء ولنرَ مَن ستكتب أفضلَ بطاقات. لا تكتبا «أفضل سعر» أو «حسم ممتاز». حاولا أن تبدِعا.»

فهتفت ميرل في الحال قائلة: «أعلم ما سأكتبه في إحدى بطاقاتي. سوف أكتب: «إنني بلا أمٍّ.» هكذا سيشعر الناس بالأسف على الثوب الصغير المسكين ويشترونه.»

بدأت ميرل البحث في الخزانات فيما سألت ميفيس: «وماذا سنستخدم من أجل البطاقات؟»

فاقترحت جورجيا بصوتٍ خفيض: «بطاقات البريد.»

انطلقت الصغيرتان لدى سماعهما الاقتراح، فاجتاحتا المنزل، مثل الجراد، تجرِّدان كلَّ حجرة من الأدوات المكتبية. وحين عادتا، ظلَّت تحثُّهما في منافسةٍ حامية إلى أن امتلأ الفراغ الأخير في آخر بطاقة.

ارتعشت يدا جورجيا وهي تكتب العنوان على بطاقة بريد «سجود الرعاة»، ثم كتبت بضعة سطور على المساحة الصغيرة المتبقية. إلا أنها حين أخذتها إلى حجرة التدخين وضعتها باستهانةٍ فوق مخطوط روايتها.

وقالت بنبرةٍ لا مبالية: «من المستحسن أن تطلب المزيد من الأدوات المكتبية حين تأخذه إلى سالتسوبدن. يبدو أن ابنتيَّ قد استهلكتا الكثير منها.»

فسألها بمرح: «ولمَ لا؟ ربما تعلمان أنكِ مَن يدفع ثمنها. يبدو أن ميفيس على دراية بكل الأسرار.»

لم تنبِس جورجيا ببنت شفة. وخرجت من الحجرة شاعرةً أنها لا يسعها سوى أن تثق في الحظ. ولم تجسر على الإمعان في الاحتمالات التي تعاكسها. فالبطاقة البريدية ليست ذات قيمة مادية كبيرة. ومن الممكن أن تضيع من الكونت، أو يَعُدَّها غير جديرة بطابع البريد. وفي المقابل، من الوارد أن يوليها عنايةً بالغة وينتابه الشك من صيغتها التي تحيد قليلًا عن صيغة العمل. وحتى إذا وصلت إلى مكتب تورش فمن الجائز أن يعترض سبيلها موظفٌ ويتخلص منها في سلة النُّفايات الورقية.

لم يكن في وسعها سوى الانتظار والرجاء، غير مدركة أن خيوط القدَر بالغةُ التشابك، حتى إن كلَّ شخص من الوارد أن يكون مصدرًا مؤثرًا على الأجيال القادمة. ففي حالتها، تقرر مصيرها قبل ميلادها بسنوات عديدة، حيث تقرر بناءً على نشأة سيدة من العصر الفيكتوري على أخلاقيات الطبقة المتوسطة ومبادئها السليمة.

صارت تلك السيدة التي نشأت في العصر الفيكتوري أمًّا لفتاة من العصر الإدواردي، ولدت بدورها بنتًا في العصر الجورجي، بعد زواجها بيومٍ واحدٍ تحديدًا، ثم ماتَت مكفِّرة عن ذنوبها، مما أثبت أن «الأم دائمًا على حق.»

لمجابهة أي صفات قد تُورَث من هذه السيدة التي أبَت الانتظار للأسف، نشأت الطفلة في كنف جَدتها الفيكتورية على قواعدَ بالغة الصرامة، من دون الإذعان لتفريط الحياة المعاصرة في الأخلاقيات. وفي النهاية، جنى تورش بعضًا من فوائد هذه التربية. فقد وُظِّفت لديه وأثبتت أنها سكرتيرة مثالية، فيما عدا رفضها الكذب عند الرد على الهاتف.

فكانت أول مَن رأى بطاقة البريد التي أرسلتها جورجيا، وهي تفرز البريد الصباحي لتورش. ولما كانت قد قضت من فورها عطلةً في بلجيكا، فقد دسَّت البطاقة في حقيبتها. كانت بالفعل قد كتبت إليه رسالةً تُخبره أن الآنسة جونز تلقَّت التوة جزءًا جديدًا للطباعة من السيدة يو؛ لذلك لم يكن ثمة داعٍ لإزعاجه لقراءتها.

كان الأمل الأخير لجورجيا سينطفئ مثل شمعة في مهب الريح، حتى تحدَّثت السيدة الفيكتورية بصرامة من قبرها. وبدأ الضمير الحي للآنسة ويليامز الصغيرة يؤنبها لعدم طلب الإذن لأخذ غرض شخصي. وذكَّرها أنه في حين أن بطاقات البريد العادية التي تحمل توصياتٍ يمكن التخلُّص منها في سلة الأوراق المهملة، فقد لا تستحق الصورة الآتية من بروج هذه المرتبةَ الدنيا. فقد يكون لدى السيد تورش — أو زوجته — ألبومات لبطاقات البريد، وفي هذه الحالة ستحمل فعليًّا إثم سرقتها.

وبناءً على ذلك فقد وضعت بطاقةَ البريد على دفتر مكتب تورش، بعد أن دوَّنت ما أملاه عليها وتلقَّت تعليماته.

وقالت: «لقد وصلَت للتو من السيدة يو. إذا كنت لا تريدها، فهل يمكنني الاحتفاظ بها؟»

فقال موافقًا: «بالتأكيد. ماذا جاء فيها؟»

مدركةً جيدًا أنها تساوي عند تورش زمرةً من المؤلفين في مختلف المجالات، فقد أفصحت عن ابتسامتها وهي تقرؤها مع التشديد قليلًا على مقاطعها.

«هذه البطاقة من أجل تذكيرك بأنني أرسلت التوة جزءًا آخرَ من المخطوط إلى الآنسة جونز.»

فقال: «جيد. هل هي صورة لستوكهولم؟»

«لا، إنها لبروج. إنها لوحة «سجود الرعاة»، لبيير بوربو. لقد رأيت الأصلية.»

لاحظت أن حدقتيه قد انكمشتا حتى صارتا في حجم نقطتين، وأدركت أنه كان يحاول شحذ ذاكرته.

قال وهو يأخذها من فوق المكتب: «سوف أتركها لكِ بالخارج.»

وحين صار بمفرده، جلس يحدِّق في الفراغ. كان عقله مزدحمًا بصخبٍ من الكلمات غير المترابطة، وكان يبذل جهدًا ضخمًا للربط بينها. «تذكير». بماذا تذكِّرني؟ «بروج». وما حدث في بروج. لم يتذكر سوى أنه أوضح أن بوربو كان يوقِّع لوحاته برسمٍ شبيه له ... «شبيه». ألم تتلُ الآنسة جونز عليهم شيئًا بشأن شخصيةٍ هامشيةٍ في روايةٍ جورجيا الجديدة وبها شبهٌ منها؟

إنه لم يقرأ أيًّا من الأجزاء بنفسه، لكن بما أن الآنسة جونز دائمًا ما تُعِدُّ أربع نسخ — شاملة الأصل — فستكون هناك نسخة احتياطية في المكتب. من ثَم فقد رنَّ الجرس طلبًا لها، وقرأها على عجالة، لكنه لم يجِد إلا رواية تقليدية من روايات «يو»، من دون شخصية يمكن مقارنتها بالكاتبة.

ولأنه كان يبحث بلهفة عن فكرة توقَّفت على هذه الشخصية الواضحة من شخصيات الرواية، فقد استاء من الآنسة جونز لإهدار وقته وطاقته الذهنية.

وحدَّث نفسه معللًا الأمر: «إنها هستيريا. لقد ابتدعت القصة بأكملها لخلق جوٍّ من الإثارة.»

وظل موضوع رواية السيدة يو الجديدة مهملًا عدةَ ساعات، إلى أن تدخَّل القدَر مرة أخرى. حيث لم يستطِع مؤلِّف أن يفيَ بموعده معه بعد أن فاته القطار، فصار لدى تورش الفراغ ليتذمر مجددًا. وفي النهاية قرَّر الإعراب عن استيائه.

فقال لسكرتيرته: «صليني بالآنسة جونز رجاءً.»

وحين حُولت إليه المكالمة الخارجية، واجه المربية بالموضوع مباشرةً.

«لقد قرأت من فوري الفصولَ الأولى من رواية السيدة يو، لكنني لم أستطِع العثورَ على أي شيء بشأن روائية ذائعة الصيت باسم السيدة جيرترود ييتس.»

مضت هنيهة قبل أن تندفع الآنسة جونز لتواجهه وهي في حالة من الانفعال.

«لقد حذفتها عند الطباعة. فقد كانت زائدة على الحبكة ولا تؤثِّر على الأحداث أو تطوُّرها. إنه التصرف الأفضل، وسأتحمل مسئوليته بالكامل. فإنني أعلم أن السيدة يو ستكره أن تبقى شخصيتها في الرواية. فهي إنما وضعتها لتخبرنا بشيء.»

ومما أثار دهشتها أن الوكيل لم يوجِّه إليها اللوم.

فقال: «بدأت أعتقد أن حكمك كان سليمًا. هل تظهر «السيدة ييتس» هذه في الجزء الجديد من الرواية؟»

«نعم.»

«فلتبقيها إذن في الوقت الحالي. فقد نحتاج إليها بوصفها دليلًا. لقد بدأت أتبيَّن شيئًا. لا تتوقعي الكثير منه، لكنني أرجو أن أبلغكِ خبرًا طيبًا عن السيدة يو قريبًا.»

أغلق تورش السماعة قبل أن يمكن للآنسة جونز أن تسأل أيَّ أسئلة. كان قد بدأ يشعر بإثارة متزايدة مما أنبأه به حَدْسه، وحين اتصل بأخيه كان في ذروة الانفعال لأهمية اكتشافه.

«لا بد أن نتصرف، ونتصرف سريعًا. فلديَّ دليل على أن جورجيا يو واقعة في قبضة وغد، وأنها محتجزة لديه. لقد فهمت الآنسة جونز المسألة فهمًا صحيحًا ... لا، لا تقاطعني. اسمعني. حين كنا معًا في بروج أريتها لوحةً معينة، وأوضحت لها أن الرسام كان دائمًا ما يضع نفسه بين الشخصيات الهامشية في لوحته، لتكونَ طريقته الخاصة في التوقيع ... وها هي ذي قد فعلت الشيء نفسه، وصفت نفسها شخصيةً في روايتها ... فماذا تفهم من ذلك؟»

«إذا كان لهذا أي معنًى على الإطلاق، فمعناه أنها اتخذت أسلوبًا متكلفًا لتوقيع أعمالها، على سبيل الدُّعابة.»

«يا أيها السطحي يا محدودَ الفهم.» لأول مرة يهين تورش شقيقه البطل. «لا تفهم الكلام فهمًا حرفيًّا، وإنما افهم الفكرةَ العامة. إنها تحاول أن تقول: «هذه الرواية قصتي أنا. ما يحدُث للبطلة يحدُث لي. وقد وضعت نفسي في الرواية لأثبت أنها قصتي أنا.»»

ثم أضاف بأسلوب مؤثِّر: «لقد أرسلت إليَّ التوة بطاقةَ بريد مصورة لنفس اللوحة التي أطلعتها عليها، «صلاة الرعاة». ألا يؤكد هذا الأمر؟»

«من المؤكد أنها مصادفة غير عادية.»

«إنها ليست مصادفة. المسألة في غاية البساطة؛ وحين تضيف إليها النقاطَ المختلفة لِما حكَته الآنسة جونز، تصير لديك الصورة كاملة ... وإذا صحَّت نظريتي، فإنهما ليسا متزوجين. إنها جريمة خطف.»

إذا كان أوزبرت يستثار على نحوٍ أبطأ، فإن حماسته تبقى مدةً أطول. فبعد أن تناول هارفي السريع الانفعال مشكلةَ الإنقاذ من عدة زوايا مختلِفة، أُصيب بالإحباط وبات متشككًا في منطقه، فطفِق أخوه يسوقه بلا هوادة. فكان هو مَن ذكَّر الوكيل بأن ناشر أعمال جورجيا لديه صديق يعمل مفوضًا مساعدًا في الشرطة، وأصر على أن يلتمس تعاونه معهما.

في نهاية اليوم الثاني، كان تورش منهكًا، ذهنيًّا وجسديًّا، من وطأة التشكيك المهذَّب. على الرغم من أنهما ألحَّا وأزعجا كلَّ مَن احتمل أن يفيدهما، فقد قوبلا بلياقة وصبر في العموم، ولا شيء أكثر. وحين أخبرهما الناشر بنتيجةِ لقائه بالمفوَّض المساعِد، وشَت نبرة صوته بالتعاطف.

«لقد طرحت على مارسون كلَّ النقاط التي أخبرتماني بها، لكنني أخشى أنه لا يرى أن لكما سندًا. فليس لديكما ما يكفي من الأدلة الفعلية لتسويغ تدخُّل الشرطة. في الواقع، الأمر برُمته خياليٌّ تمامًا من وجهة نظر سكوتلاند يارد.»

فسأله أوزبرت قائلًا: «وما رأيك أنت؟»

«أرجو أن يكون على حق.»

«وأنا كذلك. يبدو أنها الزاوية المألوفة. ستلاحق الشرطة مرتكبي الجريمة، لكنها لن تفعل شيئًا لمنعها.»

كان لدى الناشر القدرةُ على معرفة المحب في حالة أي شخص، لكنه تجاهل العامل العاطفي بلياقة قائلًا: «في تلك الحالة سيكون الأمر في يدك. فإنني لو كنت شابًّا ولديَّ الاستعداد للشجار لعالجتُ المسألة بنفسي.»

«كيف؟»

«حسنًا، إنها نصيحة سيئة ومن المرجَّح أن تضعك في مأزق. لكنني كنت سأحشد ثلةً من الأصدقاء الرياضيين، بنفس وزنك تقريبًا، وأزور السيدة. لأعرفَ قصتَها. وأتصرف بناءً عليها ... لا بد أن تكون على استعداد لمواجهة الصعوبات بالطبع. فإذا رفض الكونت استقبالَ ضيوف، فلن يكون لديك سلطةٌ أو مسوِّغٌ للدخول. وإذا دخلت عَنوة، فستخرق القانوني بذلك. وأخيرًا، إذا وجَّهت إلى الكونت تهمًا بلا أدلةٍ بشأن زواجه، فمن الممكن أن يرفع عليك قضية.»

قطَّب تورش ما بين حاجبَيه منزعجًا، أما أوزبرت فقد التمعت عيناه وجعل يستعرض عضلاته كأنه يتهيأ لمعركة.

فقال الناشر من فوره: «لا بد ألَّا يحدث اعتداء على أحد. إذا وجَّهت السيدة يو إلى الكونت تهمة، فسيصدر أمرٌ قضائي ضد الكونت وشركائه، على النحو المعتاد. وإذا هرب، فإن القبض عليه مهمة الشرطة. ولا شأن لكما في الأمر.»

قال تورش: «أخشى أنه سيلجأ إلى الحيلة ويدَّعي أنه لم يكن ثمة إكراه، إذا افترضنا أنهما لم يتزوجا. فالنساء رومانسيات للغاية.»

فعلَّق الناشر قائلًا: «في تلك الحال سأقول إن الكثير سيتوقف على ما إذا كان راح يسحب النقود من حسابها البنكي. فمحور قصتكما أنه يجبرها على الكتابة ليجنيَ هو الأرباح. إذا كان ذلك صحيحًا، فلا أعلم إلى متى يتوقَّع الاستمرار في ذلك.»

فقال أوزبرت: «المدة الكافية لتحقيق غرضه.»

«سوف نرى. إن الجزء الأعسر على التصديق من وجهة نظري أنه قد يجعلها تؤلِّف روايةً عن وضعها.»

«ولمَ لا؟ فقد استقبلناها جميعًا استقبالَ العمل الأدبي، نظرًا لنوعية القصص التي تكتبها.»

فسأله تورش: «هل كان سيساورك أيُّ شكوك لو كنت قرأت الكتاب على النحو المعتاد؟»

فقال الناشر بحزم: «إنني أنوي نشره باعتباره رواية على أي حال.» ثم التفَت نحو أوزبرت وأضاف قائلًا: «وأعتمد عليك لتضع لها نهايةً سعيدة.»

الفصل السابع والعشرون

الأجر

سطعت الشمس مشرقةً ذات صباحٍ من أيام الخريف، حين أدرك القاربُ البخاريُّ القادم من سالتسوبدن الجزيرةَ، فيما هبَّت رياح منعشة، واضطرب البحر بتيارات قوية متضاربة. كان القارب يحمل خمسة شبان مفتولي العضلات، بالإضافة إلى تورش الذي نظَّم فرقة الإنقاذ. كانوا جميعًا في حالة معنوية ممتازة، عداه هو، حيث كان متوجسًا قلقًا.

وفي حين كان الآخرون ما زالوا في عطلة، فقد اضطُر هو إلى تركِ عمله وقضاء وقته الثمين في مغامرة بالغة الخطورة. واضطُر عِلاوة على ذلك إلى دفعِ نفقات أصدقاء أخيه — وهما معلِّمان شابَّان — وتأجير قارب بخاري، مما اشتمل على الاستعانة برجلَين سويديَّين لقيادته.

من حسن الحظ أن مالك القارب يتحدَّث الإنجليزية، فاستطاع أن يحدِّد موقعَ الجزيرة من الوصف الذي أخبرتهم به الآنسة جونز. وأخبرهم كذلك بتاريخ بناء المنزل، الذي يستأجره حاليًّا السيد أوبنهايمر.

تهلَّل أوزبرت في صمتٍ لطمس سيرة الكونت، إلا أن تورش أشار إلى أن استئجاره المنزل مباشرةً أو من الباطن ليس دليلًا على أنه مفلِس. وبينما كان الشابان الآخران يتبادلان حديثًا وديًّا مع الرجلَين السويديين، استغل تورش الفرصةَ لتحذير أخيه.

«لا تتهور. علينا أن نتمهَّل. نتحسَّس طريقنا.»

«مؤكد.»

كان أوزبرت قد درجَ على إخفاء مشاعره، وصار ينقل عاداتِ التحفُّظ القومية إلى الفتيان المسئول عنهم. كان وجهه الوسيم جامدًا، لكن اتَّقدت عيناه إذ أردف قائلًا:

«سيتوقَّف الأمر عليها. إذا كانت تلقَّت خطاباتك، فسوف تترقَّب وصولنا. وستُهرع إلى ملاقاتنا. لا بد من ذلك.»

فقال تورش متفقًا معه: «إذا كانت تلقَّتها. أتساءل كيف فهمت الحاشية التي ألحقتها بنهاية خطابي. أتحدَّى أيَّ شخص غيرها أن يفهم ما بين سطورها.»

ونسي أنه مقبِل على مهمة بغيضة؛ إذ تأمَّل مبتسمًا ابتسامةً عريضة دقةَ رسالته، التي أرفقها كاستدراكٍ بعد أن أفادها رسميًّا بتسلُّم مخطوطها.

«بطاقتك جعلتني أريد الذهاب إلى بروج وإحياء الذكريات القديمة.»

ومع اقترابهم أكثرَ من الجزيرة، صار المنزل ببنيانه الأبيض الراسخ واضحًا. استطاعوا تبيُّن السُّلم الحلزوني الواسع بدرجاتِه الفخمة، وشجيرات الزهور ذات الألوان المتداخلة المزروعة على المنحدرات. وعندئذٍ، حين انطلقوا حول أحد أطرافها، أخذ أوزبرت نفسًا عميقًا.

وقال: «انظر. الحجرة التي تكتب فيها. لا بد أنها هناك.»

انعكست أشعة الشمس على الزجاج، فأبهرت عيونهم وهم يحاولون تبيُّن وجهٍ من وراء النافذة. استطاعوا أن يسمعوا الهدير البعيد للمياه المضطربة، ويروا ارتفاع أسوار بيضاء من الزَّبد وهبوطها على الصخور. لكن لم يبدُ أن هناك شخصًا واقفًا يترقَّب وصولهم في الشرفات التي كادت تشكِّل دائرة حول المنزل.

قال أوزبرت: «ستكون في انتظارنا على رصيف النزول.»

وحين داروا دورةً واسعة حول الجزيرة، لتلافي الشِّعاب، رأوا قاربًا صغيرًا يجذف به رجلٌ ضخم، في حُلة شعبية. وكان في القارب فتاتان صغيرتان، أبرزُ ما في ملبسهما قبَّعتان ضخمتان. وقد التمع جسداهما البرونزيان في أشعة الشمس وهما تلقيان بصنارتيهما في البحر.

فتساءل أحد أصدقاء أوزبرت: «مَن هاتان الصغيرتان الشبيهتان بطرَزان؟»

فأجابه تورش: «ابنتا السيدة يو.»

فارتفع حاجبا الشاب غير مصدِّق.

وعلَّق قائلًا: «لا بد أن الرجل لديه روحٌ رياضية ليشمل الأسرةَ في عملية الخطف. إنها لعطلة جميلة ورخيصة للصغيرتَين.»

فقال تورش متجهمًا: «أتفق معك. فقد بدأت أعتقد أننا جئنا المنزل الخطأ ... فكل المنازل المبنية على الطراز الحديث لها نفس النمط.»

«بالضبط. كل المنازل القائمة على هذه الجزر المتتالية متشابهة.»

بيْد أن أوزبرت لم يتأثَّر بالشك الذي انتاب الكل، وأخذ يلوِّح بحماسة للصغيرتَين. فردَّتا على تحيته، لكن بلا مبالاة كما يحيي مركب مركبًا آخر. كان من الواضح أنهما لم تتوقعا أو تتعرَّفا على صديقيهما؛ وقد بدتا مبتهجتين في إجازتهما، حتى إن قلب تورش غاص في صدره من الشك مجددًا.

وتفاقم الأمر حين اجتازوا المنعطف الأخير ووصلوا إلى رصيف النزول. لم يكن في استقبالهم إلا رجل سويدي ضخم بشعر أشقر، يرتدي سروالًا أصفر قصيرًا وقبعة سوداء كبيرة من اللَّبَد.

فتحدَّث إلى صاحب القارب الذي ترجم لهم ما قاله.

«يقول إن الكونت قد أرسله ليرشدكم في صعودكم إلى المنزل. وإنه آسف على عدم تمكُّنه من المجيء بنفسه؛ وذلك لأن حادثة بسيطة وقعت التوة للكونتيسة.»

فسأله أوزبرت على الفور: «ماذا؟»

«لقد التوى كاحلها ... هل ستبقون لتناول وجبة خفيفة؟»

«لا، فسوف نعود سريعًا. انتظرونا هنا.»

ترك الرجال الإنجليز رفيقَيهم السويديَّين عند المرفأ وساروا على خطى مرشدهم وسط الغابة، حين انحرف عنهم أحدُ صديقَي أوزبرت. فقد اكتشف السلالم الصخرية المؤدية إلى حمام السباحة وصاح بهم ليتبعوه.

تألَّق حمام السباحة المتواري بأشعة الشمس، وقد تخلَّف في مياهه الخضراء الصافية عوامة مطاطية ضخمة منتفخة. وتكدَّست نمارقُ زاهية الألوان على الحواشي التي تناثرت عليها الأشياء الصغيرة المعتاد جمعُها من أجل العطلات. لم يبدُ المكان مثل مسرح لمكيدة أو جريمة، بل كان مشجعًا على المكوث مدةً أطول. وبدا واضحًا على أحد المعلِّمين الشابين الذهول وهو يخاطب تورش.

«هل هناك فرصة أن يختطفني ذلك الرجل في عطلة نهاية الأسبوع؟ ربما بأن توعز إليه بأنني مليونير مستهتر.»

ظل أوزبرت دون أن يتأثَّر بالشك، تدفعه الطاقة النابعة من مطمحه، فمضى بخطواتٍ واسعة يسبق الآخرين. كان قد حفَّز نفسه حتى وصل بها إلى حالةٍ قصوى من الضراوة، حيث رأى نفسه كالقديس جرجس — أو واحد من رجال المباحث الفيدرالية — ذاهبًا في حملةٍ من أجل الإنقاذ. ومع أنه لم يكن يملك قدرة أخيه على التخيُّل، فقد ظل

يتصور لحظةَ لمِّ الشمل والتحرُّر السارة تصورًا حيًّا جدًّا، حتى إنه شعر باستياءٍ على كل دقيقةٍ مهدرة.

وحين خرج من بين الأشجار، وقف ينتظر الرَّكب المنهَك اللاهث حتى يصل إلى مرج الحشائش. مسح تورش وجهه، والتفَت نحو الشابَّين. لم يكن أوزبرت قد أسرَّ لهما بالأمر كاملًا، وقد جاءا إلى السويد ولديهما فكرةٌ مبهمةٌ بشأن «الاستعداد لتقديم المساعدة في حالِ وقعت مشاجرة».

قال تورش مقترحًا: «ما رأيكما لو انتظرتما هنا؟ ونحن لن نتأخر.»

ترك الشقيقان الشابين الآخرين متمدَّدَين على مقاعدَ للاستلقاء، وسارا هما نحو المنزل حيث نزل الكونت السُّلم سريعًا لملاقاتهما. فابتسم لهما ابتسامةً ودية ومد يده مرحِّبًا.

فقال: «ممتاز. إنني مسرور لرؤيتكما ... وصديقيكما كذلك. ألن يدخلا؟»

فأجابه تورش تلقائيًّا: «لا، شكرًا. فإنما جئنا لزيارة قصيرة.»

«لكن هذا لا يصح. سآمر بإرسال مشروبات لذَينك الشابَّين ... فلتتفضل يا عزيزي، تفضَّل. إن جورجيا في انتظار رؤيتك.»

فسأله أوزبرت، متحدثًا بجهد: «أين جورجيا؟»

كان أوزبرت قد تأمَّل هذا اللقاء كثيرًا جدًّا؛ إذ تصوَّره وقد غشَّاه الغضب العارم والعنف؛ إلا أن سلوك الكونت نزل بهما إلى مستوى الضيوف التقليديين. وهكذا فإنه بدلًا من الهجوم، لبِسته حالةٌ من الهدوء فحيَّا مضيِّفه بهزِّ رأسه، وإن كان قد عمد إلى تحاشي مصافحته كي لا يكون منافقًا.

وقد أجاب الكونت على سؤاله؛ إذ تقدَّمهما في براح الرَّدهة ذات الجو المنعش.

«جورجيا في حجرة الاستقبال، لتريح قدَمها. إنها حادثة بسيطة تافهة. فقد التوى كاحلها على السُّلم. الأمر بسيط حقًّا، كلُّ ما في الأمر أنها لن تستطيع السيرَ مدة يوم أو نحو ذلك.»

ولَمَّا كان أوزبرت في حالةٍ بالغةٍ من الذهول والارتباك لا تمكِّنه من ملاحظة التفاصيل، تعثَّر عند دخوله حجرةَ الاستقبال. فقد لاحت له صورةٌ مبهمة لمكان فسيح يتخلله الهواء وضوء الشمس، وألوان رقيقة وانعكاس المياه يتراقص على السقف والجدران. وبَروَزَت كلُّ نافذة لوحةَ البحر المضطرب الذي يميلُ إلى اللون الأخضر، وحملت النسمة عبيرًا رقيقًا لزهور رقيب الشمس.

بدَت له الحجرة صحراءَ شاسعة ضمَّت بداخلها واحةً وهي أريكة جورجيا. كانت القدَم المغطاة بالضمادات ممددةً على المقعد، دليلًا على إصابتها. وكانت ترتدي ثوبًا أبيضَ وبدا وجهها شديدَ الاسمرار بالتباين مع شعرها الفاتح اللون، الشاحب مثل ضوء القمر.

رأى عينيها والضوء يتَّقد فيهما فجأةً حين نظرت إليه. كانتا تلمعان مثل نجمتَين، تشعان حبًّا وشوقًا ... بيْد أن الشعلة خبَت وانطفأت قبل أن يصل إلى الأريكة. فقد أدرك في لحظةٍ مدمِّرة تبدَّد فيها وهمه أن الواحة كانت محض سراب؛ إذ رحَّبت بهما بابتسامة جامدة شأن مضيِّفة تراعي الرسميات.

ثم شعر بيدِ أخيه تقبض على ذراعه.

وهو يتمتم قائلًا: «اترك الأمر لي.»

جاء صوت تورش مبتهجًا وغير مبالٍ وهو يحيي جورجيا.

«مسرور للغاية لرؤيتكِ مرةً أخرى. لكن يؤسفني سوء الحظ لِما ألمَّ بكاحلك.»

فضحِكت ضحكةً بدَت مصطنعة وقالت: «أليس كذلك؟ واليوم من دون كل الأيام. لكنني مسرورة لرؤيتك. وأوزبرت أيضًا ... أعتقد أنك لا تعرف السيدة فاندربانت.»

«أعرفها. فقد التقينا في بروكسل. فهلا تقدِّمين إليها أخي؟»

حين قدَّموا أوزبرت إلى الأرملة الغنية ذات الطبع الحاد والأسلوب الوقور، ذكَّرته ببعض السيدات المهيبات الجانب اللواتي كان قد التقى بهن في المدن التي تقع بها كاتدرائية. لكنه استطاع بطريقةٍ ما أن يرُدَّ على تعليقاتها التقليدية، بينما كان الكونت يقدِّم لهم السيجار والمشروبات بأسلوب مضياف.

إلا أن تورش قال على الفور: «شكرًا، لن نتناول شيئًا. فكلانا ممتنع عن المشروبات الكحولية.»

ازدادت حَيرة تورش الشديدة إزاء الموقف. فقد بدا موقف جورجيا دليلًا على أن خيالهما قد ضللهما. فلم تبادِر بأي إشارة استغاثة، كما أن أسلوبها في الترحيب بهما أوحى بأنهما تطفَّلا عليهما في شهر العسل. لم يكن ثمة شكٌّ أنها متيَّمة بالكونت، فحتى وهي تخاطبهما، كانت عيناها مثبتتَين عليه.

لكنه بدأ فجأةً يتساءل إن كانت خائفة على سلامة صديقيها، كما كان الأمر مع الآنسة جونز. وبينما هو يتحيَّن الفرصة ليبُثَّ الطمأنينة في قلبها، مهَّد الكونت له الطريق.

فقد قال: «إذا رفضتما شرابًا، فلا بد أن تمكثا لتناول الغداء. كلكم. كم عدد الناس في القارب؟»

فأجابه تورش: «اثنان. إننا ستة إجمالًا. إنه لعددٌ كبير على أن نفرض أنفسنا عليكم من دون دعوة.»

جعل يرمق جورجيا بترقُّب أثناء كلامه.

وحدَّث نفسه قائلًا: «ستعلم من ذلك أنهم لا يفوقونا عددًا. ولا يوجد رجالٌ مسلَّحون مختبئون لحمايتهم. لديها لسان. عليها فقط أن تنطِق به.»

فتحت جورجيا فمَها، لكن فقط لتسأل عن أمِّها.

«هل رأيتها مؤخرًا؟»

«قبل أن آتيَ إليكِ مباشرةً. وقد حمَّلتني إليكِ بمحبتها ورسائل.»

«أوه، ما هي؟»

«إنها شخصية. سأخبرِكِ بها فيما بعد، إذا لم يمانع الكونت.»

«كم هو غريب عليها أن تعمد إلى الغموض. هل حكَت لكم الآنسة جونز عن زيارتها لنا؟»

«لقد أخبرتنا بالكثير والكثير.»

حين انتبه أوزبرت للمغزى في نبرة تورش، بدأ يدرك أنه رغم تبرُّمه من سياسة التباطؤ، فربما يكون أخوه المشاغب الضئيل حكيمًا في عدم اندفاعه. فقد أحسَّ أن أسلوبه بيِّن؛ إذ يمكن لتعليقاته العابرة أن توحي بشيء أو تعطي معنًى مزدوجًا.

قال الكونت مقاطعًا حديثهما، وهو يبتسم لجورجيا: «الطفلتان في حالة ممتازة. هل رأيتهما في القارب؟»

«الحق أنني رأيت زوجًا بديعًا من الهمج الصغار. فخشيت أن تكونا من آكلي لحوم البشر. لكن يبدو أنهما لم تتعرَّفا إلينا.»

«لن تعرفاكما عن بُعد. كما أننا لم نكن نتوقَّع مقدِمكما.»

فقال أوزبرت، قائمًا عن مقعده: «سألوِّح لهما من الشرفة.»

فجاءه صوت جورجيا حادًّا: «لا. لا تذهب يا أوزبرت. أريد أن أتحدَّث معك. فسوف أتذكر كلَّ الأشياء التي أردت سؤالك عنها حين ترحل. أخبرني، كيف حال الرياضات المدرسية؟»

اتخذ أوزبرت مجلسًا بجانب الأريكة، شاعرًا بالامتنان على فرصة اقترابه منها. وفعلَ ما في وُسعه لتسليتها، لكنه كان يعلم أنه لم يكن مستحوذًا على انتباهها. رغم أنه راح يلمح جورجيا الحقيقية من حين لآخر — في شبح نظرة أو ابتسامة — فقد راوده شعور محيِّر بوجود حاجز ملموس، كأنه يراها من خلال لوح زجاج سميك.

وفي أحيان أخرى، شعر أنها لم تكن معه على الإطلاق مع أن بإمكانه مدَّ يده ولمسها، فكأنه إنما يحادث صورتها على المرآة.

وقد تأثَّر أخوه بدوره بالشك الذي انتابه. فقد تساءل قلقًا ما إذا كانت جورجيا خاضعة لسيطرةٍ عقلية؛ وهو الاحتمال الأمكر والأعسر أن يتغلبوا عليه. فسيكون من الأسهل أن تطيح بجمع كامل من رجال العصابات — من دون سلاح ولا مساعدة — على أن تزعزع ولاءها.

كان ثمَّة خللٌ ما، لكنه لم يستطِع أن يحدِّد موضعه. فقد لاحظ كيف أن جورجيا عضَّت على شفتها فجأةً حين سأل عن ابن الأخ، كلير.

وقالت السيدة فاندربانت للتبرير: «إنه في سنٍّ حرجة. وهو حيي، ويتوارى عن الضيوف.»

ولما نفد صبره من حالة الجمود، قرر تورش أن يلمِّح للكونت بغرضه.

فقال: «لقد قرأت الجزء الأول من روايتك يا جورجيا. أعجبني، لكن نهايته في غاية الإبهام. إذا كنتِ ستجعلين البطلة تخلُّ بولاء أحد أفراد العصابة، فمن المحتمل أن يكتسب تعاطف القارئ فلا تروق له الحال حين يُقبض عليه … فلتتذكري أن من القواعد الأخلاقية لروايات الإثارة أن يُعاقب المجرمون.»

أرخى الكونت أحد جفنيه بعض الشيء، ونظر إلى تورش بعينٍ زرقاء صغيرة محدقة وعين أخرى لامعة وواسعة.

وسأله وهو يكوِّر منديله ويرميه في الهواء: «هل لديك أي اقتراحات لتقدِّمها لها؟»

فصاحت جورجيا بصوتٍ عالٍ قائلة: «فلتبقَ ساكنًا يا جوستاف. إنك توترني.»

«لا تمزحي يا عزيزتي … حسنًا يا تورش؟»

فقال تورش: «لا يسعني إلا اقتراح فكرة بسيطة. من الممكن أن تجعل جورجيا بطلتها تبلغ وكيلها بنداء استغاثة، تخبره بشأن محنتها.»

«أمرٌ سهل جدًّا. لكن كيف؟»

«جبنًا مني سأترك هذا الأمر لملَكتها الإبداعية. أما بعدُ فمن الممكن أن يُقنِع هذا الرجل ناشرها — وهو لا بد أن يكون لديه نفوذ من نوعٍ ما — فيستعين بسكوتلاند يارد أن تأتي إلى الجزيرة بقوة صغيرة من رجال الشرطة. فما رأيك؟»

وأمسك تورش عن الكلام، راجيًا أن يكون قد كشف لجورجيا ما في جَعبته، وأن يكون في الوقت نفسه قد خدع الكونت ليظن أن زيارته حملةٌ رسمية.

فعلَّق الكونت قائلًا: «أعتقد أنه سيجد صعوبةً بالغة في إثبات ذلك. فالأرجح أن يبادر الشرير في رواية جورجيا بالهجوم ويكبِّدهم تعويضات باهظة، إذا حدث ووصلت القضية إلى المحكمة.»

وعلى حين غِرة لم يَعُد أوزبرت قادرًا على تحمُّل التوتر الناشئ عن الجمود. فعمد إلى التحدُّث بصوت منخفض إلى المرأة التي يحبها، متجاهلًا الآخرين.

«لقد جئنا لاصطحابكِ إلى المنزل يا جورجيا.»

لكنها انكمشت منه في رعب، مما جعله منزعجًا مذهولًا.

قالت تذكِّره بنبرة ضعيفة ورسمية: «إنني في منزلي.»

وأيَّدها الكونت بكبرياء وهو غاضبٌ.

«إنه لقولٌ عجيب. لا بد أن تفسِّره، رجاءً.»

فقال تورش: «سأفسِّره أنا. فقد جئت في مهمة غير سارة. فقد سرَت شائعة جعلت أم جورجيا منزعجة للغاية. فقد بات يُقال إن ابنتها ليست متزوجة منك وإنك تحتجزها هنا رغمًا عنها.»

فقاطعه الكونت قائلًا: «آه، ها قد بدأت أفهم. فثمة سيدة ردَّت على حسن ضيافتنا لها بنشر الشائعات السامة. وأنا الذي تكبَّدت مشقة مرافقتها من سالتسوبدن بنفسي، رغم أنني كنت قد رجعت لتوي من هناك في اليوم السابق.»

فتساءل تورش: «هل هذا صحيح؟»

«من المفضَّل أن تردَّ جورجيا على ذلك.»

ردَّت جورجيا بسرعة لاهثة تقول: «إنه كلام غير معقول. إن نيتك سليمة، وإنه لكرمُ أخلاق منك أن تقطع كل هذه المسافة. لكنه موقف مزعج جدًّا. و... وأعتقد أنه من الأفضل أن ترحلا.»

كانت تتحدَّث وعيناها مثبَّتتان على المنديل الذي أخذ الكونت يلويه بين أصابعه. أدركت أنه قد نسي أن يمسكه. إلا أن هذه الدمية المتهورة غير المسئولة (المقصود كلير) — المتحولة مع كل تطور جديد في الموقف — كانت تلهو بحياة ابنتيها.

فإنه إذا ألقى المنديل — سواء دون قصد أو بقصد — كانت كلير الواقفة بالخارج في الشرفة الأرضية ستراه يسقط. وبمجرد أن يلمس الأرض، كانت ستلوِّح بوشاحها الأبيض في الحال لتشير إلى البروفيسور حتى يهزَّ القارب بعنف.

كانت جورجيا لا تزال مذهولة من تحوُّلها السريع من الفرح للألم المبرح، والهجوم العنيف الذي وقع عليها. فقد حُبست وكُمِّم فمها بالقوة لتظل ساكنةً وصامتةً إلى أن

يستطيع البروفيسور دعوةَ ابنتَيها إلى نزهةٍ للصيد. وضع الكونت يدَه على وجهها غير آبه أنها كادت تختنق، فيما مزَّقت كلير جواربها وربطت ضمادة حول كاحلها ربطةً ضيقة بلا رحمة.

كان الظلام قد بدأ يغشى الحجرةَ حين رُفع عن فمها قيدُ الكمامة ونزل شراب في حلقها. وبينما كانت تبتلعه لا إراديًّا، أدركت أنها تطالع عينَين رماديتَين مثل الصوان خاليتَين من الرحمة.

قالت السيدة فاندربانت بنبرة بطيئة وواضحة، كأنها تخاطب طفلًا أو شخصًا غبيًّا: «فلتصغي إليَّ. لقد التوى كاحلكِ للتو؛ لذلك لن تستطيعي الذهابَ لاستقبال صديقيكِ. ينبغي ألا يشكَّا في شيء. وإلا فستعاني ابنتاكِ من التبعات.»

استطاعت جورجيا أن تهمس فقالت: «أين هما؟»

«تصطادان. مع البروفيسور ... إن لم تصرفي صديقيكِ، فستقع حادثة. ولن تكون هناك فرصة لإنقاذهما. سينزل البروفيسور أولًا لنجدتهما. لكنهما ستظلان عالقتَين تحت القارب.»

بينما جورجيا تحدِّق فيهم، خائفةً أن تفتح شفتيها، خشيةَ أن تعجِّل بمأساة، تحدَّثت كلير بكراهية وحشية.

«إنه رجلي. إذا — إذا حدث وقُبض عليه، فستُعاقب ابنتاك على ذلك.»

حتى وهي في خِضم المعاناة، استطاعت جورجيا أن تعرف أن الفتاة قد أصابها الخوفُ بالجنون. فقد كانت مثل حيوانات الغابة حين يتعرَّض وليفُها لفخ، فتغفُل عن العقل والضمير.

كان هذا اليقين من انتقام كلير الذي ختم على شفتيها بخاتم الصمت، وأجبرها على محاولة إقناع صديقَيها أنها على ما يرام. مرَّت عليها أوقاتٌ أوشكَت فيها أن تخرج عن صمتها. وحين صفا ذهنها، أدركَت أن التهديد كان في جوهره كاذبًا. فإنها إذا فضحت العصابة، فلن يكون موت ابنتيها ذا نفع، بل سيكون تضحيةً خطيرة.

كان ما دفعها أن تحسم بهلاكها هو تصورها الجلاد — الخالي من المشاعر أو الخيال — وهو ينتظر بقسوة رؤيةَ المنديل الأبيض وهو يرفرف من الشرفة.

قالت جورجيا: «من الأفضل أن ترحلا.»

لكن على الرغم من طلبها، فقد ظل تورش متمسكًا بموقفه.

وقال يذكِّرهم: «لقد قطعت مسافةً طويلة. فقبل أن أرحل، لا بد أن يكون لديَّ معلومة محدَّدة من أجل أم جورجيا. هلا تخبرينني أين تزوجتما ومتى؟»

فقال الكونت بعجرفة: «لا أرى سببًا يجبرني على ذلك.»

«هلا تطلعني على عقد الزواج؟»

«لن أفعل. فإن طلبك هذا إهانة. أنت نفسك تدَّعي أنك متزوج. فهل شكَّ أحد في ذلك؟»

«الأمر مختلف. ونظرًا للشائعة، أعتقد من الأعقل أن تكون صريحًا.»

«شكرًا. لكنني سأخرِج الدليل على زواجي في الوقت المناسب، إذا جاءت مناسبة.»

أصغت جورجيا إلى المشاحنة بيأسٍ كامد. كانت الضمادة الملفوفة حول كاحلها ضيقة جدًّا حتى إن ساقها بدأت تتورَّم، لكنها كانت فاقدةً الإحساس بالألم. الآن وقد فات الأوان، فقد تعذَّبت لإدراك أنها كان لا بد أن تتوقَّع الاعتداء الذي باغتها مثل انفجار القنبلة، من دون سابق إنذار. لكنها ظلت تعيش في حُلم سعيد حافل بالآمال، منذ أن تلقَّت خطاب تورش وفهمت الحاشية الملحقة في نهايته.

حدَّثت نفسها قائلة: «كان لا بد أن أبقى متنبهةً ليلًا ونهارًا. ما كان يجب أن أجعل ابنتيَّ تغيبان عن ناظري. كان ينبغي أن أحبسهما معي في حجرتي.»

لاحظت جورجيا أن هارفي كان ينظر إلى أخيه كأنه يشير عليه بالتراجع. إلا أن أوزبرت بدلًا من التحرُّك، تحوَّل إليها.

وقال: «دعيني أرَ سوار الحظ الذي أعطيتكِ إياه.»

فأجابته قائلة: «لقد انقطع. في اليوم الذي جاءت فيه الآنسة جونز. لقد وقع في البحر.»

«لكنكِ كنتِ ترتدينه في هذه الصورة، التي التُقِطَت بعدها بأسبوع، حسب التاريخ.»

«دعني أرَها.»

حين مدَّ الكونت يده لتناول الصورة، أسقط المنديل الذي كان قد ظل يلويه بعصبية بين أصابعه. فهوى ناحية الأرض، لكنه استعاده قبل أن يصل إلى البساط بأن التقطه بغتةً.

ثم قال بنفاد صبر: «هذا لا شيء.»

فقال أوزبرت مؤكدًا: «لا شيء، بَيْد أنه كان بمقدورك أن تأتيَ بصورةٍ لامرأةٍ سعيدة ... أما الآن فانظر إليها.»

غطَّت جورجيا وجهها بكفَّيها، غير قادرةٍ على مواجهة عيونهما.

وقالت: «ارحلا رجاءً.»

فسألها الكونت: «هل تريدين الذهابَ معهما. فلتتذكَّري أنكِ حرةُ الإرادة. لا يوجد ما يمنعكِ من الخروج من هذا المنزل مع هذَين الرجلَين.»

«لا. لا.»

«إذن فلا يوجد شيء آخر ليُقال. الوداع يا جورجيا. هيا بنا يا أوزبرت.»

سار تورش نحو الباب، مجبَرًا على قبول الهزيمة؛ إلا أن أوزبرت لم يتبعه. بقي مكانه ينظر إلى جورجيا بعينين توَّاقتَين، كأنه لا يطيق أن يتركها.

وإذا به يجفل في انزعاج.

ويحتجُّ قائلًا: «تلك الضمادة ضيقة جدًّا. مَن الذي وضعها؟»

فأجابته السيدة فاندربانت: «أنا. الوتر المصاب لا بد من ربطه بإحكام.»

«لكنكِ أوقفتِ دوران الدم. فقد تورَّمت ساقها. بما أنه لا يوجد طبيب، فمن الأفضل أن ألقي نظرة عليه. لقد درست في جامعة كينجز كوليدج مدة عام؛ من ثَم فإنني على دراية بهذه الأمور.»

فاحتجَّ الكونت وقال: «لكنني لن أسمح لك بذلك.»

تجاهله أوزبرت ونظر إلى أخيه، الذي بات وجهه يقظًا من الارتياب.

سأله أوزبرت: «كيف يبدو لك هذا السلوك الفيكتوري المتزمِّت، مع النظر لعدد المرات التي سبَحنا فيها معًا أنا وجورجيا؟»

فأجابه تورش: «إنه يجعلني أتساءل إن كان بذلك الكاحل ما يثير الريبة أم لا.»

«سوف أتبيَّن ذلك في الحال.»

كانت عينا جورجيا مثبَّتتَين على المنديل الذي أخذ الكونت يكوِّره بين كفَّيه. ثم ألقاه في الأرض، وقبض على ذراع أوزبرت ...

كان قد نسي الإشارة. فجنَّ جنون جورجيا من الفزع، وهبَّت قافزةً من فوق الأريكة. وصرخت تقول: «لا يا كلير. لا. لا تلوِّحي. لقد وقع بالخطأ.»

وحين خذلتها قدمُها الخَدِرة، تلقَّاها أوزبرت بين ذراعَيه، لكنها قاومت لتحرِّر نفسَها. صرخت بشدة تقول: «ابنتاي. سوف يُغرِق ابنتيَّ. دعني أذهب.»

أفلتت منه، ومشت متعثِّرة إلى الشرفة ثم وقفت، وجعلت تحدِّق نحو البحر.

كان ثمَّة قارب صغير يهتز برفق على مساحة آمنة من الشعاب المرجانية المغمورة تحت المياه. كانت الصغيرتان تسحبان صنارتَيهما، والبروفيسور يلوِّح بمنديل أحمرَ ردًّا على الإشارات المضطربة التي لوَّحت بها كلير من الشرفة.

ولدى رؤيته جورجيا، أنزل مجذافه في الماء وبدأ يجذف متجهًا بالقارب نحو المرفأ.

ظلَّت جورجيا تشاهد القارب، عاجزةً عن الحركة أو الكلام لذهولها الشديد. تجمَّد وجهها كأنها لا تستطيع أن تصدِّق ما تراه. ثم التقطت حقيبتها بغتةً، ونزلت السُّلم مسرعةً وهي تعرُج.

أما الكونت، الذي كان قد استعاد رِباطة جأشه، فقد لاحقها بعينيه مبتسمًا.

وعلَّق قائلًا: «هستيريا شديدة. إنني أحذِّرك يا تورش، ستجد سائرَ شكاواها مختلَقة. فالسيدة لديها خيال خصب جدًّا.»

فقال تورش: «سوف نخوض في هذا الأمر لاحقًا. وبمجرد أن أتمكَّن من المغادرة، سأعفيك من كل مسئولياتك.»

التقى الشقيقان بجورجيا وابنتيها قبل أن يصلا إلى المرفأ. تقدَّمت ميرل وميفيس تجريان، فاستعد تورش لتلقي إقبالهما عليه، في حين ألقت جورجيا بنفسها بين ذراعَي أوزبرت. وبعد برهة من الوقت عبَّروا فيها عن عواطفهم، خلَّص هارفي نفسه وأرسل نظره لأسفل بين أشجار الصنوبر نحو البحر.

وسأل جورجيا: «أين الرجل الضخم الذي كان يجذف بالصغيرتَين؟»

بدا على جورجيا الإقدامُ وهي تشير إلى خطٍّ من الزَّبد كان في أثر قارب بخاري متراجع.

وقالت ميفيس عَرَضًا وهي تفسِّر ما يفعله: «إن البروفيسور يُسخِّن المحرِّك ليس إلا.»

فهزَّ تورش رأسه مبتسمًا.

وقال: «واحدة أخرى من نهاياتكِ غير المحسوبة. إنه لخطأ جسيم في أخلاقيات العمل الروائي.»

لم تُنصِت جورجيا لانتقاده؛ إذ كانت لا تزال تلتمس حلًّا للغز. فإنها حين دفعت بالحقيبة التي احتوت على مالها في يد البروفيسور، تلقَّاها من دون أن ينبِس بكلمة شكر، أو تختلج عضلة في وجهه الأحمر العريض. لم تُخبرها عيناه الصغيرتان اللامعتان بشيءٍ مما يدور في ذهنه. فلن تعلم أبدًا إن كان قد تصرَّف بدوافعَ دنيئة لأجل مصلحته الشخصية، أم إن معاييره الإجرامية تضم حدًّا معينًا للضحايا. بل وبقي احتمالٌ عجيب أن تكون ميرل قد اخترقت الصدوعَ المظلمة لروحه ووجدت طريقها إلى قلبه.

لكن ثمَّة حقيقة واحدة واضحة في خِضم هذا الارتباك. وهي أن الجلاد لا بد أن يتقاضى أجره، وإن كان في حالتها لم يقُم بوظيفته.


هنداوي